

الأنفال والمعتاد في رواية غير اممية تأريخية

رواية غير اممية تأريخية



هي الحلقة الاخيرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تتضمن وصف احوال الاحرار العثمانيين وجماعتهم
السرية وما قاسوه في طلب الدستور ، ووصف يانز
وقصورها وخداعها وعبد الحميد وجوابيه واعوانه
وسائل احواله الى فوز جمعية الاتحاد والترقي بديل
الدستور في ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨



تأليف

جرجي زيدان

منشىء الملال



مطبع الخلاصي لطباعة مختصر

سنة ١٩١١

المقدمة

وصلنا في سلسلة روايات تاريخ الاسلام في السنة الماضية الى الحلقة الرابعة عشرة وهي رواية عبد الرحمن الناصر الاندلسي في اوائل القرن الرابع للهجرة . ولا يزال لدينا من هذه السلسلة عدة حلقات قبل الوصول الى الانقلاب العثماني في اوائل هذا القرن . ولكن القراء افتروحوا تأليف رواية عن هذا الانقلاب والخوافي ذلك فلم نجد بدأ من اجابة افتراهم فكتبنا هذه الرواية وصفنا فيها الاحرار العثمانيين وجمعياتهم السرية ومساعيهم في طلب الدستور وذكرنا امثلة مما قاسوه في سبيل ذلك مع وصف يلدرن وقصورها وحذايقها وعبد الحميد وجواسيسه واعوانه وسائل احواله . الى فوز جمعية الاتحاد والترقي بنيل الدستور في ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨ . ولم تتجاوز ذلك الى الانقلاب الثاني الذي خلع فيه عبد الحميد وتولى جلاله السلطان الحالي محمد الخامس

وقد سمعناها « رواية الانقلاب العثماني » وجعلناها من جملة سلسلة روايات تاريخ الاسلام . وبما اننا لا نعلم كم عدد الحلقات الباقية بينها وبين رواية عبد الرحمن الناصر فقد عدناها الحلقة الاخيرة من تلك السلسلة وسنعود في السنة القادمة الى تبع حلقات السلسلة حسب الاعصر . فنكتب رواية في اهم الحوادث الاسلامية بعد عبد الرحمن الناصر ونعلن ذلك في حينه وبالله التوفيق

الفصل الاول

حديقة البلدية في سلانيك

سلانيك او سالوينك من اكبر مدن المملكة المماليك وقد اشتهرت، وُخرأ بـ نيل المستور على اليدي احرارها . وهي واقعة على البحر مثل موقع زمير وسكنها نحو ١٥٠ الفاً منهم ستون الفاً من اليهود والباقيون من الاتراك والاوروم والمقدونيين والابان وسائر الاجناس . والسبب في كثرة يهودها انهم نزحوا اليها من اسپانيا كما نزحوا الى الاستانة وغيرها . ولا يزالون يتكلمون لغة الاسبان . وللمدينة رصيف عريض يمتد على شاطئ البحر مير نصف ساعة قد غرس الاشجار على جانبيه تحدد المنازل الفخمة من جهة والبحر من الجهة الاخرى وهو اجل منتزهات سلانيك يقضيه الناس ساعات الترفة في الغربات او التزاموا اي اوقات على الاقدام

وفي سلانيك حديقة للبلدية هي احسن منتزه لتنفسية الاوقات بالنادمة والخدمة وهي كبيرة واسعة فيها كل انواع الاشجار والرياحين والازهار ومطعم وقهوة وبيانات ونحو حديقة بق شان في الاستانة وحديقة الاذبكة في مصر يأتياها طلاب الزهرة او اليهود نهاراً ويلاؤ خصوصاً بعد الظهر الى العشاء . فذلك نجدها غاصة بالواردين وفيهم الشاب والشيخ والصبية والمجوز ازاوجاً اياتاً او جماعات على اختلاف الاديان والاجناس من الافرع او اليهود او الاتراك على تباين عاداتهم واخلاقهم . بعضهم يجلسون الى موائد يتناولون المشروبات والبعض الآخر يعشون في طرقات الحديقة بين الاشجار يختي الناس بالترفج بعضهم على بعض وقد اختلط الخابل بالنابل وكل منهم في شاغل ينتبه او يعاتبه واولاده يراعيهم ويحيي لهم ما يطلبون او يخدتون بما يطيب لهم بلا مرارة ولا حذر . أما في زمن الاستبداد على عهد عبد الحميد فكان الناس اذا دخلوا الحديقة او غيرها من اماكن الاجتاع تخطبوا هما خوفاً من جلوس او وقوافل يفتحن لفظة يسمعها فيتجرون بمنتها الى المازين واصحابه فيعرض قاتلها للموت او الخراب . وقد لا يكون لذلك القول غرض او مغزى . ولكن الجلوسية في زمن ذلك الطاغية يلفت ميلنا لم يكن له نيل في زمن من الازمان وخصوصاً في اواخر أيامه اذ تبدأ روایتنا هذه

في امسيل يوم من ربیع سنة ١٩٠٧ كانت الحديقة المشار اليها في ابھي حلباً قد

كثها الطبيعة حلة خضراء مزركشة بالازهار والرياحين وصنف الجلو وفاحت رائحة
الحقل باجل ما يكون . وغاطر الناس اليها على جاري العادة وفهم النساء اكثرن
بالي الافراغي وبعضاهن على الزي التركي . والتركيات اذا اثنين الحديقة اخترن ناحية
منها منفردة يجلسن اليها حتى لا يكن عرضة لعيون المارين . هناك تحت شجرة من
الكتنهاء غضة الاغصان جلس امرأة متقطعة العمر على مقعد من مقاعد الحديقة
والى جانبها فتاة في مقابل الشباب . ولو رايتها الى هناك في ذلك اليوم لرأيت ما يستوقف
الاظاهر من جمال وادب وذكاء وكل

الفصل الثاني

كان لباس المرأةين على الزي التركي الاخير لا يظهر منه الا وداده بني ادوات
كالبرنس له اكمام . ايکسو الجسم كله كالجلبة الواسعة . وعل الرأس خار شفاف يكتنوه
اكله البعض الوجه . وكان شعر المرأة الكثة مغفوراً على الزي القديم . اما الفتاة فقد
شفقته على الغط الافراغي وغماته بالنقاب الشفاف ولا اظننك تحتاج الى امعان كثير في
وجهها ، حتى يتبين لك ان الفتاة ابنة الكهلة لكتنة ما يذهبها من الشابة
وكان في يد الفتاة جريمة فرساوية تطالع فيها وهي تعاذر ان يراها احد وقد طوتها
طباق كثيرة حتى يصغر حجمها ولا يتتبه لها الناس فتقرا ما يظهر منها ثم تديرها
لقراءة ما يبقى ووالدها تنتظر ما تترجمه ابنته من المقالة التي لفراها . فلما طال انتظارها
قالت بسانها التركي « ما بالك لا تقرئين ياشيرين ؟ »

فرفعت الفتاة رأسها من الصحفة ونظرت الى ما حوطها كأنها تحاذر ان يسمعها
احد وقالت بصوت منخفض « ماذا اقرأ يا امام ؟ اني ارى رامزاً قد شدد اللهجة
كثيراً هذه المررة »

قالت « انت تقرئين مقالة رامزاً ؟ كيف عرفت اتها له ؟ هل وضع اسمه تحتها ؟
الايلاف الرقياء ؟ »

قالت بمحنر وهدوء « انه لا يوقع المقالات باسمه وانا يرمز عنه بحرف A وكل

مقالة في هذه الجريدة موقعة بهذا الحرف قاتلها له ولا يعلم ذلك احد سوى صاحب الجريدة . ولو اطلع رجال الماين على خروى هذه المقالة لاخذهم القبض « قاتل « وما هو خواه؟ »

فاقتربت منها وقالت هـا « اه يشتد التكـير عـلـى عبد الحـمـيد ورـجـالـه ويهـدمـ بـزوـالـ مـلـكـهـمـ ويـخـنـعـ عـلـيـهـمـ وينـسـبـ إـلـيـهـمـ الـظـلـمـ وـالـتـهـبـ . سـاعـهـ اللهـ أـتـاهـ مـلـحـةـ شـدـيـدةـ وـلـكـنـهـمـ يـسـتـحقـقـونـ أـشـدـ مـنـ ذـلـكـ »

فقالت والدتها « ولكتنا خاف على عزيزنا رايمز من غدرهم »

وكانت شيرين ذات جمال جاذب مهيب وفي عينيها ماء لامع ينبع عن الذكاء، وسرعة المطرد وعن شدة عاطفة الحب . وكانت طوبية القامة مع اعتدال وتناسب والصحة بادية في عيالها وقوه الارادة ظاهرة حول فها . لا ينظر اليها ناظر الا اهابها . وقد زادها العلم رونقاً وطلاؤة لانها تتفوقت احسن تتفيف وهي تحسن التزكية والفرنساوية والرومية لغة تلك البلاد تكلماً وكتاباً والفضل في ذلك الى والدتها فقد كانت من فضليات النساء واقواهن عقلاً وقدرت ايتها على الحسنية وصدق اللهجة . فثبتت شيرين كبيرة البنفس قوية المعزية تكره الظلم والظالمين . وقد احببت راماً كاتب تلك المقالة واحبها منه الحب وهو ابن خالتها وقد ماتت امه وهو صغير فعن ايده بترتيلته تربية خصوصية وغرس في قلبه حب الحرية وكره الظالمين لفرض منذر كره

فشتات شيرن ورامز مما و قد تجاهلا و امتهجت روحهما و تعاها على الاقتران وكان هو من ارباب الاقلام يكتب الفرنساوية كايكتب افته الترکية . و اشتهر بين معارفه بحب الحرية فلم يجلس ليلياً للارتزاق من خدمة الحكومة كما جرت عادة امثالهن من الشبان المتخرجين من مدارس الحكومة و ديناسى له بعض المتنفذين في خدمة قلاليثت فيها الياد حق يخرج منها . فجعل همه الارتزاق من قلمه بكتابه الصحف الترکية في الاسنانة والفرنساوية في باريس بتوقع مستعار و اكثر ما يكتبها في تلك الصحف انتقاد على الحكومة والكتابية لذريته وكانت تلذ لرامز على الحصوس لانه كان يجعلها وسيلة للاجتاع بشيرين . فانا كتب مقالة واعيتها قرأها طاوسع ملاحظاتها عليها وكتيراً ما كانت ترشده الى الصواب في بعض المواضيع لانه كان شديد الوطأة سريح الاندفاع في قوله ذلك الى التطرف وكانت هي اعدل منه مزاجاً واربط جائعاً فتنقصه وتباحه فيزيد له الرجوع الى رأيه - اما المقالة التي كانت تقرأها في ذلك اليوم فلم يكن اطلاعها عليها قبل ار-ط خيارات شديدة الالتباطة

الفصل الثالث

رامز

فَلَمَا قَالَتْ هَالِمَهَا « وَلِكُنْتَا تَخَافُ عَلَى عَزِيزِنَا رَامَزَ مِنْ غَدِيرِهِ » ظَاهِرَتِ الْبَغْتَةُ عَلَيْهَا كَمَّا اسْتَبَتْ لَشَيْءٍ فَأَتَهَا وَتَصَاعِدُ الدُّمُّ إِلَى عَيْنَاهَا وَنَظَرَتْ إِلَى أَمْهَا وَقَالَتْ « صَدِيقٌ بِإِمَادَهِ انْ رَامَزَ يَعْرُضُ نَفْسَهُ لِلَاخْطَرِ وَلَوْ اطْلَعْتِ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ قَبْلِ ارْسَالِهَا لِعَدْلَتِ طَبَّاجَتِهِ... سَأُعَاتِبُهُ عَلَى ذَلِكِ مَقْ جَاهِ... يَا رَبِّي مَا بِالْهَاءِ تَأْخِرُ وَالشَّمْسُ كَادَتْ تَغِيبُ »؛ قَالَتْ ذَلِكَ وَالنَّفْتُ خَوِي بَابَ الْحَدِيْقَهُ فَرَأَتِ الدَّاخِلِينَ يَتَرَاحَمُونَ وَرَامَزَ لِيْسَ مِنْهُمْ... ثُمَّ وَقَعَ بِصَرِّهَا عَلَى شَابٍ بَعِيِ الطَّلَعَهُ مُنْتَصِبَ الْقَامَهُ رَشِيقُ الْمَرْأَهُ تَجْلِي الْخَاسَهُ فِي وَجْهِهِ وَرَأَتِ امْهَا تَنْظَرُ إِلَيْهِ وَتَبَسَّمَ فَقَالَتْ شِيرِنْ « مَنْ هُوَ هَذَا يَا إِمَادَهِ أَرَأَكَ تَضَعِيفِي لَهُ »؛ قَالَتْ « أَلَمْ تَعْرِفَهُ يَا شِيرِنْ؟ هَذَا نِيَازِيِّي بَلْ صَدِيقُ رَامَزَ وَرَفِيقُهُ فِي الْمَدْرَسَهُ » قَالَتْ « عَهْدَتْهُ ضَابِطًا »

قَالَتْ « نَعَمْ وَلَكِنْ يَظْهَرُ أَنَّهُ جَاءَ مُتَكَرِّرًا »

وَلَمْ تَكُنْ شِيرِنْ تَبِعَ الدَّنَّاَهُرَ إِلَى نِيَازِيِّيْهِ حَتَّى اخْتَلَجَ قَابِهَا لَاهَا رَأَتْ رَامَزَ بِجَانِهِ وَقَدْ قَبَضَ عَلَى ذَرَاعَهُ وَجَعَلَ يَقْوُدُهُ خَوِي تَلْكَ الشَّجَرَهُ وَنِيَازِيِّي يَلْتَمِسُ التَّخَاصُمَ وَالرَّجُوعَ... وَلَا افْزَدَ بِأَمْهَا مِنْ جَلْسِ شِيرِنْ وَأَمْهَا سَمِعَتْ نِيَازِيَّيْهِ يَقُولُ « دُعَنِي يَا رَامَزَ فَقَدْ دَاهَنَنِي الْوَقْتُ »

وَرَامَزَ بِجَرَاهُ مِنْ ذَرَاعَهُ وَهُوَ يَضْحِكُ وَيَقُولُ « دِقِيقَهُ وَاحِدَهُ فَقْطُهُ »

وَوَقَعَ نَظَرُ نِيَازِيِّيْهِ عَلَى وَالدَّهَ شِيرِنْ قَاسِرَ إِلَيْهَا وَجِيَاهَا بِاحْتِزَامِهِ وَجِيَاهَا شِيرِنْ تَهْيَهُ صَدِيقُ قَدِيمٍ لَاهَا عَرَفَهُ مِنْ قَبْلِهِ وَقَدْ خَطَبَ فَنَاهَهُ مِنْ بَنَاتِ مَنَاسِيَرِ تَعْرِفُهَا جَيدًاً... وَتَقْسِيمُ رَامَزَ وَالْقِنْجَهُ وَابْتِدَارُ شِيرِنْ بِالاعْتَدَارِ وَقَالَ « قَدْ تَأْخَرْتُ عَلَيْكَاهَا وَلَكِنْ الْحَقُّ عَلَى صَدِيقِ نِيَازِيِّيْهِ » وَضَحَكَ

فَقَالَ نِيَازِيِّيْهِ « اسْمَحْ لِي يَا رَامَزَ أَنْ أَوْدُعَكَمُ الْآنَ لَأَنِّي جَئْتُ خَلْلَهُ وَلَا بِدِّهْنِتِ جَوَاعِ الْمَلِيَّهُ إِلَى بَلَدي وَأَنِّي أَنْأَسْتُ لِضِيَاعِ هَذِهِ الْفَرَصَهُ فَلَمَّا هَذِهِ الْجَلْسَهُ إِلَيْهِ كَثِيرًا لَكِنِي لَا أَحْبَبُ أَنْ أَرْكَلَ لِقَوْمٍ بِأَبَا لَلَّاهِ تَفَادَ حَقِّي يَا إِنِّي اللَّهُ بِالْفَرَجِ » وَابْتَسَمَ

فَقَالَتْ تَوْحِيدَهُ وَالدَّهُ شِيرِنْ « تَسَافِرُ الْمَلِيَّهُ؟ إِلَى أَيْنَ؟ »

قال « الى مناسير يا سيدى ومنها الى رستة .. استودعكم الله الى اللقاء، كم كنت احب ان ابقى معكم ولكن .. » قال ذلك وجام وتحوال راجعاً ورامز يتباهى ببصره حتى قرب من متعطفه فالتفت اليهم وجام وانصرف وقدم رامز نحو شيرين وهو يبتسم ابتسام الاعتزاز وقال « اطئني شغلت بالك على .. ولكنني شغلت بصديقتي نيازي وات تعليمي صداقتي القديعة له » وخفض صوته وقال وهو يحذر ان يسمعه احد « وقد جاء اليوم لمقابلة بعض اعضاء الجماعة فاجتمعوا بصديقنا الشهير اور بك » قال ذلك وهو يقعد على كرسي فقطعت شيرين كلامه وهي تفمد وقالت « هل ادخلتم نيازي في الجماعة ايضاً ؟ » قال « ادخله اوروبك في غير سلائلك وقد احسن بادخاله لاته من خيرة الضباط اهل المرأة والتجدة من يرجى نيل الدستور على يدهم » ولما لفظ كلمة الدستور تهدى وانقضت نفسه واطرق قادر كش شيرين ما جال يخاطرو فقالت « لا تنتبه ان والدك سيانى ولو طال غيابه »

فيهز رأسه وقال « يا حبذا ذلك .. كيف ارجو وجوهه بعد دخوله ذلك القصر الجنهى من عادة سنوات ولم نعد نسمع عنه خيراً ؟ .. من من الاحرار يدخل يلدر للملعونه ويرجع منها حياً .. اني لا احبه الا اغرق في البوسفور كما اغرق مئات قبله ولكنني سأنتقم له » قال ذلك وحرق اسنانه وكاد الدمع يتأثر من عينيه فاحببت شيرين ان تشهده عن ذلك فقالت « ساحنك الله يارامز على هذه المقالة اتها كاثار المشرفة »

قال « اتها اقل ما يستحقه او تلك القوم الانذال قد آن الوقت يا شيرين ولا تابعين ان ترى الدماء تجري انهاراً »

فاجفلت شيرين عند ساع قوه وتصاعد الدم الى وجنتها وقالت « ارجو ان لا تجري الدماء بل اتمنى ان يظهر الحق ويزهق الباطل »

قال « وانا اتمنى ذلك ايضاً ولكنهم لا يريدون الاذعان وهذا ناطم بك (وخفض صوته) قائد جند هذه المدينة صناعة ذلك الطاغية واحد ياوراته قد تلقى الاوامر بالتشديد في البحث عن اعضاء جمعية الاتحاد والترقي والتغيير عليهم والتكميل بهم بلا شفقة لان ظهور هذه الجماعة في سلائلك ادهشمهم وهم يعنون عن زعمائهم ليغنووا بهم »

فيغت وتوردت وجنتها والتفت الى ما حوطها كأنها تخادر ان يكون تلك الشجرة آذان تسمعهم وتشهي بهم وقالت « صحيح ؟ من قال لك ذلك ؟ »

قال « جاءنا المخبر من جاسوس لنا في يلدز وقد علمتنا منه ان عبد الحميد وقع
الرعب في قلبه لما علم ان الضباط يتظاهرون في هذه الجمعية المقدسة وايقن ان الجيش
لا يليث ان يتقلب عليه فعمد الى التكيل بهم فاستقسم ناظم بك اليه ورفع رتبته وزاد
راتبه وارفقه بالاوامر الشديدة في البحث عن رئيس الجمعية واعصائهما العاملين ووعده اذا
هو استطاع كشفها هبات جزءة »

فقالت توحيدة والدة شيرين « اسكت يا سيني .. ان الشعير آذاناً وذك الله كيد
الكافرین »

فالشّيرين «فَهُوَ أَيْكَ اذْلَوَاهُ لِمَا تَعْدُ الْجَمِيعَ إِلَى هَذِهِ الْخَطَّةِ»

قال «بل قه در ذلك الاواي في الطائف المقتول خلماً وعدواها انها وحيته قبل موته اودعها اذن والدي فعملاها الى الاسرار ولكن آه .. اين انت يا ابي وابن باقي الوجهة لعلم تتفقنا اليهم ؟»

قالت توحيدة «يكفي يا بنى ان الحديث قد طال فاحتفظ بسرك واني انيك الى شيء طالاً انهك اليه .. احضر ان تذكر شيئاً من هذا القبيل امام طهراز والدشرين فانه ضعيف الارادة يحيط القلب لا يؤمن معه ان يستنوه بعض الجوابين ويسرق منه سرتك .. ان طهراز قوى البدن لكنه ضعيف الارادة .. » قالت ذلك وتنهدت

— 1 —

الفصل الرابع

طہارہ و صائر

وكانت الشمس قد غربت واخذت خدم الحديقة في ادارة الفنادق والناس يتزامون
دخولاً وخروجاً . ولاحت من شيرين الفتاة فرأت والدها قادماً فصاحت « هذا
والدك اني »

وهي لم تظهر هذه البقعة من فرح بقدومه ولكنها ارادت ان تبه رامزاً الى وجوده فالثالث رامز فرآي طهراز وعنه شاب يعرفه من ايام المدرسة حسن البزة قد ارخي عليه على الطرز التركي وعلى عينيه نظارة مذهبية وقد ارتدى ثوباً اسود تعلوه الشالبيولينا التي يلبسها الاتراك في المواقف الرسمية . رأء آتيا مع طهراز وهو يجادلها ويلاطفها فلما اقتربا منه

تقىد رامز مللاقة صديقه ورحب به وقدمه الى شيرين ووالدتها فائلاً « هذا صديقي صائب بك »

فلا رأته شيرين نفرت منه وبان الاكتياض في عينيها لكنها غبخت تأدباً واحت رأسها الحتراماً فتقدماً والدها طهراز وكان كبير الجسم عظيم العضل كبير الرأس واسع القم غليظ الثنيين معروفاً بين أهلها وممارسه بقوه الساعدين . بلس ثوباً واسعاً اشهه « يا بلس اهل الاناطول » يرفع الرجل يده الواحدة ويرميها الى الارض كانه رغيف . وكان كثير الاعجاب بقوته وهي المية الوحيدة التي وعيته ايامها الطبيعية لانه كان ضعيفاً في ما خلا ذلك . وكان بطيناً ثهماً لا تكاد تراه الا وفي فيه شيء يغضنه من حلوى او تقولات او طعام . وكان ساعيئاً يأكل كل كمية تداولها من احد الباعة في الطريق . فلما دلّا من امر أنه وابنته الى التجية ببرود ولم يبل عليهم الا ليقى صديقه الفاضل الوجيه صائب بك فرجاً به . فتفقق صائب بك خادم الحقيقة ان يائمه بعض المشروب فاعتذر رامز انه لا يشرب شيئاً وكذلك فعلت شيرين وامها فاني الا ان يفتح قربان الييرا والكاروزه وبعزم عليهم ان يشربوا نكارة اكثراها من نصيب طهراز

وفي اثناء الشرب اجهد صائب ان يختلف اثناء شيرين الى حد منه بما اخذ يقصه من احاديث فنوده في المابين وما اثناء من الجرأة على كبار المقربين مثل عزت بلاشا وتحسين باشا وغيرهم وانهم يخشون بأسه ويهاجرون جابه . وانه طالما اعتقد رجال الحكومة على مسمع منهم وخوفهم العاقبة وغير ذلك . وشيرين لم تزدد الا تفورة واظهرت انها احست بالبرد بفجلت والدتها تساعدها في اثبات ذلك التراس للنهوض . فاستاء طهراز وقال « ألم هنا من عدة ساعات ولم تشعروا بالبرد الا الان ؟ » قال ذلك بخشنونة تعودوا ساخن مثلها منه فاغضوا

اما صائب فهو حديثه غور امز وقال له « اني لا انسى الايام التي قضيتها معكم في المدرسة ... وعياماً لها ... ان ايام الصبا ليس الدهمنها ... هل تذكر من كان معنا ؟ » فلم ير امز بأيام من مسايرته فقال « كان معنا كثيرون اذكر منهم نيازي و ... » قطع صائب كلامه قائلاً « نيازي ؟ اخذه الان خابطاً في الجندية » قال « نعم »

قال « ولماذا لم تستنظم انت فيها ؟ »

قال « لاني لم اوفق الى ذلك وليس في استعداد لما على ما اظن »

قال « اذا شئت فاني اتوسط لك في خدمة اذا لم تكون في الجندية ففي غيرها انت تحب

العلم والادب وله معرفة جيدة باللغات لاني اذكر شدتك على اقرانك فاذا شئت وجدت لك منصبًا في المدارس او في الداخلية او غيرها ... لا يعقل عليك ان تطلب مني كل ما تريده وهذا هين عليّ . طبعاً نحن اخوان لا تكليف يتنا وفدي ونجدت سيدتي طهراز بك بوثبة سنانية بعد ايام قليلة »

فلا سمعت شيرين ذلك شررت كان احسانها تسمى ولم تزال عن الوقوف وهي ترتجد وتظفر انها ترتجف من شدة البرد والحقيقة انها ترتعد غيظاً من ذلك الثقيل فونفت ووقفت والفتها معها ووقف رامز فلم يجد صائب بدأ من الاذعان وضرب على المائدة بمساقبها من ذهب تلمع في النور فاق الخادم (جارسون) فدفع اليه ليرة عثمانية ولم ينتظر ان يرد اليه الباقي فانهى الجارسون الى الارض . ونهض صائب ونهض طهراز ومنعوا يلحسون المتروج من الحديقة وقد دنا العشاء واخذ الناس يسلون

—————

الفصل الخامس

الواشية

فلا صاروا خارج الحديقة ودعهم صائب وانصرف وقبل انصرافه احال النظر في شيرين وهي تتجاهل وودعه طهراز وداع الصديق الحليم . اما رامز فراق شيرين واياها وفي اثناء الطريق خاطبته بالفرنساوية وشكك له تقوها من صائب واومنه ان يتعد عن محبتها فقال « وما الذي يهمني منه؟ »

قالت « لا ادري ولكنني شعرت بعنور منه ورأيت الشر يبعث من وراء نظارته ولا يبعد ان يكون جاسوساً »

قال « فليكن ماشاء »

وبعد قليل وصلوا الى طريق عرج منه رامز الى منزله بدمشق ودع رفاته وقال شيرين بالفرنساوية انه ذاهب الى منزله وسيكتب مقالة في تلك الليلة . فقالت له « سر بحراسته الهه » وتواعدا ان ياتي في اللند ليقرأ لها ما كتبه وينحدر معهم

اما صائب فلقيته ما اخبر شيرين من بغضه اذ من القلب الى القلب دليل ثبات الغيرة في قلبه فركب مركبة سارت به الى الفندق الذي كان فازلاً فيه وهو يشرف على الرصيف الذي تقدم ذكره . فعلى معظم الطريق وهو مستتر في المواجه وقد اخذت شيرين

يجمع قلبه . وكان قد لج الى والدها بأشباحها فاظهر ارتياحه طمعاً بما وعده به من الرتب وصلت المركبة الى التندق وهو لا يدرى فلما وقفت اشباحه لنفسه وتحول ولحو يذكر في رامز وشيرين وكلا تصور عيقي شيرين وبسمها يختلط قلبه . وكان قد شاعدها مراراً وهي لا تدري واقتضى بمحالها وهو صابر هادي . حتى لقي ولدها وملكته ياسلوبيه ودهاته وصار له اهل بيتهما فذهب معه وهو يرجو ان يرى منها اعداماً فلما رأها تخافه وتلطف رامزاً حيث الغيرة في قلبه

ولم يصل غرفته حتى عزم على التكبيل برامز «اخذ في خلم ثابه وهو يحدث نفسه قائلاً «اراحا تستخف بي وما علمت اني قادر ان احررها من ذلك الشاب المفروز الذي يهد نفسه من الاحرار . يحب امرء عبولاً وفاته اني اعلم الناس به واقبرها بكلمة يغطها هذا اليراع ان الحلة بقاع البوسفور . اليك هو عضواً في الجماعة السرية النافقة على السلطان ماذا يكون شأنه لو رفعت ذلك الى الماين ؟ اني قاعد الساعة »

وكان قد فرغ من تبديل ثيابه فتناول قرطاً وقلماً واخذ يكتب تقريراً عن رامز واعماله ضد الحكومة وانه من اعداء الذات الشاهانية الخ . قضى ليه في كتابة ذلك التقرير وركب في الصباح باكرأ الى ناظم بك وهو يعرف علاقته بالماين فقال له « قد كشفت للذات الشاهانية عن شائب كل اسرار الجماعة عنده وهذا تقرير يكتبته بهذا الشأن فاطلب اليك باسم جلالة الباشاده ان تقبض عليه وتخبه وتبعد الى الماين خبره تغراضاً وهذه صورة التناحراف « عذر صائب بك الحقيقة على احد كبار الجماعة الجهنمية وعنه اسرارها وقد قبضنا عليه وننتظر الامر بشأنه »

فيبعث ناظم بك الى سامي بك ورئيس البوليس ان يقبض على رامز واوراقه حالاً وارسله الى منزله وبعث صائب يتقريره مسوكرأ الى الماين

وكان رامز قد قضى ليه في كتابة المقالة المشار إليها وتأخر في الفرنس فاشعر الا وبالبوليس عحيط يتزله فايقطوه ودخلوا الغرفة وقبضوا عليه وعلى خادمه وجمعوا ما عنده من الاوراق جملوها في ظرف كبير وختموها وقادوه الى السراي وحجزوه فيها فنان كد رامز اتها فحمة صائب فلم يربدأ من الصبر

اما صائب فكان على موعد اللقاء بطلهاز ذلك الصباح في احدى القهوات على الرصيف فذهب في الوقت المدين كانه لم يفعل شيئاً فوجد طهاز باستظاره في قرية قرب قصر اللاتيني في آخر الرصيف فرحب به طهاز وآله فقال له صائب « كيف فارقت رامزاً ؟ »

فهز رأسه وقال « فارقام بعد ذهابك بقليل الى منزله »
 فاصلح صائب نظارته على عينيه وحک لحيته ثم اخذ يلاعب عصام بيده وقال
 « انه شاب طالب لكنه كثیر الغرور بنفسه فهى ان لا يجرّغ غروره ضرراً عليه او
 عليكم لان الجاھل عدو نفسه . وقد كنت ولا ازال راتباً في مساعدته اكراماً ليتكم
 لاه ينسب اليكم على ما اظنن »

قال « نعم هو ابن اخت توحيدة ولدك ، كما قالت طائش »

قال « واذا كان ملشه يقتصر على ضرر نفسه فذلك هين »

قال طهراز « وما الذي يهمنا منه »

قال « اراه يجب التقرب منكم فوق القرابة التي ذكرتها »

فضحك طهراز وكان خادم الفروة قد اناهها بالقوه فتناول الفنجان وشرق منه
 شرقه وقال « يظهر انه يطمع بشيرين ولكنني لا ازوجها لرجل لا عمل له »
 قد صائب بيده الى جيده واستخرج علبة السكارى مذكرة واحدة منها سكاره منحبة
 من احد طرفها ودفعها الى طهراز وهو يقول « ان شيرين تستحق رجالاً يستحقها
 قاتها والحق يقال كاملة الاوصاف »

تناول طهراز السكاره يكفى كالدراء وقال وهو يشعل السكاره من عود اشعله له
 صائب بك وقدمه له « وانت كاذب الاوصاف يا صائب بك » وضحك
 فتملص صائب بك من معزى هنا التعریض وقال « اني اجل الفتاة . . . واراها
 تستحق احسن مني »

قال طهراز « انت لا تطبع باحسن منك يا بدبي »

فاجابه صائب بك « كل شيء نصيب . . . » واظهر انه يريد تغيير الحديث تواعداً
 فقال « قد ارسلت تاجرافقاً الى صديقي عزت بانه اطلب منه رتبة تلبيق بشأنك و اذا
 رأيت رامزاً يرضي خدمتي فاني اوصي له على منصب »

فعجب طهراز باربعية صائب وقال « ساخطيه بذلك لعنه يرضي وهو عندها للقداء
 تعال تستندى مما »

فاجاب انه سيفعل

الفصل السادس

الاستمار شاق

اما شيرين فباتت تلك الليلة و نفسها تخدمها بشر متوجهة - وكذلك شأن المرأة فاتها
كثيراً ما يدها شعورها على امور لا يدركها الرجل الا باموال الفكر والقياس العقلي
اما هي فاتها تشعر و تحكم بناء على شعورها بلا برهان ويصدق حكمها في اكبر الاحيان
قضت معظم الليل في المواجهات وما صدق بطلع النهار فاختفت متظر الوقت
المعين بطيئي رامز وقد سرها خروج ابيها باكرأ ليخلو لها المنزل برامز . ولم يكن وجود
والدتها يذكر عليها صفو ذلك الاجتماع لامها كانت متودع اسرارها وهي تحب رامز
جاً كثيراً وتهدأ بمنزلة شيرن لاته ابن اختها وقد ربي تحت نظرها

دققت الساعة العاشرة على الحساب الاقرخي ولم يأت رامز فزالت دقات قلب
شيرن وصارت تهتم من النافذة الى الشارع ومن الباب الى الدليل ثم تعود فتقعد
على المقعد فاذما سمعت شيئاً نهضت تظن رامزاًقادماً مع أنها تعرف خطوه دون
خطى سائر الناس ولكن التلقى اذهب وشدها . فلما دقت الساعة الخامسة عشرة ذهبت
الى والدتها وكانت تستغل بشؤون المطبخ تساعد خادمتها في الطبخ ليكون الطعام
حاضرآ الظاهر والأغصب زوجها واسمعها كلاماً فظاً . فلما رأت شيرن داخلة بادرتها
فائلة « هل أتي رامز »

فكان لهذا السؤال وقع شديد افجرت له عواطفها فقالت « لا ... لم يأت ...
ونغضت بريرتها

فاستغربت توحيدة اضطرابها وقالت « لم يفت الوقت على عبيه ان الظاهر لا يزال
بعيداً لا تقلقي »

قالت « اعلم ذلك ولكن ... » وسمعت حركة في الدار فاصفت قذا هي خطى
ابيها فأتميات ان يكون رامز معه نفرجت لللاقة فوجدت اباها وحده دخل يتأهيل
اعباً بقوته وقد زاده مواعيد صاحب بالرتب اعباً بنفسه . فلما اقبل على شيرن حيث
فرد التجية وابتدرها قالاً « الم يحضر الغداء ؟ ابن والدتك ؟

قالت « هي في المطبخ تجعل حضور الغداء » وهلت ان تأسه عن رامز ف kep
عليها الحبل ، فذهبت الى والدتها وحرضتها على سؤاله
نفرجت توحيدة من المطبخ وهي تشتفى يديها بذرها وتصلح ذيل فسلطها

وتأمر الخادم ان يضع المائدة ويعضر كل شيء لان الطعام قد حضر لعلها ان ذلك يتسرع صدر زوجها . فقابلها صاحكاً وقالت « لم يأت رامز معك للخدمة ؟ » قال « لم ا Ore اليوم »

قالت « دعوه امس للخدمة معنا وها قد دنت الساعة الثانية عشرة ولم يأت . . . »

قال « لعله استغرق في النوم وبعد قليل يأتي لانخافي »

قال ذلك وهو يخل سيور فعاله وقد اسرع اليه الخادم بالقلتين ثم اخذ يزعز رداءه والخادم يساعدته فلما سمعت شيرين قوله « لا تخافي » ادركت انه يقول ذلك تهكم فالتفتت الى والدتها فرأتها فهمت مرادها فقالت توحيدة « لست خائفة وما الاباعث على الخوف ؟ »

قال « اما الاباعث على الخوف فإنه موجود لان رامز ايتعرض لامور كثيرة لانه لا يتنفسه وقد تضرره . . . واذا خاطبه احد في سيدل مصلحته استخف به »

ففهمت شيرين انه يشير الى حديث الامس وان اباها ناقم على رامز استخفافه بصائب فتحولت من بين يدي ابiera الى غرفة قريبة وجلست تسمع صوته ولا راء فسمعت والدتها تقول له « هذى شأنه وهو يعرف حابه »

فقال بصوت عال « ولكن ترددت الى بيتك يوم الشهبة علينا »

فعلمت توحيدة ان الكلام مع زوجها في هذا شأن أصبح عنان بعد ان رفع صوته وقد تعودت طيابعه وعرفت كيف تخيب غضبه لانها كانت عاقلة حكيمه — والمرأة اذا عاشرت زوجها زمناً طويلاً يجدون بها ان تعرف ما يرضيه او يغضبه . فكانت توحيدة واظهرت انها مشغولة في المطبخ فلتحتها شيرين والدمع ملء عينيها وصاحت فيهما « اماماً . . . يا اماماً . . . ان قابي على مثل الجزر »

فشاررت باصبعها على فهان ان « اسكنني » والتفتت الى الخادم وامرته ان يذهب الى مسكن رامز بسؤال عنه ولا يطيل غيابه فذهب الخادم مسرعاً . ومامعم ان عاد وقص عابده الخبر وان يلطم بك ارسل جنداً للقبض عليه واخذه مع اوراقه الى السראי

فلم تهلك شيرين ان لطمت خدها وقالت « ويلاه . . . ان قابي داني على شر اتوقعه له . . . منه انانا ذلك الجاسوس . . . قد صدق ظافي »

اما والدتها فاختفت تخفف عنها ثلاثة يسمعها ابوها وكان طهراز قرب غرفة المائدة رافقاً عند البو فيه يتناول قدح من الكتباك قبل الطعام فلما سمع التهامن صاح بصوت

كارعد « ما يا الحكيم . . . ماذا جرى . . . هل اتي رامز »

فأسرعت توحيدة إليه وقالت «إن تأطّم بك قبض عليه وسجنه مع اوراقه» قال ذلك وهي تفرك يديها حسرة واسفًا فضحك طهراز وقال «هذا الذي كنت أخافه عليه تهوره .. ولكن لا تخافي إن صدقي سأباً يقدر أن يخرجه من السجن لأن تأطّم بك يراعي جانبك لغوفون في الماين وسيأتي مات بك بعد قليل فقد دعوه للقداء معنا»

الفصل السابع

三

وكانت شيرين متزوّدة في غرفتها وقد استقرت في البكاء عليها بالخطير الذي يهدد من يقع هذه الواقعة وهي تعلم اعمال رامز خد عبد الحميد فاقتنى من تلك اللحظة ان رامزاً مقتول لامحالة فأخذت تندبه . فلما سمعت اباها يطمئن امها بصداقة صائب مع ناظم تفت الصعداء لحظة ثم تذكرة ان صائب اصل هذه المصائب فعادت الى البكاء ولكن والدتها اظهرت التصديق فدخلت عليها وجعلت تخفف عنها قائلة « يقول ابوك ان حدائقه صائب ينفعه بكل سهولة وبعد قليل يأتي وناسله » قالت ذلك واسكت شيرين يدها كأنها تشغلا عن البكاء وهي تعتقد مثل اعتقاد ابنتها ولكنها ارادت تخفيف حزنها وهي خائفة عليها لعلها ان بين اوراق رامز اوراقاً لها لا تقل خطراً لانها كثيراً ما كانت تساعدته او تناكيته بمعنى الحرية والتفاحة على المابين واهله

فاجذب شيرين بدها من يدها وغطت بها عينيها وهي تقول «تسألون صائب اتفاذه
وهو الذي رماه .. دعيني .. لا اغير اعتقادي فان قلبي دلي »
وها في ذلك سهلا وقム حوافر افراص وفقت عند باب منزلهم وهرع الخادم لاستقبال
النادم ثم سمعته يقول « اني صائب بك »

فقالت توحيدة «أني الرجل . تحليدي وقوى للنداه لعله قادر على إنقاذه . وعهدت لك جلودة واسعة الصدر خالي اراك تنغيرت . . لا يبعد ان يكون لهذا نقوذ عدد اوائلك لأنهم من طينة واحدة . قوسي تحليدي »

فقرت وهي تهز رأسها هز الأنكار وقالت «قد فارقني جلدي دعيبني أم انت طلبين
مني ان ارى هذا الشيطان وآكل معه ؟ ابدل رامزاً به ؟ » وتهضت واخذت تحمل از رارها
وهي تقول «اني مر بفحة لا استطيع الجلوس . »
فاستحسن والستها ان تكث في الفراغ لثلاثا يشاهدها ايها على هذه الحالة فيغضب

وخرجت توحيدة للقاء الفيف والترحيب به مراعاة لخلق الفيافة وخفقًا من غضب زوجها وأملاً بالتفعم على يده فوجده قد دخل المعلمية وهو يضع عصاء التعبية على الشمعة فلما رأها المسرع إليها متذمِّلاً وحياتها بلفاف وانحنى وقد قبض على قفازه يده الأخرى ثم تقدم إلى مائمه ازْفِيَاه وتلطف بمسائرته . فدعهما توحيدة إلى الصالون وهو مفروش على الطرز الانفرنجي فدخلوا وجعلت توحيدة تسيره كما يأنجني لها

«فتح طبَّهَزَ الحديث عن رامز قائلًا « ان خوفنا على رامز كان في محله وقد بالغنى انهم قبضوا عليه في صباح اليوم واخذوه الى السجن لم تعلم بذلك » فاضير صاحب البختة وقال « وهل الذي قبضوا عليه اليوم هو رامز ؟ .. كثت عند نائممنذ ساعة وخبرني انه قبض على رجل من اعضاء الجماعة السرية ووجدوا معه اوراقاً مذكرة أرسلوها الى يدَهُ حالاً وارسلوا تلزارانا بتخربها ولم يخطر لي ان الرجل هو صديقي رامز .. لا حول ولا قوة الا بالله »

وكان غرفة شيرين بجانب قاعة الاستقبال (الصالو) فكانت تسمع كل كلمة من الحديث — فسمعت اباما يقول « ولكن رامزاً ابنتها واتا اند نفسي بنزلة ايمه وهو ايضاً صديبك لا تقدر على علیمه من هذه الورطة ؟ » قال وهو يضغط عليه « لو اخبرتوني في الـ...ـباح لكن ذلك هيتنا على .. اما الان وقد بللت اخياره الى المأبين وارسلت اوراقه الى الاستانة فكيف السبيل الى انقاذه » قال طبَّهَزَ « انت تقدر يا ياك »

اطرق صاحب حيناً يفكِّر ثم قال « اما اخراجه من سجن سلاطيك فقد اصبح مستحلاً لكنني ابذل جهدتي تحذيف جرمته في الاستانة اذا امكن ولكن ساحمه الله لم يدع بياً لامالة .. اخبرني ناظم بك ان بين اوراقه ما يدخل كثيرين في الخيانة معه وفهم امرأة »

فلا سمعت توحيدة قوله « صعد الدم الى وجهها وظهرت البلة عليها لعلها ان هذه المرأة افلا هي ابنتها واتها واتمة في الفتى لا محالة .. ولكنها تجلدت واصفت لعلها تسمع شيئاً جديداً ووددت لو ان ابنتها مستقرة في النوم حتى لا تسمع ذلك .. ونفست تنفسها انها تربد عيالطة الخادم لاعداد المائدة ودخلت الى غرفة ابنتها فرأتها مستلقة وقد اصاحت بسماعها فلما اقبلت عليها قالت شيرين « سمعت كل شيء »

قالت « هل سمعت آخر نفقة »

قالت « الا تعيين شهادة امرأة مع رامز ؟ قد سمعتها .. وهي تعزِّي الوحيدة لاني عند

ذلك احول اليه فاما نموت معاً او نعيش معاً .. هل اذا خير منه؟ « ذلك فاستولى الفشل على توجيده لانها كانت تحسب وقوع شيرين تحت التهمة مع الامل بالتجاة على يد صاحب بيمبلن تلين وترضى بمحاطبته له ولقد اتتها لها . وهي وان كانت تحسب رامزاً مثل ولقدوا لا يزال قليلا على ابتها في المرة الاولى . فقالت « ثم يشق عليهما وقوع عزيرنا رامز تحت الخطير ولكن هل لنقي بابدينا الى التهلكة واذا كان في امكاننا غلصك فكيف لا نفعل ولعدا بذلك نجحي رامزاً »

فقطعت شيرين كلامها قائلة « تربدين انقاذه على يد هذا الجاسوس وهل صدقت قوله انه لم يكن يعلم من هو الذي وشي به؟ فانا لا اريد بخفي على يده بل اريد ان يوكل التهمة على لاشارك رامزاً في حظمه خيراً كان او شرراً ». قالت ذلك واستنفت على سريرها وغطت وجهها بزندها قدر كثتها والفتها وتوجبت الى المطبية وامررت الخدم بالسكب واتت الى زوجها فوجدها يهاب من صاحب وهو يضحك فلما رأها سألاها عن العام هل هو حاضر فقالت « تقضوا الى المائدة »

فنهضوا فضلوا ايديهم وصائب يتبعون ان يرى شيرين قادمة الى المائدة ثنا جلسوا ظل كرسياها فارغاً فقال « اني لا ارى شيرين معكم هل عليها باس »

قالت والفتها « انها تكون من صداع اليم لم يفارقاها من هذا الصباح

قال طهباز « دعيها تأتي لا باس عليها »

قالت « المحنة عليها كثيراً وأنا آتية من عندها الساعة فلم تقدر ان ترفع رأسها واستولى عليها البكاء من شدة الالم »

قالت ذلك حذراً من ان ينهض ابوها فغيرها باكيه ويتهبهما بشيء آخر

قال له صائب « صلامتها لا ياس عليها . هل علت بمحبت رامز لا شك انها تزعزع كثيراً عليه . صالحه الله ما كان اغناه عن تلك الاعمال الصبيةانية »

وكان الطعام قد حضر وصب في الاطبقات واستفرق طهباز في الانقسام والمفع فوضع صدر دجاجة كاهو في فيه ولا سمع كلام صائب هـ ان يجاوب به وفه مملوء فاستهل به بضم اصادمه الثلاثة اشارة الاستهلال ربما يلعن بعض القلة ثم قال وهو يتقطع الحبر وبيهي لفترة اخرى « كثثيراً ما نصحته فلم يتصح انس شيران هذا الزمان لا يعجبهم العجب . لا يعجبهم سلطانا ابده الله مع انه من احسن سلاطين آل عثمان هل كان عبد العزيز احسن منه؟ انه لا ينبوت الصلاة مطلقاً وفي الاستانة الوف من الناس عائدون من بقایا مطلبته فلو اتفقت بذلك الان مات هو لاد جوعاً ثم هـ كيف يستطيعون مقاومة خليفة الرسول كان ينبغي

ان يكون لهم عبرة بالذين تقدموهم من امثالهم الشبان المفروزين كيف كانت عافية امرهم -
ماذا يدالهم من هذا العذاب غير العذاب الا يرضون ان يعيشوا كما عاش ابوهم واجدادهم .. « وقد اختصر طهراز خطبته البليغة ثلاثة يذيع عليه لستة وعشر الى الاكل
قال صائب « اذا لا تلو الاحرار على الشكى من اخلال فانه موجود لكنني اليوم
لامساعهم العنف في مسامعهم كعمل المكائد لقتل الخلقة او اعوانه والكتابة الشديدة
في الجرائد الاجنبية هذا لا يغدو ولا بد من استعمال التوడة »
وكانت شيرين تسمع قوله وتکاد تب من الدرب لتجاویه لكنها صبرت
نفرا ومسكت

الفصل الثامن

حديث الخطبة

ولما فرغوا من الطعام تناولوا القهوة ونهض صائب للانصراف فودع طهراز وزوجته
وکفها بالسلام على شيرين ودعا لها بالسلامة وركب عربته وانصرف
ودخل طهراز شاهدة ابنته فرأها نائمة قررها واذهب للنيلولة ولم تمض بضع دقائق حتى
ملا شخيره البيت . وكذلك فعلت توحيدة لكتلها تم ما تولاها من القلق على ابنتها فضلاً
عن خوفها على رامز
وفي الاصل نهض طهراز وبعد ان تناول القهوة نادى امرأته الى غرفته فاتت وهي
تقول في نفسها « ماذا اعني ان يكون الفرض من هذا الطلب » فلما دخلت عليه ناداها
لجلوس الى جانبها فجلست وقال لها « بعد قليل يأتي صائب بك .. ماذا تقول له ؟ »
فلم تفهم مراده فقالت « عن اي شيء ؟ »
« قال « عن شيرين »

ففهمت انه يريد خطبتها له ولكنها تجاهلت وقالت « من اي جهة .. »
« قال « المقهى ؟ - لا يخفى عليك انت رامزا المكين لن يدجو من هذه الورقة وهو
الذي رمى نفسه فيها وهذه شيرين اذا لم تفهم حقيقة مرتكزها تكون طائشة مثله » وقد تقدم
لها هذا التصريح اعني صائب بك وهو رجل وجيه صاحب ثروة وثروة واذا صاهرناه نذا
العز على يده وربما استطعنا بواسطته ان نتقذر رامزاً . لا يخطر يبالك اني اكره هذا الشاب

ان رامزاً مثل ابنتي كما تعلمين لكنه طائش تأخذني الحسنة ويتطاول على ما هو فوق طلاقه حق التي نفسي في ورطة لا نجاه له منها واخشى والكلام في سرك ان قمع الشهوة علينا غداً لذكرة ترددك الى مزاجنا فتفتح في الشراك . فانا كان صائب بك صهرنا كثنا في مأمن من ذلك كله »

فرأت في كلامه تعقلأً لم تتعهده من قبل فقالت « ارى الحق في جايتك ولكن هل تفعل ذلك بدون رأي شيرين ؟ »

قال « نسألها .. ولكنها لا تختلف رأي والديها ملبياً .. »

قالت « لا تقدرين خطيبها لاحد الا بارادتها »

فهز راسه وقال « ان بيات هذا العصر مثل شياطلا يسلون الا ما يخترط لهم . وكنا في زماننا ناتي انكالنا على اباينا . وهذا هو سبب الشرور التي تراها هنا علينا من كل ناحية لم يعد يعجبنا العجب .. تزيد ازتدادها في كل شيء ونعمل على هوانا حتى صرنا نطلب ان نشارك سلطانا بالحكمة وادا ابي علينا ذلك فعننا عليه واردنا قوله .. ما لنا ولذلك فاذهي الان الى شيرين واقعها بوجه الحق وافهمها مرکز صائب واهيته »

ففهمت توجيهة وهي على ثقة من رفض ايتها لكنها اطاعت زوجها ودخلت على شيرين وكانت قد تولاهما الوسن لحظة فلما سمعت وقع اقدام والدتها استيقظت مذعورة وجلست على القران حالاً وهي تنظر الى ما حوالها وتدرك عينيها لتحقق اتها في عقلة فلamarat والدتها صاحت « اماما ! ابن رامزاً ابن رامزاً؛ ويلاه الذي في منام ... » وعادت الى فرك عينيها

فادركت والدتها اتها رأت رامزاً في المنام لفترط تغثيرها فيه وقدمت اليها وضممتها الى صدرها وقبلتها في عنقها تقليلاً طويلاً شاركتها الدمع بالانعدام عليه . فاختت شيرين بالدموع يتقطع على عنقها سخيناً فاستفت لاتها سبب هذات الحزن فباعدت عنها قليلاً وتضرست في وجهها وتوجيهة تحاول اخفاء دموعها بالابتسام فلم تقدر فقالت شيرين « قد سببت لك حزناً ونعيماً يا اماماً »

قالت « كلا يا حبيبتي ان تبك راحة ولكنني لا احب ان يستولي عليك اليأس وعهدتي فيك عائلة حازمة اسيري .. ولا تستسلم للحزن .. »

قالت شيرين « صدقت يا امام لا بد من الصبر » ومسحت عينيها وتهجدت تهدأ خفيها وهي تصلاح شعرها وتنظر الى مرآة معلقة بالحائط مقابل باب الغرفة المستطرقة الى الدار فرات خيال ابها في المرآة يمشي حافياً على رؤوس اصحابه سرعاً فاجهضت عند رؤسها وظهرت البقعة في وجهها وحلقت والدتها فيها ذلك فقالت « ما بالك يا شيرين ؟

ما الذي تذكرت فيه ؟ »

فأجابتها وهي تلتفت نحو الدار وقالت بصوت منخفض « لا افكر في شيء لكنني رأيت والدي مارأً من هنا . العله استيقظ ؟ »

قالت « نعم يا عزيزي وكتت معه الان نشرب القهوة في غرفته وانا قادمة من عندك »

فدخلها قلبها على شيء ، تكفيه والدتها لاتها دقيقة الشعور الى درجة التبؤ فلا يكاد جليسها يوم بالكلام حتى تفهم مراده لكنها كانت تصر نفسها عن النصرع بما يجول في خاطرها فقالت « لا ارى ما اتيت الي .. خيراً ان شاء الله »

فقدت توحيدة يدها الى شعرات مسترسلة على جهة شيرين وجعلت تبكي بها كأنها تضفرها وقالت « لم آت الا خير يا حبيبي » وغضبت بريتها وتلاً الدمع في عينيها فتداركت نفسها بالكلام فقالت « قد كلمني ابوك بشأن صائب بك .. ان الرجل سيعود اليها بعد قليل »

فاجفلت شيرين عند ذكر اسمه وحول وجهها نحو الحائط وقالت « مالي وله .. ان عاد او لم يعد .. اني لا اريد ان اراه »

قالت « ليس الامر ان تريه او يراك فقط »

فهمت مرادها لكنها استبعدت ان يقدم صائب على خطيبها بعد ما لاحظه من جفانها وتباعدتها فقالت « ما الذي يبيه اذا ؟ »

قالت « ان والدك خاطبني بشأنه وكيفني باقناعك انه شاب وجيه غني مقدم عند رجال الدولة وهو الان صاحب الفوز الاكبر .. فله لا يريد طلبه يا عيوني » قالت توحيدة ذلك وهي لا تنبه لكنها تعلم ان زوجها لا بد ان يتلخص لسبعين ما تقوله لابتها لسوه ظنه بها وتحققت مما قالته شيرين انه دخل الصالون ليسمع ما يدور بينهما وهي مع ذلك على ثقة ان ابنتها سترفض ذلك الطلب بثباتاً

الفصل التاسع

الرفض

اما شيرين فاستغربت كلام والدتها بهذه اللهجة مع علمها بما في ذمتها عن رامز فلحظت أنها تغوله كانها على مسمع من ايديها تنجذب به غضبه وفظاظاته فرأفت ان خبارها

بالللاطفة لنفس هذا السبب فقالت « انه نعم الشاب او فليكن كما يشاء ما الذي يعنيه من امرء .. انه لا يعنيه »

قالت « ان والدك الحاخ على ان اقمعك بأنه شاب يليق بك وانه اذا قبلت به قد يكون واسطة لاغاثة رامز بنفوده »

فاحبست شيرين ان تبقى على تجدها لكنها غابت عن صبرها فقالت « اغاثة رامز؟ هو ينتقد؟ و اذا انتقد ماذا يعنيني اغاثة اذا كنت عند هذا الجا-وس .. بل كيف ينتقد وهو الذي رمله في هذا الفن و .. » فبادرت توحيدة فاقفلت فم شيرين بكتها وهي تشير بوضع سبابتها الاخرى على فمها اشاره الكوت خوفاً من سامع او ملئصع

ففررت شيرين وازاحت كف والدتها عن فمها وقالت « وماذا اشك ... باي قلب تخاطبني بهذا الشأن؟ » وغلب عليها البكاء فلم تر والدتها خيراً من تركها لثلاً قول ما يقدر والدعا خوفاً من النفيحة لانه اذا غضب لا يقدر عواقب ما يقوله فتحت عن سرير ابنتها وهي تقول لها « اني فاركتك الان وربما تذكرين في الامر وسأعود اليك بعد قليل » وأشارت بيمينها اتها تعقل ذلك محاذفة من طهراز . وخرجت واغلقـت باب الفرقـة وراءـها واظهرـت اتها ذاهـبة الى غرـفة زوجـها التجـهـه يا جـريـ و هي تعلم انهـ في الصـالـوـت . فـاـمـشـتـ خطـوـتـينـ حقـيـ وـاـنـهـ يـتـيـ فيـ آـرـهـاـ وـهـ يـشـتـلـ . باـخـرـاجـ فـضـلـاتـ الطـعـامـ منـ بـيـنـ اـسـنـاهـ بـظـفـرـ خـصـرـهـ وـيـتـلـظـ . فـتـظـاهـرـتـ بـالـبـعـةـ وـاـمـاـتـ اـلـيـهـ اـنـ يـتـبعـهاـ فـدـخـلـ غـرـفـهـ وـقـالـتـ لهـ « لـاـ بـدـ مـنـ الصـبـرـ يـاسـيـدـيـ اـنـ شـيرـنـ لـاـ تـزالـ مـنـحـرـفـةـ الصـحـةـ فـلـتـرـكـهاـ الانـ .. »

قال « تتركها؟ وماذا؟ وبـعـدـ قـلـيلـ يـأـتـيـ الـبـيـكـ وـيـجـبـ انـ خـيـهـ سـلـاـ اوـ اـبـجاـباـ وـاـناـ وـعـدـتـ بـالـإـيجـابـ فـهـلـ اـكـنـبـ عـلـيـهـ اـمـ كـيفـ تـرـيدـنـ يـاـ هـامـ اـفـسـدـيـ » قال ذلك بتـركـهاـ وـجـعـلـ يـعـيـثـ بـاـخـصـ رـجـلـ الـيـسـرىـ يـاسـاـيـدـيـ يـدـهـ الـثـيقـ

فـاهـقـتـ تـوـحـيـدـةـ بـالـاـمـ لـعـلـهـ اـنـ زـوـجـهـ لـمـ يـعـطـ الـبـاتـ وـالـخـزـمـ الاـ فـيـ مـعـاـكـهـ . فـهـوـ ضـعـيفـ مـعـ كـلـ اـنـسانـ كـثـيرـ الـاصـفـاءـ وـالـاذـعـانـ لـاعـلـ الدـسـائـسـ يـدـارـ بـكـلـمـةـ وـيـقـادـ بـشـعـرةـ الاـ مـعـ اـمـرـأـهـ فـاـهـ عـيـدـ لـاـ يـرـجـعـ عـنـ قـوـلـهـ لـانـ بـعـدـ رـجـوعـهـ ضـعـفاـ — كـيفـ وـهـوـ رـجـلـ الـبـيـتـ لـاـ يـكـوـنـ كـلـامـهـ تـافـهـ؟ فـلـمـارـاتـ تـوـحـيـدـهـ تصـمـيـهـ قـالـتـ « لـاـ بـدـ مـنـ اـلـثـانـيـ يـاسـيـدـيـ .. لـاـنـ شـيرـنـ اـلـانـ مـشـفـوـلـةـ الـخـاطـرـ عـلـ رـامـزـ مـشـانـاـ فـارـكـيـ رـيـنـاـ الـخـاطـبـهاـ فـيـ فـرـصـةـ منـاسبـةـ »

قال « بـلـ هـيـ مـشـفـوـلـةـ الـخـاطـرـ عـلـيـهـ اـكـثـرـ مـنـ جـيـعـاـ لـاـنـهـ تـرـيدـ انـ تـكـونـ مـنـ الـاحـرارـ

ما شاء الله .. هل تذلين سكوت عنها في الماضي كان عن رضى وقبول بما كاتبناه ؟
ولكنني كنت اغترف بذلك احياناً لان رامزاً ابن خالها واتوقع ان تنتهي من نفسها فادا
هي لا تزداد الاتادية حتى قادت توقنا في ورطة لا لخلاص لها منها .. الا على يد صاحب
ذلك وقد تفضل علينا الرجل وحضرنا بارك الله فيه .. فلكيف تقابله بالكلنوب او الجفاف،
ها هي صرحت لك بكل شيء .. فهمت ؟ » قال ذلك وهو ينير يديه متحسماً ثم استخرج
سيكرة من صحن يده واعملها واتكأ واخذ يدخن ولسان حاله يقول « قد فهمت
ما عليّ فأقبل ما عليك »

اما توحيدة فلم يبق عندها شك في حرج مركزها فاستدلت الى المانع واحتدى
تفكر في الامر وقد بدأ التتوط في عبادها خوفاً على شريرين من دناءة ذلك الجاسوس
وأستبداد والدها . وهي تمام جيداً أن أبنتها الأقرب بدللاً من رامز فكيف اذا كان البطل
مثل صاحب . لكن خوفها على حياتها وحياة رامز هون عليها الاقناع برأي زوجها . وعم
في عصر كل مفعول فيه جائز - عصر الجاسوسية والظلم وقد أصبحت الارواح
والاعراض والاموال في ايدي الجواسيس يضعون من شاؤوا ويرفعون من شاؤوا لا
يتكلفون في ذلك الاكلمة يقولونها بتقرير يرفعونه الى ذلك الطاغية السفاح . وقد
عرفت انساً ذهبوا غرقاً في البوسفور او قتلوا بحد السيف او بالسم وهم ابريراً شاففت
ان يصيب ابنته شيئاً من ذلك وهي متهمة بالحرية ولا بد من اوراق طاعتزاوا عليها في
جملة اوراق رامز وفيها ما يكفي لاتبات التهمة عليها . واذا اغضبت سائباً تمت اسباب
الناسة لام يسعى في الاستقام لنفسه من رامز ومنها

الفصل العاشر

مرت هذه الخواطر امام محبة توحيدة وهي مستعدة كتفها الى الحائط وقد اطرقت واستغرقت في لجج الافكار وزوجها مشتعل بالتدخين يتلاهي عنها بغرابة حلقات الدخان وهي صاعدة . او ينبعض الرماد عن طرف السيارة وان لم يكن هناك رماد وهي في ذلك سمعت جرس الدار يدق فاستيقظت من هواجسها واسرعت دقات قلبها خوفاً من ان يكون القاتم صابباً فامضت زهناً يفتح الhadam الباب . ولم يensus بغير

حتى جاء الخادم مسرعاً وهو يقول «أني إليك .. أني صاحب بك» فهرب طهباز من محله ولم يعرف كيف يتخلص منه. وانصرفت توحيدة إلى بعض مهاماليت وهي تعود إلى ما كان يريده، زوجها من التحجب عن كل زائر لشخص من رؤية هناقادم لاتها هي التي حلته على الساحل في أمر الحجاب جرياً على مقتضى الفهدن الحديث . على ان الآراك وخصوصاً في سلانيك كانوا قد خففوا الحجاب على الأجهال فلارأة تعجال الرجال وهي مكتوبة الرأس بالنقاب او الشال ولم يكن طهباز يذنب ان تلاقي غير الاخاء مثل صديقه صاحب فودت توحيدة في تلك الساعة ان تكون محجوبة لاتها كرهت انت تعود الى موضوع خطبة هذا الرجل لايتها رغم ما هبها من امره بعد ما سمعته من التهديد . فتوتها الحيرة وذهبت من تلك الفرقة إلى غيرها وهي تسمع قرقمة عصا صاحب وهو يضعها على الشماعة . ثم سمعت طهباز يرحب بضيفه العزيز ويدعوه إلى الصالون شفطراً لها ان تفتقد ابتها التزي حاطها بعد ساعي جرس الدار وعلها يندوم صاحب . فدخلت الفرقة من باب داخلي فوجدها قد توسدت الفراش واحتاطت راسها بعصابة كانها تشكو صداعاً . فهرعت إليها واحتدثت نجس يدها ثلاثة تكون مجموعة فلم تجد بها بائناً فضمنها وقبتها وهي تقول «ما بالك يا عيوني .. من تشokin؟»

فاجابت شيرين بصوت ضعيف «أشكرك من صداع خفيف لا تخافي» فقبلت جبينها وكانت تتجبه بشفتيها التتحقق خلوة من السخونة ثم قالت «توضدي يا حبيبي نامي .. ان النوم يخفف الصداع»

فقالت «انا احاول النوم جهد طافقي» وارادت توحيدة من اغرائها على النوم ايضاً نجاتها من ساعي ما قد يدور بين ايديها والضيف من الحديث الذي يؤلمها واعفها لقرب غرفتها من الصالون فسرها اتها اذعن حلاً ونامت بدون ان تبدل ثيابها . وخرجت توحيدة وهي تسمع صوت زوجها يناديها فاصلحت من شائها ووضعت الحثار على راسها ودخلت الصالون . فوقف صاحب بك وهو يرش طاوير حب بها وقال «أني في غابة الامتنان لاطف سيدى طهباز بك وانه فاته بعدئني من اهل النزل واحد اولاده . وانا اعلم انه لا يفعل ذلك من كثيرين وهذه هي المرة الثانية التي جئت بها اليك اليوم .. فضلي اجلسني» قال ذلك وجلس

خلست باحترام وهي تجامله بالترحاب فوق نظرها على ورقة في يد طهباز يتصفحها وهو يبتسم ولسان حاله يقول «اسألكوني عن فحواها»

فادركت توحيدة غرضه فقالت « ما هذا يا سيدى » وأشارت الى الورقة فقال « تلغراف من الاستانة » وابرقت عيناه فتبارد الى ذهنها انه تلغراف باطلاق سيل رامز فسارعت دقات قلبها وهمت ان تخطفه من يده لترأه لكنها امسكت نفسها تأدباً وقالت « املأ بثأن رامز » فهز كتفيه وقال « ان امر رامز بعيد المدى . ولكن بثأن آخر لا اقوله لك » وفي غنة صوته دلال او مداعبة فلم يرق لها ذلك الدلال بعد ذهاب املأها ان يكون التلغراف بثأن رامز ولكنها تجذرت وقالت « باي شأن يا سيدى ؟ هل يهمني ان اعرفه » فضحك وقال « طبعاً يهمك لانه بثأن زوجك .. لا تخافي ليس فيه امر بالمعنى ولا السجن والجلدة .. »

فتداول صائب الحديث وهو يتواضع وقال « طبعاً لا يبني ان يكون فيه شيء من ذلك لأن الحاضرين للنذات الشاهانية يعاملون غير معاملة الخوارج المارقين » وتناول بصلاح نظارة لحظة وتحجج ثم قال « هنا تلغراف يا سيدى من الماين المهاجري بيبيه بإن جلاله مولانا البادشاه اعزه الله وقد انعم على سيدى طهباز بك برتبة سنية بناء على ما تحفته من مصدق عبوديته للنذات الشاهانية المقدسة .. » فقطع طهباز كلامه قائلاً « ومن ابن عرقوا ذلك لو لم يفضل سعادتك بابلاغه اليهم - فإنك صاحب الفضل في هذه الرتبة .. »

فأخذ صائب يتأطىف ويتواضع وانه لم يفعل شيئاً وان طهباز ادعا نال تلك الرتبة عن استحقاق اصدق عبوديته والابرجوه امير المؤمنين من الخدم النافعه على يده . وطهباز يحب معتبراً متواضعاً وتحجدة ينهما جامدة كالصم لاشتغال خاطرها بما تخافه من حديث زوجها بثأن الخطبة او ما يجري بعراها . فاجبت ان تشغليها عن هذا الموضوع فقالت « لم يعلم صائب بك شيئاً عن رامز ؟ »

فخرج صائب عن كربسيه وهو يظهر الاحتقار بحديث توحيدة وقال « نعم يا سيدى ان امر هذا الكتاب هنئ كثيراً نظراً لما علمته من علاقتي القربي بشكم وبنه وقد سألت ناظم بك القوم ندان عما جرى بثأنه فقال انه جاءه تلغراف من الماين يطلبون فيه توجيه رامز الى الاستانة حالاً واظفهم يحملونه اليها بقطار الميلية » فاجفلت توحيدة وندمت لاتها فتحت هذا الحديث خوفاً من انت تسمعه ايتها ارادت تحوبيه فلم تجد غير الرجوع الى حديث الرتبة فقالت « كم يبني ان نشكراك

سيك في هذه الرببة ..

قطع طهراز كلامها قائلاً « وستذكر فضله أكثرا من ذلك حتى نجح سعيه في سيدل رامز .. لا اطن ذلك يصعب عليه . اين ولدنا شيرن ؟ »

قالت « لا زال مريضه وقد مررت بها قبل عيشي الى هنا فوجدها نائمة مشدودة الراس من صداع طرأ عليها »

قال وهو يتاول سيكاره من علبة بين يديه ويعدها الى صائب « طبعاً اصابها الصداع من الزعل .. ولكن .. »

الفصل الحادي عشر

المهدية

قطع صائب كلامه قائلاً « الا يتحقق لها ان ترتعل والثاب ابن خاتتها وقد نعاشرها الاخرين ؟ اني قاسيت كثيراً ومررت في احوال عديدة ومع ذلك فان امر رامز افلق راحتى .. مسكون .. سابلل جهدي في التخفيف عنه .. وانا اعدنا ذلك واجبنا على بالنظر لما لاقته من مؤانسة سيدى اليك وحضرتة هائم افندى (واشار الى توحيدة) واواده ان استطيع امراً معجلاً يخف عن شيرن لاي اشعر بالاطفال خصوصي نحوها بعدهما آفنته من ادبها ولطفها وحسن تربيتها .. حفظها الله .. » قال ذلك ومدينه الى جيه واستخرج علبة مكرونة بالحمل المزركين وقال وهو يفتحها بين اصابعه « واطلن ما الاقيه من لطفكم ان شيرن تشعر نحوى بتل ما اشعر به نحوها . فاذاعتله هذه المهدية متى يتحقق ظافي وعند ذلك اعد نفسى سعيداً »

ثم وجه خطابه الى توحيدة وقال « لا تستغرب يا سيدتي هذه الجسارة متى قالت سيدى طهراز بك جرأتك على ذلك » وقدم العلبة مفتوحة الى توحيدة فوق بصرها فيها على قطعة من الحلب يتكلل الطير مرصعة بمحجارة من الماس والياقوت يأخذ لعلتها بالبصر لا يقدره العارفون باقل من خمسة ليرة . فتناولت العلبة ويدعا ترتجف من الارتباك لعلها ان شيرن لا يرضيها شيء من ذلك فلم تعرف ماذا تجيب فاجاب طهراز عنها قائلاً « ان شيرن عاقفة وماركة وهي من بنات هذا العصر الراوي اختبرت وطالعن . فهي لاغبهل مرکز صائب بك بل هي قبل هذبته مع

الامتنان .. » وتناول العلبة وجعل يفترس باحجارها ولعانياها وقال « انا اقدم لها هذه المدية عنك » قال ذلك ونهض وهو يتهدى بعيته والعلبة في يده فبعته توحيدة وقلها يحتاج خوفاً مما تخشى وقوعه على اثر تلك المقابلة

وكانت شيرين متوجهة الفراش وادتها مصغيتان لما يدور من الحديث في الصالون فبرقتها كلمة قيلت هناك . فلما سمعت قول والدتها وعلمت انه مثنى خوغرفتها ارتعشت فرائصها وغلب عليها القلب وودت لو انهم يغفونها من تلك المقابلة لكنها ما لبنت ان سمعت لخفة والدتها بباب . واسرعت والدتها امامه تسق الخطي خوسريها وتحبها نائمة فانا هي قد جلست واخذت تفرك عيبيها قفيتها والدتها وقالت لها « كيف تشعرين الان باشيرين ؟ »

فم تخيبها لكتها بتجاذب وحولت نظرها نحو الباب فرأت اباها داخلاً وقد استخرج الطير المرصع من العلبة وقدم خوها باطفاف لم تعيده له من قبل . حتى اذا دنا من السرير تبسم وهو يتبعثاً وقدم الطير اليها قائلاً « كيف تجدين هذا الطير يا بنية الا تستأطفيه ؟ »

فتابعدت شيرين عن الطير كائنة تخاف ان ياسعها ولم تجب . ففترس ايوها في وجهها وهو يضحك وقال « لا تخافي انه لا يعض بل هو حلي ثمين يليق بعنقك الجليل » وقربه نحو صدرها

فراجعت وهي لاتنظر اليه ودفعت يد والدتها عنها باطفاف فقال « ما بالك العنك لازالين مريضة ؟ »

فسرّها سؤاله لامه فتح لها باباً ل الكلام فقالت « نعم يا أبي .. اني اشكو من صداع شديد » واظهرت ميلها الى الرقاد فاماًكها بذراعها ليجدها من النوم وقال « اذا كنت تشکن صداعاً ضعي هنا الطاير على راسك فانه يشفيك » ورفعه الى راسها فردته واظهرت الشع فاظهر انه طابت عليها وقال « اقدم لك هدية وترفينها يا شيرين ؟ »

فنظرت اليه نظر الاستعطاف وقالت « انك والدي وتقدر ان تأمرني بما تريده فاطيحك الا هذا الامر فاني لاطاقة لي به » فقال « لا اطلبك فهمت مرادي .. اني اقدم لك هدية ثانية جاءنا بها صديقنا صائب بك »

قالت صوتها يرتجف « اذا كان صديفك قد مهاك فالبسا انت واعفي عنها »
 قال « أنها هدية لك ولست لي »
 قالت « لا اعهد يعني وينه ما يسوغ له تقديم هدية من هذا النوع »
 قال « ان الرجل ذو فضل علينا وقد اراد اكرامنا ايا يليق بنا ان نرفض اكرامه »
 قالت « عذنك ان تقبل ما يقدمه لك اماما فلا »
 قاطر الغضب وقال « أنا اقول لك اقبليها »
 قلم تعد تستطيع سيرًا على الخطم - فقلت وقد ارتفع صوتها رغم ارادتها « لا لا .. لا يمكنني قبولها يا سيدى »

الفصل الثاني عشر

قلب الوالدة

وكانت والدتها وافقة وقد تولتها الحيرة ونظرًا لاهقتها على ابنتها وأملها بمساعدة
 صاحب في افراز رامز احست بيل الى قبول شيرين بما يعرضه عليها ابوها فقالت « لا
 تتسبى برأيك يا شيرين يا حبيبي .. استوعبي المقصود م قولي ما يدوك »
 فافتقت الى والدتها الفتنة المتتاب وقلت « وانت ايضًا يا امام ؟ » وغضت بريفيها وابن
 الدمع في عينيها فكان ذلك المنظر وقع شديد على قلب والدتها فلقت . فعاد ابوها الى
 الكلام فقال « الاتر مني اطيل بالي عليك واتعاف في عادتك ؟ فاسفني لا اقول لك .
 انا اعلم انك غاضبة لما اصاب عزيزنا رامز االيوم ولكن ... »

فقطعت كلامه ولم تعد تلوك عن البكاء . فدارت راسها نحو الحائط واكبت على ذراعها
 فوق الوسادة وبكت هشًا لكن والدها عرف بكلامها من اهتزاز كتفها فغضب لانها
 قطعت كلامه بالبكاء وقال « وتبكين ايضًا ؟ وانا اترأفك اليك واراعي خاطرك ؟ تبكي
 لذكر رامز وهو الذي جر البلاء على نفسه وعلينا وانا اسمعي في ترقيع ما مزقه بطيسه ؟
 الا نتعلمين انه اوقع نفسه في غضب البداء وخشى ان يكون أوقتنا معه ؟ وقد وقفت
 يومية الله الى من ينقذنا من هذه الشرور عند الحاجة . اعني صديقي صاحب بك وهو
 مع ذلك يعرض علينا مودته فكيف ترفضيه بهذه الفظاظة .. قومي .. اجلسي .. »
 وامسك كبايدر اعمها يريد اجالسها فاشترت منه وثلاث مكبات على ذراعها وقد اغرقت في البكاء

فالفت طهراز الى توحيدة وهز راسه استدكاها من تصرف ابنته فوافت توحيدة في حيرة وخفت الفضيحة فشاررت الى زوجها يضم اصابعها ثلاثة اشارة الاسقال وآوامات اليه يعنيها ان يخرج ويتركها معها على افراد . فاستبشر اتها بـ ما استطاعت اقاعها فتسعى الى بعض جوانب الغرفة ثم خرج الى الخارج فلملت شيرين بخروجه من صوت مثيه ومن سعاله وهو خارج ثم سمعت والدتها تهمس في اذتها قائلة « لا يليق يا حبيبي ان تخفي والدك على هذه الصورة .. ولو علمت ما فعلوه برامز بعد التبص عليه ما .. ؟ » فقطعت كلامها قائلة « نعم علمت »

فتالت « هل علمت انهم سيأخونه البدلة الى الاستانة باسم من السلطان ؟ »
قالت « نعم .. وانا اتوقع اعظم من ذلك .. ؟ »

قالت « فاذن .. بصري بالمركز المخرج الذي نحن فيه وانا على يقين انا اذا سأرنا صاحب بك يقدر ان يتقد راماً ويفقدنا اذا لحقتنا همبة بيبيه ... بالله الا خففت من جفالتك وسايرت اباك بحسب الظاهر لنرى ما يكون .. قومي قبله وخدني المدية فانها لا تقدم ولا تؤخر .. »

فرفعت شيرين رأسها عن الوسادة وقد احررت عيناها كأنها محومة وتذكرت اهدابها من فرط البكاء وقالت « لم اكن احبك نصدقي الاكاذيب او تخدعين باقوال المتفقين .. وهي ان الرجل صادق بما يقول فاني لا استطيع ان تصوره ولا ان اقبل شيئاً منه .. لا تبني نفسك »

قالت « اخالف ان تسمى ياشيرين اذا علمت بعدئذ انه كان في امكانك ان تتقني راماً من الظرف ولم تفعل ؟ »

غرقت اسنانها وهي تنهى وقالت « لا .. ان ادم لان هذا الرجل الذي يدعى الفيرة علينا وعلى رامز هو الذي رماه في ذلك الفخ »

فقطعت توحيدة فم شيرين يكفلها مخافة ان يسمعها احد وقالت بصوت ضعيف « لا تقدر ان ثبت عليه هذه التهمة .. وما علينا الا ان نلحق الكاذب الى باب الدار » فبادرتها قائلة « كفى يا امامه اني لم اعد استطيع صبراً على هذا الجبال ان موتي وموت رامز اعون علي من قبول هذا الرجل .. » قالت ذلك وشرقت بريقها وعادت الى البكاء

وهما في ذلك سماوا في اقدام طهراز داخل الغرفة وهو يقول « اسمي بـ توحيدة

ان صائب يحب ان يكلم شيرين رأساً . لعلها تفتح عن منه »
 فلما سمعت شيرين قوله وثبت عن السرير ووقفت واستدعت يدها الى احدى
 قواطعه وقد حولت وجهها عن باب الغرفة كلها تحدّر ان يقع بصرها على ذلك الرجل
 الذي لا تقدر ان تخبيه
 فاعاد طهراز كلامه قائلاً « ان صائب يحب ان يكلم شيرين على افراد . فهو
 من باس ؟ »

فأردتني توحيدة من هذا الاقتراح لانه يخالف العوائد المألوفة ونظرت الى
 زوجها كلها تستثيره فقال « دعيها تخدعك اذ ربعاً كان صائب يحب اقدر على الاقاع منا
 وهو لم يقدم على ذلك طبعاً الا شدة عجته .. الا اذا كانت شيرين ترفض هذا الطلب
 من ايضاً »

اما شيرين فاستجمعت رشدها وتجبرت وأحسست بليل الى مثافه ذلك الرجل
 وهي في تلك الحال من القضب لتقول له في وجهه ما تعتقد فيه وتشفي غليلها بتوبيخه
 وتغيفه والتفت الى ايسها وقالت « لا باس من دخولة »

الفصل الثالث عشر

صائب يتكلم

وكان صائب واقفاً بالباب ينتظر الاذن بالدخول فلما سمع قوله استبشر واستبشر
 ايها ايضاً . نخرج الابوان من الغرفة ودخل صائب وهو ينظر الى شيرين نظر الحب
 الوهان ويتناغل باصلاح نظارته باحدى يديه وقد حل بيده الاخرى العلبة وفيها
 الطير المرسم
 فلما دعا منها وهي واقفة بجانب السرير التفت اليه شرداً وقالت « ما الذي يريد
 يا سيدي ؟ »

فتقى بطفف كأنه يحدّر ان يدنو منها وقال « اريد رضاك »

قالت « وما الذي يهمك من رضائي ؟ »

قال « ذلك كل ما يهمي فانا حصلت عليه فقد حصلت على السعادة .. وتكونين انت
 سعيدة ايضاً بل تكونين اسعد مختلفة على وجه الارض » قال ذلك بتغمة التذلل والتودد

فتاوى « آية علاقتك مع سعادتك وسعادة الآخرين ؟ »

فابتسم وقال «لايك» اذا رضي وقبلت هذه الهدية الحفيرة بذلك غضي في سيل
سعادتك » وقدم العلبة على كتفه غوها قباقب اعادت هي عنه وخفات يدها وراء ظهرها
وهي تقول «انت لا تقدر ان تحمل احداً سعيداً »

فاستبشر بذلك التوبيخ وقال «جري في باشرين وانظري .. فانك تربت في خادماً مطيناً اسدع يا امرك واكون طوع ارادتك . فابدل جهدي في كل ما تريدهن»
قالت «احسّم ما تقوله ؟ »

فیلم سینما ها و تأکید رضاهای فعال پایه فیلم «افضل کار این افضل ماتریال دسته»

فالآن **فقالت** «ان غاية ما اريده ان تكون بعداً عنك .. فاما كنت صادقاً في ماتقول

فانصرف سلام

فقط إلها نظر المتاب وقل « ابتعل هنا الجواب تقابلين توددي .. تقى باشرين
أى مفتون بك لا أذخر وسماً في سيل نيل رضاك .. »
قطنمت كلامه ذئبه « اكان من عالم حبك لي وشفتك بي انه دمت ذلك الشهم
الآخر في أعماق السجن ؟ »

فتحمس عند ساع كلامها وقال «أنا رمته في السجن ؟ أعود بالله ۰۰۰ أنا رمته ؟ أنا رمته وسوه نديره ۰۰ ولكتني مستعدة ان افنده من ذلك الفخ اكراماً لعمونك »

قالت « تقدمني من الفخ ؟ ومن رماد فيه سواك ؟ »
 فالخ في الاستغراب وقال « أبا ؟ أذاربيته ؟ أرجحي الى رشك » واظهر
 الاستخفاف بقولها لبعض التهمة عنه وتجاهله وقربه، والعلبة فيها قال « دعوي الاوهام
 عنك وارجحي الى رشك واقبلي هذه المهدية واعلمي ان ذلك الفلام ليس اهلا لك »
 بل هو او شيك ان يوقلك في خطر لا ينجيك منه احد « اوشك ان يعملك سجنية منه »
 لتهمة مثل تهمته . ولو لاي .. ولو لا حبك لكنت الان تحت غضب الذات الشاهانية ..
 صدقيني يا شيرين اني خدمتك خدمة لا تشن بالاموال » قال ذلك والعلبة لا تزال
 مفتوحة على كفه تقدمها نحوها وهو ينظر في عندها نظر العاشق المفتون

فاختطفت العالية من يده ورمتها الى الارض وهي تقول « دعني من هديتك الماطحة بالدم وقل لي كيف انتذري من الملائكة ؟ ان جبل الكتب قصير » فشق عليه عمالها ولكنه تحمله والتقط العالية فوضعها في جيده وقال « اني اغفرك

لجنونك ولا اعمالك بسلاك . لكنني اunsch ان تصدقني . صدقيني يا شيرن اني
اخذتك من الملائكة »

قال « كذبت ان مثلك لا يستطيع غير ايقاع الناس في الموت . »

قال « ولكن الذي يقدر ان يوقع الناس في للملائكة يقدر ان يخلص الناس منها »
ومد يده الى جيبي واستخرج ورقة قبض عليها وقال بلحن التهديد « اعطي اني ان حياتك
وموتك في قبضة يدي هذه »

فضحكت ضحك الازدراء وقالت « خسست ... يكفيك تمويهاً يكفيك ما ارتتك به
ايقاع ذلك الشاب المطر في ايدي القوم الظالمين . اوقعته بين عذاب الموت لترضى ذلك
الطاغية السفاح .. قبدهم الله من اشراره . ويل لكم من موقفكم يوم الحساب » وغضت
برقبها رغم ارادتها ثم غيّبت وقد احسست بقوّة وبرقة لم تشعر بتلكها من قبل وحوّلت
وجهها عنه وجعلت تنشي في الفرقة مثبة الاسد الظافر

الفصل الرابع عشر

التهديد

فأخذ الحق من مائة مائدة عطاياً وحرق استانه ومد يده وهو قابض بها على
ذلك الورقة وقال « لا اراك فهم ما اقوله لك .. قلت ان موتك وحياتك في قبضة
يدى هذه فإذا اطعمني وترجمت الى رشدك ورضيت بما عرضته عليك كنت سعيدة
والباقي ... »

قطّعت الكلمة وقالت « انك اقصر باعًا مما تشير اليه .. »

فتقصد نحورها وقد اخرج تلك الورقة واسكها ببابته وايهامه حتى ظهرت كلامها
وأثنى اخناء التهكم وقال « الا تعرفن هذه الورقة ؟ »

فلمّا وقع بصرها عليها علقت اتها من الورق الذي كانت تكتسب به رامزاً احياءً
فاجعلت ولكلها كلامت وقالت « وما عساها ان تكون ؟ »

قال « اما اقول لك ما هي .. هي كتاب منك بخط يدك وجدهم بين اوراق ذلك
الطائش الغر... انتملين ماذا تقوّل عن له فهو ؟ »

فأوجست خيفة لعلها اتها كانت تكتب لي رامزاً بدون حذر وقد يكون فيها ما

تؤاخذ عليه لكنها ادارت رأسها وقالت « لا اعلم ما بها ولا يهمني ان اعلم »
 قال « الا يهمك اذا كنت تقولين له فيها انك تجدين بقاء الذات الشاملة جلالة
 ولانا امير المؤمنين مصيبة على الامة العذيبة ؟ »
 قالت « ليس ذلك حقاً ؟ »

قال « لا ادري ؛ ولكنني اعلم ان رسول هذه الورقة الى يدي جلاله يجعله
 ان تستدعي ساعة لايشع الندم . وادا كنتم لم تصدقوا قوله فهنا خطاك اقرأه »
 قال وفتح الورقة فوق بصرها عليها فتركت خطها فام بيق عندها شك بوقوع المخابر
 لكنها ظلت تتأثر الاستخفاف

اما هو فقال « هل تظنين هذه الورقة لا تخوی غير ما ذكر به ذلك ؟ لو قلت لك
 خلوی ما يجيء منها لزاميت على قدمي تلقيني كتاب هذا الكتاب ... تقولين له فيوانك
 تستربى بن صبر الاحرار على بقاء هذا السلطان حياً » « هل في الدنيا ذنب اعظم من
 هذا ؟ هل تجدين سيلاماً للذئاب ؟ » ثم خفف صوته وقال « هل تخفقت الان ان
 حياتك وموتك في قبضة يدي ؟ » قال ذلك وشمخ باقه ووقف وهو يتوقع ان
 ترافق شيرين على قدميه كما قال . لكنه راحا لا زوال مستخفة به كأنه لم يقل شيئاً
 فتقدم نحوها وقال « ومع ذلك فاتا حتى الساعة اعرض عليك حياتك . اي اي اهبة
 لك على شرط ان ترجعي عن غبك وتعتبرى بما معنى وتعتقدى اني احبك والا... »
 فحولت وجهها عنه وهي تنظر اليه بطرف عينها ازدواجاً وخففت « اعتذر عما
 مضى ... ! » ثم توجهت نحوه بمحارة وقالت « اسمح لي ان ابنت كذبك قبل كل
 شيء ... لما قلت لك انك القيت راماً في السجن بوشائرك تنهض وانكربت وانت
 تقول الان انك اخذت هذه الورقة من بين اوراقه وكيف وصلت طالوة لم تكن انت
 الساعي فيه ... ثم اعلم ان الحياة ليست هي وحدتها غاية الانسان في دينه ... هل
 تحسب السعادة بالطعام والشراب او باكتساب الاموال ؟ اذا كنت تعدد ذلك سعادة
 فاعلم انها سعادة حبوانية وانما السعادة سعادة الضمير الحتر ... سعادة القلب السليم ...
 تلك سعادة النفوس الابية طلاق الحرية . ولكنك لم تتفق هذه السعادة ولن تسوقها ...
 انك وامثالك تحسرون الفرض من الحياة ان تجمعوا الاموال باية وسيلة كانت تسمون
 ضاررك بالجاسوسية فتخربون البيوت العاصرة وتقتلون النفوس البريئة سعياً وراء
 الديمار كاسعى الكلاب وراء الجيف المتشنة ... هنئاً لكم تعموا ما شئتم واقتلوها
 ما شئتم ... ليس هذا من ذهب الاحرار الصادقين . فاذا علمنت ذلك هان عليك ما تجدوه

من استخفافي بتهديك .. فاقفل ما تراه .. فانا خير من سبقني الى هناك »
وكان نتكلم كالماء تخطب على جهور وسائل يسمع كلامها ويزور رأسه تارة ويفعل
شئته تارة اخرى ولسان حاله يقول « هذا هو الجنون يعنيه » فلما فرغت من كلامها
سكت هنئه وهو مطرق وقد اخذته الحيرة ثم رفع بصره اليها وقال « لا ازال اراك
تتكلمين كلام اهل الطيشة الذين يتفلسفون فيضعون ايدهم بالكلام الفارغ . وقد كان
يجهز في بعد ما سمعته منك ان اكتفي برفع امرك الى صاحب الامر وهو يعرف شغله
معك ، لكنني لا ازال شنيعاً بخيالك شفوقاً على شبابك اكراماً لايتك ولا تجيء احبك .
فناعرض عليك الحياة مررة ثانية واجبتك على قوله ان ما ذكرته من الالقاظ الشخصية
النفسية والحرية والنفس الابدية انتا يلهمها اهل الفاقة الذين تضيق دونهم سبل الرزق
فاذاعجزوا عن اكتساب المال عدواً اكتسابه رذيلة .. اي فائدة لا اصحاب تلك النعوت
ان لم يكن لديهم من المال ما يدفعون به الجوع والبرد ؟ وما هي الحرية او ما الفائدة
منها لخلالجيه وخوى جوفه ؟ هل تجدين بين اولئك الذين يسمون انفسهم احراراً
من يستطيع ان يعيش من ماله — حتى اصبح لفظ حر لقباً لاهل الطيش الافقين
الذين يضربون في الارض خلو ايديهم من المناسب فيزعمون انهم تخلوا عن الخدمة
رغبة في الحرية . ولكنهم يفعلون ذلك عن عجز ولو أعطيت لهم المناسب لبنيوا الحرية
واركعوا الى العبودية .. كما فعل كثيرون منهم آنا كنت الوسيلة في ردم الى رضى
الذات الشاهانية .. مالنا ولذلك الان هذه آخر كلمة اقوالها لك ثم يكون دمك على
راسك — اتي اعرض عليك النجاة من خطر الموت . ولا ازال اقول اتي اعدك باقلاذ
رامن ايضاً ولا اشترط شيئاً غير ذلك في والا فلا تلومي الا نفسك » قال ذلك بلحن
الهديد وتحول نحو الباب وهو يتوقع ان تندم قتستدمه وتابعه فلما سمع منها الا
قولها « افضل ما بدارلك .. واداكانت الحياة على يدك وايدي امثالك لاحاجة لي بها »
فعاد صائب اليها بعجلة وهو يشير بيده اشاره الوعيد والتغبي وقال « تزعمين
انك تعيين رامزاً وها انت تقتلني بيديك .. قد ستحت لك فرصة لانقاذه فلن تتعلمي .. »
فاجابت « ان حبي رامزاً لا دخل لك فيه .. وان رامزاً لا يرضي ان تكون حياته
منة من جاسوس منافق .. واما أنا فاني افضل ان يموت رامن واموت أنا معه خيبة
الحرية وقول الحق ولا نعيش عبادة المغلقين المنافقين .. وزد على ذلك فان يدك اقصر
من ان تستطع خيراً .. انك لا تقدر على غير الشر فاقصر عن ودعني »
ففتح صائب فحكة طويلاً وان كانت اغتمامية وتحمّل وخرج وهو يردد قوله
بسخراً « نموت خيبة الحرية وقول الحق » ماشاء الله

الفصل الخامس عشر

الخلوة

وكان طهراز وامرأته جالسين في الصالون يسمعان ما دار بين شيرين وصائب وكذا يتوقعان ان تذعن شيرين خوفاً فلما رأيا هذا التصلب قال طهراز « قبح انة هذه الفتاة ما اجنبها .. اذا كانت لا تختلف على حياتها فانا اختلف على حياتنا بببيها » فلما خرج صائب بادر طهراز اليه واخذت يستعلمه ان لا يتعجل بالاستقام وان يعذر شيرين على طيشها وتخيل رجلاً يقنعوا بها . فرفض في بادئ الرأي بالغ طهراز في استعطافه فوعده انه سابر يوماً أو يومين أكراهاً خاطره ووعده وانصرف وهو ينتقض من شدة القبط لما سمعه من شيرين وكلت يتوقع استسلامها له بمجرد اطلاقها على ذلك الكتاب وكان قد وجده بين اوراق رامز فاحتفظ به ليتحذنه ذريعة لاذلامها . فلما رأى جفونها حدثه نفسه ان ينتقم منها لكنه علم انه اذا فعل خرجت شيرين من يده فلما اسقدهم والدها ووعده باقاعها ترقص ليرى ما يكون من امرها

اما توحيدة فانها أصبحت لا تعلم ماذا تعمل وقد لامت ايتها على ما بدار منها وصممت على اقاعها بالرجوع عن عنادها وتقدمت الى طهراز ان يمول عليها في اقاع شيرين وان يتحقق بصائب واياوكه استعطافه ويعذر له عما بدار . فلبس ثيابه وسار في اثره

اما شيرين فلما خرج صائب من غرفتها اغلقت الباب بعنف واظهرت أنها تلمس الانفاس والراحة في الفراش فتركتها والدهما وذهبت الى غرفتها لتعمل فكرتها في حيلة تختزليها لاقاعها

فلما خلت شيرين بنفسها فكرت في ما سمعته ورأته فتحققت وقوع الخطط عليها وعلى رامز وایقت اتهما مقتولان .. وكانت الشمس قد مالت الى المغيب وهي ساعة تستولي فيها الوحنة على قلوب البشر كأنهم يشاركون الطبيعة بالاسف على فراق سيدة العالمين فتقبض القلوب وتظلم النتوس وتماطل السويداء على العقول فلا يرون من الدنيا الا وجهها المظلم فكيف في من كان في مثل حال شيرين من اليأس بعد ان قدرت نهارها بين جدل وبكاء، وحزن وخوف ؟

فاغلفت شيرين غرفتها وقد جاش الحزن في خاطرها فنذكرت حبيبها وكيف كان يأبىها في مثل تلك الساعة فيخفف احزانها وينذهب وحشتها بالذئف حديثه فيتشاءك ان وتحادثان . وتصورت ماهو فيه من الضيق وكيف انه لا يابى ان يصير فريسة لذلک الظلم ولا تدري ما يكون من امره هناك . اذ قد يسجن ويعذب او يقتل او ياتي في البوسفور فيذهب فريسة للناسك . فلما تصورت ذلك اقشعر بدنها وغلب الحزن عليها ولم تجد ما يخرج كربتها غير اليكاه . فاطاحت نفسها العنان واخذت تدب سوء حظها وتبكي وتشقيق كالاطفال وجعلت تناجي نفسها قائلة « رامز .. حبيبي رامز اين انت الان ياترى ؟ انك مسجون وعما قليل يحملونك الى يالز قبر الاحرار ومدفن الحرية .. لا تحنف .. لا تبال باللوت في سبيل الحق والحرية .. ولكن اه .. يموت رامز .. يموت حبيبي رامز الحر الصادق ويق هدا الجاسوس واصحابه في قيد الحياة ؟ »

قالت ذلك وحرقت أسنانها ووُبِّت من فراشها وقد اطلعت الغرفة فاتح مجال
ال الخيال فتصوَّرت رامزاً في شنك وانه لاشك يفكِّر فيها ويُخاف عليها وبخشى ان
يُعْظِّم صاحب بها بعده فقالت «لا تخف يا حبيبي اني تائبة على ودادك .. اني متذكرة في
جلك .. وان يد ذلك المتفاق أقصر من ان تناول مفي شعرة وابعد من ان يُعْظِّم مفي
بنطرة .. ولكن آم ما الفائدة من ذلك وانت تتحمّل خمار القتل الشنيع .. ما العمل
الآن يا شرين ؟ »

وكانت تغول ذلك وهي تتشى في الغرفة وقد أصبحت في غفلة عمما يحيط بها ونست
وقفها فأخذت تستجمع قواها فرجعت الى السرير واستلقت عليه وأطلقت تصورها
العنان فسمعت وقع خطوات في الدهاليز عرف أنها خطوات امها ثم سمعت قرآن على الباب
فعلمت أن والدتها تطلب الدخول عليها فظاهرت بالنوم وهم تكب فالhalt والدتها في القرع
خوفاً على ابنتها من تلك الوحدة لذا لاصيبها أبغاءاً اوسوء آخر . فلم تجد شيرين بدلاً
من النهوض فنهضت وفتحت الباب وهي تتجلد لتخفي ما في نفسها . فدخلت والدتها وفي
يدها مصباح وقد بلال الدمع عينيها فتأثرت شيرين من حنو تلك الوالدة التي ليس لها
تعزية في الدنيا سواها . وكانت رابطة شيرين بوالدتها أشد من رابطة سائر البنات
بامهاتهن لأن شيرين كانت مستودع اسرار تلك الوالدة اللئيمة التي خانها الحظ وماررت
زوجة لذلك الرجل الجائع . فاحتفلت فظاظته وحاته اكراماً لابنتها . فربتها أحسن
تربيه ولما كبرت أخذت تهاديه تشكي اليها هموها ومصالبها وهي التي سهلت عليها الاجماع

برامن . وكانت تسر باجتماعهما ونشرح صدرها تجاههما وكانت تعد الأيام أيام قرائهما . وقد أحببت رامن آميمة الوالدة لوله افكان وقوعه في هذه الورطة من أكبر أسباب شفائها . وزاد بذلكما علقت مما دار بين شيرن وصائب ان ابنتها عرضة لذلك الخطير الا اذا رجمت عن عذارها ورضيت بصائب مع كرهها له واستكفا فرامن دفاعه اخلاقه . ولكن غلب عليها الحشو الوالدي فاختارت اهون الشررين لعلها ان صائب اذا لم ينزل رضاها وشي بها وساعد على قتالها

كل هذه الموجس مرت في خاطر توحيدة لما انفردت في غرفتها بعد ذهاب صائب وكانت توي ان تزجل مخاطبة شيرن الى الصباح لكنها لما رأكت عليها الموجس لم تعد تصير عن رؤيتها تطعن عليها واعلها تستطيع اقاعها بالقبول . وكان زوجها قد غادر اليت فرحا بربته ليفي السهرة مع صائب ويطمئنه على نيل بنته . خملت المصباح واتت الى غرفة شيرن كما رأيت

مسمى

الفصل السادس عشر

شيرن ووالدتها

فلا تلاق نظارها ابسمت كل منهلا للآخرى تخفياً عنها والدم ينقطر من اعينهما . وغلب حنو الوالدة فوضعت المصباح من يدها على طاولة هناك وأكبت على ابنتها وضمنتها الى صدرها وقبالتها وهي تقول لها « اين كان هذا البلاء علينا ؟ .. قبحك الله يا صائب .. قد كنا في فهم وراحة فاتيت وكدرت عيشنا » ثم رفعت رأسها عن عنق شيرن وقالت « ساحنك الله ياطهراز » .. وأمسكت شيرن من يدها واجلسها على المبعد وهي تقول لها « لا تخزي يا عيوني .. لا يأسني .. ان الله لا يتركنا »

فظلت شيرن ساكتة وقد اطربت وعياتها مقر ورقان بالدموع ولاقدر على الكلام فاستخرجت توحيدة التدليل من جيبها وساحت عيني ابنتها وهي تقول « لا يأس عليك يا حبيبي . تحكملي . فقد ابنتك وابوك خارج البيت لا يخف عنك . ما من علة الا وله دواء »

فنهدت شيرن تهداً عيناً ولم تُنْجِب

فقالت توحيدة « ان الامر صعب ولكن بمحابتك في يديك .. » وسكتت وهي ترادي

ما يدوم من شرين فإذا هي لم تزد على اب نظرت الى والدتها بطرف عينها ولم تكتم
 ف وقالت توحيدة « لا ترين الحق معي يا حبيبي .. اليس خلامك في يديك ؟ »
 فشهدت شرين ثانية وقالت « اذا كنت تعنين خلاصي من الموت فعم » فقالت
 « اذا فاعمل .. ارجعي عن عزمك وقولي كلمة فتفقد حياتك وحياة رامز أيضاً »
 فقالت « ولكن اذا رضيت انا باقاذه على هذه الصورة لاسمح الله فانه لا يرضي »
 فاستبشرت بقرب رضاها فقالت « اما رامز فانا اضمن انه يرضي .. لا اعني ان
 قبيل بصاص بفلا بل اعني ان نسايره ونعده ربنا نرى ما يكون من امره .. فإذا اخذ
 رامز فاليفعل رامز به ماشاء .. وانما اخون نجوا من الخطير الذي يهددا به »
 فقالت وهي تهز رأسها هز الانكار « وان رضي رامز فاما لارغى .. لا ارغمى »
 قالت « لقد حيرتني .. بالله عليك اشفعي على والدتك اذا كنت لا تستفيدين على
 شبابك .. ان هؤلاء القوم لا يخالفون الله ولا يallowون بذلك يفعلون .. دعينا نخادعهم صرة
 واحدة الخامسة حيانتك وحياة حبيبنا رامز وحياتي .. »
 فكلمات شرين وبامت روقيا كأنها لهم ان يقول شيئاً وتعنك نفسها فعادت توحيدة
 الى الكلام قائلة « بالله قولي يا شرين .. قولي الله اسفت لتوسلني .. »
 فقالت « دعوني الان يا أماء اني لا املك خسي »
 قالت « سأركاك .. تفكري في الامر الاليم وارجو ان تتحقق صواب رأيي وتطيعيني
 وساعدونيك في القدان شاء الله .. هل آتيك بالطعام ؟ انك لم تأكلني شيئاً اليوم .. »
 فاشارت برأسها ان « لا »
 فألحت عليها ان تأكل فقالت « لا اشعر بالجوع الان واذا جمعت فاني اعرف مكان
 العامام كوني براحة »
 فاطلما ان بال توحيدة ونهضت وانهضت شرين معها وساعدتها على خلع ثيابها ووضعتها
 في الفراش ومضت وقد ألمتها الامل



الفصل السابع عشر

الى اين ذهبت

وذهبت توجدة في الصباح باكراً قبل ان يهض زوجها من الفراش وذهبت الى غرفة شيرين فوجدت الباب مفتوحاً وليس في الغرفة احد، فظلتها في مكان آخر من البيت فلقتها في سائر الغرف فلم تجدها، فعادت الى غرفتها وأمعنت النظر فيها فعلمت من عدم وجود نعماط والتوب الذي تابه في الخارج أنها ليست في البيت فاقشعر بذتها واعملت فكرتها في المكان الذي يمكن ان تذهب اليه فذكرت حاجة لها كانت متودع اسرارها تكن على مقربة من يتهمن فادت خريستو (الخادم) اترسله في التبليغ عنها ففتحت جواباً فكتبت له لازال ناماً فاسرعت الى حجرة بنام فيها فوجدتها نتوحة وليس فيها احد فوسمت في حجرة وترفق الدمع في عينها، ولكنها ما زالت ترجو ان تتفق على خبرها فلمنت ان تبكي فعادت الى غرفة شيرين وجلست هل المقد خالرة القوى واستندت رأسها بين كفيها وأخذت تفكّر في خروج ابنتها على تلك الحالة خلسة، واول خاطر بدا لها اثرا هربت خوفاً من غضب المأمين عليها اذا اطلعوا على كتابها، ولكنها لم تجد سبيلاً لغفارتها خللة عنها، ولكن الى اين تفر؟ فذكرت الخادم خريستو وهو الباني الاصل متقدم في السن وقد ودعي شيرين في سفرها وكانت يستهلك في سبيل مرضاها، وهو تشخيص مهام يحب الحرية ويكره اهل الاستبداد وكان يزداد احتراماً لشيرين وتفانياً في خدمتها كلما رآها تعب الاحرار وتخدم مصالحهم فتصورت توجده ان خريستو أغرى شيرين على الفرار الى بلده على اثرا لم تجد باعثاً على خروجها بدون ان تخبر والدتها فوسمت في حجرة وادا هي تسمع سعال زوجها وهو خارج من غرفته، ثم رأته وعليه لباس النوم وعل روشه طافية حمرا، وقد اتفق شعر رأسه وليته وجعل على كتفه منشفة وانبه غدو حفنة الفيل و هو يمحك رأسه ويفرك عينيه، فلمنت ان يبالغه لكتها سمعته ينادي خريستو وبلاح في المناداة فتقدمت نحوه وقالت «ان خريستو ليس هنا» فالنفت اليها وقال « الى اين ارسلقوه في هذا الصباح؟» قالت «لم ارسله الى مكان ولكن شيرين ايضاً...» وغضت يرقةها وغلب عليها البكاء فاستغرب بكماءها فقال « مالبلاك تبكين؟ ماذ فعلت شيرين؟ اثرا لا تزال تعيناها باعمالها وعنادها »

فتجددت توحيدة وقالت « شيرين ليست هنا . لا ادرى الى اين ذهبت . » وكانت تتوقع ان يشاركها طهراز بالاستراب والبفحة فاذا هو تحول معه الحنيفة واخذ يعالج الصابون لغسل وجهه وهو يقول « ولا أنا ادرى . . يظاهر انها توجهت الى بعض سواحها الملاوي وافتتها على التحدث بالحرية والطعن في السلطان واعوانه . . انها سترمنا في ورطة لاخلاص انا منها » واخذ في القليل كافٍ الامر لا يهمه فاستخفاف طهراز بخروج شيرين خلف دهشة توحيدة لاسا اعتقدت نفسها بالآمنة بالظروف اذ قد تكون في زيارة عند بعض سواحها كما قال على انها لم يطل صبرها على هذا الاعتقاد فعادت الى الوجل واحبت ان تبعث من يقتضي عن شيرين في مقطاناها وليس عندهم احد ولم تخسر ان تطلب الى زوجها ان ينفع نفسه فاختفت تستعد للنهاب . قابلت ثيابها ولم تفل شيئاً حتى فرغت من اللبس وكان طهراز قد فرغ من القليل وهي تعلم انه سيطلب القهوة ثم الطعام فاذا وافتته شاع الوقت فناداته وخرجت الى الاماكن التي تظن شيرين ذهب اليها او هي قريبة من المنزل ولم تلب نصف ساعة حتى عادت ولم تقت طا على خبر هناك فوجدت زوجها قد طبخ القهوة لـ«هـ» واخذت في لبس ثيابه فقالت له « ذهبت للتفتش عن شيرين قلم ايجدها عند احد من اصحابها »

فقال «ستجدينيها بعد قليل .. ولكن يظهر من ذهابها مع خريستو أنها هلالت وكم من مرة أردت إخراج هذا اللعين من بيتنا وات لا تریدين ، أنه من جملة أسباب تلك شيرين بعنادها ومتبايعة أولئك الأغراط الذين يسمون أنفسهم احراراً لانه من أهل ذلك الجحون ايضاً - اذا كنت تظنين شيرين قد هربت فلاحية لها فيها ولاذب لا لاتنا نصحنا لها وكذا تقبل يدها الترجم عن غرباً وتوافق صائب بك على طلبه استجو وتحينا من الخطير قلم رزض .. وهو هي قد هربت وترك الخطير علينا . فان الحكومة اذا طلبها وتم تحديداً عسكرت بنا ... اخاف ان يكون صائب بك قد دفع كتابها الى تلطم بك رغم المتسان ان لا يفعل »

قال ذلك وهو يابس ثيابه وتحيدة واقفة بباب الغرفة مطرقة لاتدرى ما تقول
ولما ذكر صائباً وكتاب شيرين خافت ان يصح قول طهراز ويكون صائب قد بعث الكتاب
الى المأمين غيظاً من شيرين ولم يصر قفالت « سدقت اني اخاف ان يفعل صائب ذلك .
ما العمل ؟ »

قال « وعدني امس انه يصيّر الى صباح اليوم فاذا لم ترض بعث الكتاب وتواعدنا ان يأتيتنا في الصباح فلا بلت ان يكون هنا .. . اعدى لنا القطاور »

فهونت نحو المطبخ واخذت في اعداد الطعام وركبتها ترتجفان من شدة التأثر
وتعجبت كيف يختار لزوجها ان يطلب الاكل وهم في تلك الحال من الاضطراب

الفصل الثامن عشر

الاستهلال

وبعد ساعة سمعت توحيدة قرقعة المركبة بباب البيت تلاها الوقوف فدامت أنها
مركبة صاحب فأخذتها الرعدة فتغافت باعداد الماء ثم دخل . ثم سمعت وقع
خطوهاته وطرق عصاه على السالم وما لبث ان صار في الدار ووضع عصاه على الطاولة
وخف طهاز لاستقباله وهو يهش له . فتساقطاً ودخل الصالون وصاح بشيء مرحة
مشية الظافر ويشكّل التواضع والتاطف . وجاءت توحيدة بعد قليل للسلام عليه
فلاحظ دعماً في عينيها فسأل عن السبب فقال له طهاز « لا شيء » . لكننا احبنا اليوم
فلم نجد شيرين في البيت فاشترط باتاً عليها «

فاجفل صاحب واول شيء خطر بباله أنها هربت فصاح « الى اين تهرب .. .
ونهض كأنه يوم بالطروج وقد يدا الفضب في عينيه فاستوقفه طهاز قائلاً « تهرب ؟
لا نظركم فعل ذلك .. . أنها لا تلبث ان ترجع اليانا .. . افترض أنها اختارت عند بعض
اصحابها يوماً او يومين ثم .. . »

فابتدره صاحب قائلاً « كيف تذهب وحدها ؟

قال « يظهر أنها ذهبت مع خربستو الخادم لأنها لم تجده في البيت »
جلس وهو يهز رأسه للتهديد وقال « مع خربستو الآلاتي ؟ هاها .. . » واخذ
يفتل شاربيه وهو يعمل فكره ثم استخرج علبة السكارب وأخذ سيكارته فاصرعت توحيدة
الي عود من الكبريت اشعاته وقد نهض له وبدها ترجمف . فأشعل سيكارته منه وفتح
الدخان نسمة طويلة وهو ينظر في صورة معلقة بالحانط كأنه يتناول عن الفضب الذي
تولاه فابتدره توحيدة قائلة « ان شيرين لا يمكن ان تغير يا سيدى . لعلها عند بعض
اصحابها وان كانت لم تفعل ذلك من قبل »

قال « تغير ؟ الى اين ؟ وكيف ؟ .. . انت اسد الطارق دونها .. . و اذا هربت فاتها
تطلب موئيل او غيرها او لعلها تذهب الى رسنه لأن الحك اهلاً بها . وهب أنها فرت

بع خدمها الى الباشا بلده فلما تحدى احمد الباشا صاغرة »
فاصاحت توحيدة بالهجة الاستعطاف « أتوسل اليك يا سيدي ان تساعدنا في
استرجاعها

قال « ولكنني لا استطيع ذلك الا اذا أبلغت الحكومة ذنبها لبعث الرسائل البرقية
الى عطاط السكر الحديدي لتوفيقها »

قال « لا ، لا ياسيدى ، ليس هذا مانطلب واغتف حينذا نفع عن فيا هو
انثر من ذلك وات لا ترضي ان تلتحق بنا هدا الاذى اذا ذنب لنا ولا الذنب لغيرنا
والكتها مغروبة . ولو صبرنا عليها يوماً او يومين واخذناها بالثوذة لانصاعت الى ما نريد
ولكننا تمجدنا رضاها وهي في این غضبها قلم تطبع . . . ومع ذلك لا اعتقاد لها خرجت
من سلاييك لاهم المعمود الظروج من المنزل فكيف تطلب مواسير او غيرها . فلما صبر
هذا اليوم فقط ونحن نفتئ عنها في بعض الاماكن التي نظمتها توجد فيها الى الماء ، فانا
ننجدها تكلمتنا في الطريقة التليل لتفتيش عنها » قالت ذلك وعينها تترقب الدمع
وصوتها اختنق ولم تعد تستطيع الوقوف فانصرفت الى غرفتها

فلا خلا طهراز بصالب قال له « لا تخف اتها لا تهرب . . . وكيف تهرب وهي
لانفود عندها ؟ أنها سترجم صاغر مقطيعة وتعرف بخطائها . وقد صدق توحيدة بانها
اخطاً يافتتها وتعجل رضاها . أنا وعدتك بها وانا مطالب بوفاه الوعد . . . فبحها
اه اين نجد احسن من صالح في كل الذين جولوا ؟ »

قال صالح « لا يهمي الآن رضيت ام لم رض بعد الذي شهدته من فظاظتها
وعنادها . . . لكنني أصبحت مطالباً ان لا اخون ولبي نعمتي . . . »

فادرك طهراز انه يشير الى الكتاب الذي بيده منها وانه ينوي تبليغه الى المأمين
قال « لا تفعل ياسيدى فذلك اذا بلغت خبر هذا الكتاب الى الحكومة ولم يجدوا
ساجحة وقع الغضب على اهلها . هل اذينا بعننك لك ؟ ألم نجد انا اخلاص الناس لذات
الشهادية فهل تزيد ان تؤخذ بذنب سوانا ؟ »

قال « انت والحق يقاك مخلص لا يد المزمنين ولو كان السكل مثلث خلاصت البلاد
من الفلاقل . وستحال المكافأة اللازمة . ولاريب عندي انك اذا اطمئني وذهبتي معي
الى المأمين ستلق ما يسرك »

فابرقت امسرة طهراز اعجازاً بنفسه وقال « اذن فانتظر يوماً او يومين ولا بد من
ظهور الفتاة بعد ان تكون قد قاست المهواز والمذاب فترجع عن غيها وتتوب الى رشدتها

وتعلماك نصحت لها . ولا ينبعي لنا ان نخابها على ما فرط منها فانها لم تخرج عن كونها امرأة . وهل تخاب النساء على اعمالن وهن ناقصات عقول . وخصوصاً في هذا العصر الذي أصبح رجاله لا يخابون على غلطهم لشذوذهم عن المألوف في ايامنا .. انهم يخرجون على الخليفة ويطالبون قلب الحكومة .. اليه هذا من الطيش وهل يخاب صاحبه على عمل يعمه فكيف اذا كان قتاه والنساء لم يخلقن الا للطبع والخدمة وتربية البنين .. ولكن الزمان تغير وقانا الله عاقبة اعمالنا »

فصادق سائب على ما قاله طهراز ووافقه على الانتظار وكانت المائدة قد اعدت فهمضوا للطعام

الفصل التاسع عشر

رامز

لتذكّرهم يقتلون عن شيرين ولذهب الى رامز لنرى ماذا جرى له . انه سيق الى سريري الحكومة مغفورةً كما يساق المجرمون في مرآبة مقفلة ومعه اشنان من الفاطمة وحلوا اوراقه في محفظة كبيرة قد ختموها في غرفته يوجد نظام بك . فكان وهو في المرآبة المقفلة مستترًا في تصوراته وقد علم انه صارى الى اشد الاختمار فلم يبال يعني ، منها لولاشيرين . لانها كانت مستقرآماله ومستودع سررها يكفيه منها نظرة تعدد او كلمة اعجباب بما يكتبه حتى يستفزه الطرف وتهب فيه الحساسة وينشط الى مواصلة الاخذ بناصر الاحرار . وكانت هي التي زادته تمكناً بذيل الحرية والدقاع عنها بشدة والطعن بالظالمين حتى تهور والتي نفسي في ذلك الخططر

ولمدرأة روحيتها في قلب الرجل قتبه عقده وتنبر هنته ويصبح طوع ارادتها يحب ما تحب ويتنقاني في سيدل ما يرضيها . فاذا كانت قوية المبدأ سامية الخلق شريفة الاحسان صمدت به الى مياه الجهد واصبح حمه النخلق بذلك الاخلاق . وقد علمت ان شيرين كانت مقطورة على حب الحرية تعشقها وتتنزل بها فكيف لا يعتقد رامز ويستهلك في نصرتها . وكم من قائد يخوض ساحة الوعي ويعرض حياته للخطر وهو لا يرجو من وراء ذلك الا ابتسامة من حبيبته او كلمة اعجباب من شفتيها . وكم من علم او كتاب او جواد او معلم انساً يشق في جهاده الهاساً لرضى حبيبة عاقلة فطرت على

حب هذه الفضائل . فـي الحادثة الـامـة التي تسمـوـ فيها اخـلـاقـ الـرـأـة حتى تـمـقـ الفـضـائلـ فـذـكـونـ عـوـنـاـ لـالـرـجـلـ عـلـىـ الـمـبـرـاتـ اوـ الـحـسـنـاتـ اوـ السـعـيـ فـيـ سـيـلـ الـحـقـ وـالـحـرـيـةـ اـذـ تـكـونـ عـرـضـةـ لـهـ تـسـتـمـضـ مـعـتـدـلـةـ اوـ كـلـمةـ . الـامـغـرـضـ اـبـهـاـ وـالـحـيـةـ حـيـبـهـاـ وـالـاخـتـ اـخـاهـاـ وـوـبـلـ لـلـامـةـ الـتـيـ اـنـجـطـتـ فـيـهاـ اـخـلـاقـ الـرـأـةـ فـاقـتـصـرـ هـيـاـ عـلـىـ الـاـكـلـ وـالـشـرـبـ وـالـمـحـرـمـ اـحـادـيـهـاـ فـيـ الـخـرـافـاتـ وـالـاوـاهـ

فتشى رامز مدة الطريق من منزله الى سراي الحكومة وهو غارق في بحث المواجهات
نهر سورة شيرين من عيشه كا فارقا للمرة الأخيرة . وتدبر افصحتها ان لا
يستخلاص صائباً فقال في نفسه « لا بد ان تكون هذه الاشارة منه » ثم ادرك ان يرتكب
صدقه صدقه مثل هذه الرذلة

ولم يتبه لفه الا وقد وقفت الملكية به وفتح لها فزلا منها وهو يتجلد ويظهر عدم البالاة باعالمهم . فاستقبله شابط كان واقفا هناك وأشار اليه ان يبني في اخر قبعة حق دخل قاعة ناظم بك القومندان . وكان رامز طويول القامة جيل الطلمة متاسب التكرون وفي عينيه ذكاً ومهابة . حسن المدام فظيف التوب لكنه لم يستطع اصلاح شأنه في ذلك الصباح لانه نسي نفسه وانصرف بكلته لما بين يديه . فلما دخل قاعة ناظم بك وجده جالاً في صدرها بلياسه السكري وبين يديه الحفظة المخومة وعيانه صاحب بك . فلما رأى مائباً اجهل وتحقق عليه فارتعدت فرائصه من العيظ لكنه تجبره قاتلته ناظم بك قابلاً « كيف ترى نفسك يا رامز افدي »

فتعذرني صاحب الكلام بالطبع وهو يظهر الاسف وقال مخاطباً ناظم بك « ان رامز افendi مشوش في الطريق الذي سار فيه . وانما اغراه اهل الطيارة ولا شئ عندي انه حل على ماقعه مراعاة لاصدقاته »

فقال ناظم « كيف يكون كذلك وهذه الاوراق تؤيد انه خائن الدولة والملة وهذه كتاباته في الجرائم التزكية والقرناوية تشهد علية . واظنك تدافع عنه لا انه من اصدقائك »

فالصائب وهو يظهر الاتهام « أقدم ». نعم أن رايمز أقدمي صديقي لكنني أقول الحق وأنا أعرف أخلاقه فإنه مفترر . . . ثم حول خطابه إلى رايمز وقال « أليس كذلك ؟ »

فهز رامز رأسه باقة ورفعة وقال «لا»

قال ناظم صائب « وقول انه مفرور .. ان هؤلاء الفلان ، المتهورن الخارجين على جلالة الادشاهه يبني ان نجحت ارومهم ونعلمهم كيف تكون عاقبة الاخرين ... » وهم ان يأمر بالاخنه الى السجن . فوق صائب واظهر انه يبذل وسعه في الدفاع عن صديقه رامز وقال « اقدم . تمهل . اني اعرف رامزا من الصغر وكنا معاً في المدرسة .. انه مفتر ومن غروره انكاره ذلك بين يديك »

ثم تحول نحو رامز وقال « لا يفرنك الفلان الذين يزعجون انهم ينصرفون الحرية فالمغايطرون وظيفة مت حصلوا عليهما كوك في الخطر . وقد سبق وخدعوا اكثرين من امثالك ثم رجموا الى صوابهم ونالوا رضى النذات الشاهانية وتمعوا بخيراتها . وانا المطلوب ان تعرف الاشتراطات الاصليين الذين يحركون هذه الشرور وهم قليلون وأكثر الذين معهم مفتشوشون نظيرك . فانت الآن اذا دلتا على رؤساه هذه العصابة التي تسمى نفسها جمعية الاعداد والتقوى او دلتا على محل اجتماعها فقط فاما الضميين لك باطلاق سراحك . واحفظ هذه الحفظة بما فيها من الاوراق امامك واضمن لك مكافأة عظيمة بالرتب السنية والرواتب الباهظة ... » وما وصل الى هنا بل رفقه وتحنج يتضاغل لحظة ليرى ما يدور في اثنائهما من رامز فوجده ساكتا مطرقا فتخيل له قرب قوله فعاد الى الكلام فقال « واعلم انه لا يمكن ان يعجزنا الوصول الى سر هذه العصابة ومكانها من احد اعصابها اذ لا بد من ان يضعهم الجوع ويتبعوا من مناطحة الصخر فيرجعوا الى مراضة مولام ومولانا جلاله الادشاه امير المؤمنين كافل الذين سيقومون في باريس وجنيف ومصر وغيرهم ولا بد من ان يطال المكافأة الكبرى من يبلغ خبر هذه الجماعة وقع الغضب على الباقين . فكن انت ذلك المبلغ ونخن توافقك في اخراج من شئت من الاعضاء الذين تعتقد انهم مفتشوشون فظيرك .. يكنى ان تخربنا عن المكان الذي يجتمع فيه أولئك العصاة الخوارج »

وكان ناظم بك يسمع كلام صائب وعيناه تراعي رامزا وما يدور منه فلما طال سكوته استبشر . فلما فرغ صائب من كلامه وقع رامز بصره اليه وقال « ان عزة النفس والحرية الشخصية وشرف القول الفاظ لا يعني لها عندك . ولا تقدر ان تصورها فالكلام معك عبث .. انا لست مفرورا ولا رقاقا مفرورون واغاثة مفرورون انتم الذين تبيعون وطنكم وتسوقون اهله الى المطراب طمعاً بالمال . فإذا كان عندك كلام تقوله في غير هذا الموضوع زميته فائنة قل . والا فاقملوا بي ماتشارؤون »

فرجع صائب وهو يهز راسه استمراً وجاس على كرسيه وتناول ناظم بك الكلام

قائلًا « ان صائب اخلاصك النصع .. فكيف تختالبه بهذا الاسلوب ان قابة ما يطلب
منا ان ترسلك مقلولاً الى الاستانة مع هذه الاوراق واتعلم مصيرك . لكن صائب بك
اراد ان ينجيك ففرض عليك هذا الامر فاجبته بكلام قبيح تستوجب عليه الفحاشة »
قال « لاحاجة لي بتصحه فأقبل مائة .. »

قال « خذوه الى السجن »

فشي رايز قدم ثابتة وهو لايالي . وبعد انصرافه اتفق صائب وناظم بك على ارسال
تلغراف الى الماين بالقبض على احد اعضاء الجمعية واوراقه ويتألم عما يريدون ان
يفعلوا به

الفصل العشرون

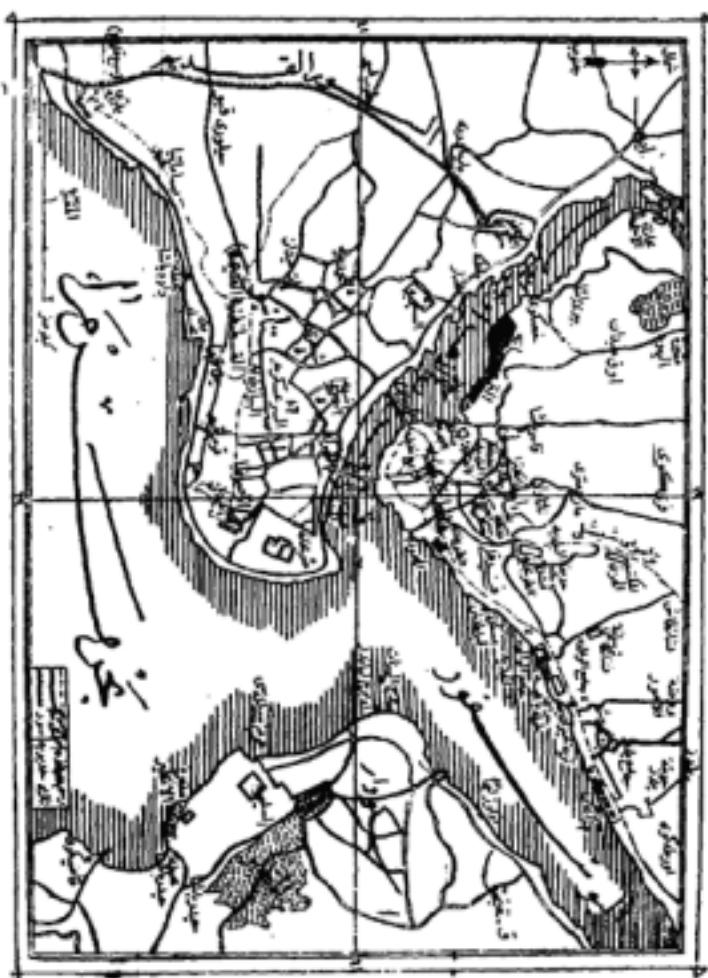
الاستانة

ترك اهل سلاييك وذهب الى الاستانة دار الخلافة ومصدر متابعي الاحرار
وسجع آمامهم . وتشرف على يلدز مدفن الافكار الحرة ومؤرة الجوايس ومسرح اهل
المطامع والاغراض
الاستانة هي الفلسطينية مدينة قسطنطين الكبير وكانت قبلة تسيير زراعة
قبها باسمه وجعلها سنة ٣٣٠ م كرسى الملك الروماني الشرقي او ملك الروم في
اسطلاح العرب . وقد خصها الله بوقوع طبيعي لأنشئ له على سطح هذه الكرة لاتها
موصلة بين القارتين ووسط بين البحرين تحيطها المضائق وتصونها البوانيس . وتقسم الى
الاستانة المدينة الكبرى والى الضواحي

والاستانة ثلاثة اقسام اثنا في اوروبا الثالث في اسيا كأنها تتجاذب للمعاقة فتحول
بينها المياه . او هي ثلاث مدن بربة تحصل بينها ثلاثة ابراج كاتري في الخارجطة . فالاقام
البرية هي استانبول في الجنوب وبك اوغلي او برا في الشمال وكلامها في اوروبا واشكودار
في الشرق وهي في اسيا يحصل بينها البوسفور في الشلال الشرقي ومرسا او الدردنة في
الجنوب وقرن النبع في الغرب الشمالي - تلك هي اقسامها اليوم أما في زمن الروم فلم
يكن عامرًا منها الا استانبول وهي البلد الذي فتحه العثمانيون وجعلوه مقر حكومتهم ولا
ترزال الى الان مقر رجال الدولة وفيها ابنة الحكومة والجوامع والمساجد والمدارس

وهي تعد إسلامية لأن أكثر سكانها من المسلمين . ولذلك فـأكثـر الآثار التـارـيخـية فيها . وكانت بـيرا عند الفتح شـاجـة يـقـيم فيها بعض الـاجـاب اذا زـلـوا الـاسـتـانـةـ ثم عـمرـتـ فـسـارـتـ بـلـدـاً أـكـثـرـ سـكـانـهـ مـنـ الـافـرـيقـ وـخـومـ . وـيـوـصـلـ بـيـنـ اـسـتـامـبـولـ وـبـيراـ جـسـرـ اـحـدـهـ جـسـرـ غـاطـهـ الـقـدـيمـ وـهـوـ اـفـرـيقـيـاـ الـبـوسـفـورـ وـتـائـيـهـاـ الجـسـرـ الـجـدـيدـ الـىـ غـربـهـ . اـمـاـ اـسـكـوـدـارـ فـانـهـ بـلـدـ اـسـلـامـيـ تـرـكـيـ يـتـفـاعـلـ بـهـ الـاـنـوـاـكـ خـيرـاـ لـاـتـهـمـ زـلـوهـ قـبـلـ الفـتـحـ وـمـنـهـ اـنـتـلـوـاـ اـلـىـ اوـرـباـ وـمـدـواـ سـلـطـانـهـمـ فـيـهـاـ .

خربيطة الائمة



وضواحي الاستانة اهمها واقع على شاطئي البحر وهي قسمان شمال وجنوبي والشمالي على ضفاف البوسفور والجنوبي في جنوبها مما يطول شرحة فندكرا اهمها وهو البوسفور (البوسفور) يتدفق من الاستانة شمالاً الى البحر الاسود على مسافة ٢٧ كيلو متراً فهو موصل بين البحر الاسود في الشمال وبخلي الدردنة في الجنوب وعرضه عند مدخله نحو كيلو متراً ونصف واسيق المسافات فيه عند رومني حصار واناطول حصار نحو ٥٠٠ متر واسعها عند يوك دره قان المسافة بين الشاطئين هناك ٣٥٠٠ متراً . وهو عبارة عن قرى متقاربة تتدفق على ضفاف البوسفور شرقاً وغرباً . يهمنا منها تماعلى شواطئه اوربا عملية بشكتاش التي فيها يلدز وقصورها وحدائقها

وفي جنوب الاستانة عدة قرى على شاطئي اوربا وراء سور استانبول والبعض الآخر على شاطئي اسيا وهناك خط آخر بحري تكتفي القرى من الجابرين في قرن الذهب وهو بعد من الاستانة نفسها . والاستانة كثيرة الشواطئ ، عليها الاغراض والأشجار وينتها الايبية . ثم ان هذه الشواطئ سلسلة تلال او هضاب ينها الاودية . حتى الاستانة نفسها فاتها مؤلفة من هضاب تكسوها التصوّر والجوانب والشوارع اذا اطل عليها القادر بالبحر رأى تلك الايبية تدرج صعوداً من الشاطئ الى قم الهضاب وتتخللها الحدائق . فاستانبول مثلاً مؤلفة من سبع هضاب متصلة العماره متصلة على شاطئي قرن الذهب لا تظهر جلياً الا للتأمل : او لها تشرف على الدردنة وعلىها الآن بناء الطوغانة والسراي القديمة (طوب قي) وجامع لاصوفيا وجامع السلطان احمد . وعلى المضيق الثانية جامع نوري عثمانية . وعلى الثالثة سراي السر العسكرية وجامع السلطان سليم او السليمانية . وعلى الرابعة جامع السلطان محمد الفاتح او الخديوية . وعلى الخامسة جامع السلطان سليم او السليمانية وهي الاروم المعروف بالفنار وفيه بطركتخانة الروم . وعلى السادسة ابنيه سراي لكتفور عند عquette بلاطة وبعدها وعلى السابعة جامع ايووب وغيره . (انظر الخارطة) وبين هذه الايبية البارزة القصور والتازل والأسواق والبازارين وغيرها ملائفة او متقاربة تظهر للتأثر بها من البحر كأنها معرض منتدى بعضه فوق بعض بشكل امنياتها

واعتبر ذلك بيرا عباء استانبول على قرن الذهب فاتها مؤلفة من تلال متقاربة . وهكذا ايضاً شفنا البوسفور وشواطئ الدردنة فاتها عبارة عن تلال متذبذبة على الشاطئ ، يختلف ملوك قاعده كل منها من نصف كيلومتر الى كيلومتر او اكثر او اقل . وعلوها من مئة متراً الى بعض مئات . اجلها على ضفاف البوسفور فانك ترى

القرية من قراها أشبه بعرض من الحائل والعمور تدرج بعضها وردا، بعض من الشاطئ، إلى قمة التل وبينها ساين بعضها من الشجر القديم كالستين والمتوبر والذلب ونحوها تقادم عهدها وأهلها الإنسان فتحت على الفطرة بلا تمهد ولا خليم فاشتبك اغصانها وتعافت أفنانها ثم جاء الإنسان فأبقي بينها قصوراً منفرقة أو يوحاً صافية من الخشب سقوها من القرميد... وإنما عدوا إلى الخشب دون الحجر ل أنه أقل كلفة وأبعد عن خطر الزلازل فوقوا بذلك في خطر الطريق

فالتوغل في البوسفور على الباخرة يرى أنه في بحيرة تحيط بها الحضاب المكسوة بالحائل والحدائق بينها الأبنية مختلفة الألوان والأشكال مما يشرح الصدر ويطلق عنان الجبال . واجمل ما نشاهده من مناظرها قبيل الغروب انكسار أشعة الشمس عن زجاج النوافذ من منازل الشاطئ ، الابيوي لامعة تبهر النظر كانها منكبة عن الماء ترسمت به تلك المنازل . ثم تمرّ فيخيل لك أن النار شبت في الترف حتى كاد لسان طيبها يتخلع من الشبابيك مما يستوقف النظر . فإذا غرب الشمس وخيم الظلام أو نسنت السماء على صفحات الماء . والجالس في أي منزل من منازل تلك القرى سواء كان على الشاطئ ، قرب الماء أو في سفح الحصن أو على قمة قله يشرف على الماء والبواخر تسبح فيها ويرى وراءها التلال المكسوة بالأشجار والأبنية ذلك شأن منفاف البوسفور وغيرها من شواطئ الاستانة وشواطيها . وإذا اوغلت في البر ورماها لا يقع نثارك إلا على واد خصيب أو قبة غضة أو جبل مكسو بالأشجار الكثيفة بينما ينابيع باردة مثل ينابيع لبنان غوري صافية كالزلال . وقد اقيمت هناك أماكن للزحة يقصدها الناس يقضون عندها الساعات وال أيام كما يفضل المصطافون بإستان في خروجهم إلى الينابيع للشرب وكمين الرماة وعيون حتها ونبع العسل ونبع الابن وغيرها وإن كانت هذه أشد رودة من ينابيع الاستانة الا ان هذه أجمل منظراً وأكثر خضراء لأن معظمها يجري في جبال تكتوها أشجار هائلة الكبر قد تعافت أغصانها وتكتفت أوراقها حتى تحيط أشعة الشمس لكنها لا تضيق الصدر لأنها عالية ودين جنوعها منفرجات . وقد تعاظم جرمها لقدم عهدها ويدرس ان تكون للأنان يد في اصلاحها . وهذه الينابيع كثيرة وبعضها في شاطئي ، الآنطول والبعن الآخر في جهات الرومي . وشهر المياه في الرومي نبع الكاغد خانة في آخر قرن الذهب وهو منتهي جميل مساحته عشرات من الافدان مكسوة بالأشجار والاعشاب وغيري فيها المياه فقصدها الناس زرارات ووحداناً في فصل الربيع . وجرجر نبع كثير الشبه بوجهه

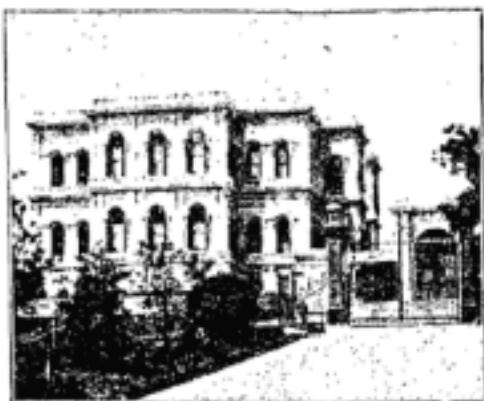
وبرودته يعين الرماة بلستان . وبالقرب منه تقع خونكار (خونكار سو) وهو اعلى كثيراً من جرجر لا يمكن الصعود اليه الا بالركبات ويصعب تسلقه على الدواب فالطبيعة وهب الاستانة هبات يمن مناخها في مشارق الارض ومنغارها ولكن الانان لم يحسن استخدام تلك الهمة - في حين ترى منازل الاستانة متراصة بمعنها وراء بعض تشرف على البحر وعلى ما جاورها من المنازل ترى شوارع المدينة ودورها تكاد تكون خراباً لتنقلق بلاطها وقلة العناية في اسلامتها فضلاً عن ضيقها . كانت حكم العصر الماضي لم يكن يومهم الا ما يخصهم او ينول الى مناقفهم الشخصية لا بل ترى منازلهم على اتم نظام وحداتهم على اجمل ترتيب يتمهدون اشجارها بالمراس على احسن هندام ويرصفون الطرق بين المساكن بالحصى الملونة على شكل الفسيفاء . وكانوا ينفقون الملايين على بناء منازلهم ومتزهاتهم ويفتنون بالفروش على الاماكن العمومية

الفصل الحادي والعشرون

يلدر

اما وقد عرفت الاستانة ق تعال مي الى يلدز وان كان ذهاباً اليها في زمن روايتها خطراً . فاني اطير بك الى عالم التصور لاصف تلك السراي التي جرت اكتذ وقائع هذه الرواية فيها . وهي وان سوها بالسراي او القصر ليست قصرأ واحداً فيها كما ينادر الى النفع وانما هي عدة قصور قد لا يرى في احدى مخاتمه ما يراه في قصر طوله يتجه او الجبال الذي يراه في قصر جرانان . واما هي هضبة كبيرة واقمة في بشكطاش وراء محطة اورته كوي فوق قصر جرانان تكتنفها الاودية والشلال وقد انشئت فيها حدائق والبساتين والبحيرات وبدأت فيها تصور تقاولات قدرأ وجيلاً وهي عديدة ومتفرقة بين المائل والذابات على غير نظام . وليس في وصف هذه التصور كثير مما يدعش القاريء ولكن العبرة بما هناك من انجذبات الغربة التي تفتقر اليها في اثناء حوارث روايتها واليك تفصيل ذلك :

ان البقعة التي اقاموا فيها قصور يلدز واسعة نزد سعنها على مساحة بد كير اكتذها قبابات كثيفة الاشجار ينبعها حدائق غناه وبمحيرات تغري فيها الفوارب وتقسم بجعلها الى قسمين كبارين (١) الحديقة الداخلية (٢) الحديقة الخارجية . وليلدرز باب



يلهزم من الباب الحاربي الكبير الى باب المدينة الداخلية

خارجي كبير تدخله الارکات الى بقعة فيها طريقة احد هنالك الى اليسار يؤدي الى باب المدينة الداخلية والآخر الى المين يؤدي الى طريق المدينة الخارجية وفي كل من الحديقتين قصور وابنية سنذكر ما يهمنا منها

المدينة الداخلية ومسارح الطير

فالحديقة الداخلية عبارة عن بستان كبير محاط بسور عال اشبه بأسوار الحصون منه بالمدائق يفصله عن المدينة الخارجية . يدخل الى الحديقة الداخلية من باب كبير مذهب هو باب السرای المؤدي الى القصور الداخلية . وهي قصر الماين الصغير مسكن السلطان الخلوع وقصر جيت وقصر مالقة وقصر جهان نما ومعرض الحيوان . فيه القصور متقاربة كل منها يستطرق الى الحديقة الداخلية . وفي الحديقة المذكورة بمحيرات تجري فيها الفوارب . ومسارح لاعبها هي عشرات من الغرف المتقدمة مصنوعة من الخشب للزخرف ملاصقة لجدار الحديقة الشرقي . وطا واجهات من الزجاج وشبائك من الاسلاك وبعض الغرف كلها من الزجاج . يسرح فيها الحمام كل نوع في غرفة او بعض غرف متقاربة وينها الحمام الايض والاسود والمرقط وذات العرف العاوبل او الذيل العريض على اختلاف الاجناس . وطا في مسارحها مجالس تأوي اليها ويتيض او تقص فيها على ابدع نظام . ويل مسارح الحمام غرف لترية الازهار الشتوية التي يضر بها البرد مصنوعة من الزجاج المضبوط الماء الدافئ . ويل ذلك اقسام فيها بنات آوى او بعض الكلاب الضخمة . وفي بعض جوانب هذه الحديقة اسطبلات فيها مواقف للخيل في كل موقف اسم الجواد الذي كان يقف فيه

وام القصور الداخلية في يلدز قصر جهان نما وهو صغير لكنه في غاية الاعمال يشرف على البوسفور اشراقاً وربما . وقصر جيت سمي بذلك لانه يمتد بالاتجاه اليه خارج باب الحديقة الداخلية لكنه يبعد منها لام من جهة ايبيها . وقد يدخل اليه من باب سري فيه . ومعرض للحيوانات فيه انواع العابير وغيرها مختطفة . وقصر چادر وقصر مالطة وقصر مراسيم في الحديقة الخارجية وهو اجملها كلها وانتمها وفيه من التحف ما يعجز القلم عن وصفه . وقصر المابين الكبير في تلك الحديقة ايضاً . وهناك جامع تلك القصور اسمه الجامع الجيدى . ثم المابين الصغير او مسكن عبد الجيد وهو اهمها كلها بالاظهار الى ما ينبع فيه وهو اول قصر يستقبله الداخل من باب الحديقة الداخلية الى يمينه وليس هو بالقصر الفخم . يرق اليه على بعض درجات بسيطة ومدخله بباب اعتيادي يؤدي الى فسحة صغيرة ومنها الى المعاياز والغرف على غير نظام وفيها غرف المائدة والاستقبال والكتابية وغيرها وسيأتي وصفها في عرض الكلام

— — — — —

الفصل الثاني والعشرون

يلدز بعد نصف الليل

نام اهل الاستانة واستقرت في احلامهم - والاحلام يقطنه كأية يكابد فيها الناس شفاء تاماً في علم آخر . وكانت الليلة مقمرة وقد وقعت اشعة القمر على الاستانة وضواحيها فانعكست عن مياه البوسفور فاصبح سطحه كالصفيحة اليضاء لا يخترقه قارب ولا تixer في سفينته خوفاً من غضب رب يلدز لام امن الناس انت لا يمكروا ماء ليل ولا ارسلهم الى قاعده جتنا هادمة . حتى الرعد فاتها اطاعته ولم تهب في تلك الليلة فظل سطح البوسفور هادئاً لا تتلاطم فيه امواج ولا يتحرك فيه ساكن . او لم يله شارك اهل الاستانة في رقادهم فانه كان رقيقاً بهم وقد عاصر اجيالاً منهم فام يتر به جيل اتعس حالاً من هذا الجيل - حتى في اقدم ازمنة الاستبداد . شاهد اليونان والروماني والفرس والعرب والاتراك واخترقه داريوس وقططرين ومحمد النانع وغيرهم من كبار الرجال . وقطعهم الصليبيون في طريقهم الى المحراب المقدس فام يرى بين هؤلاء ولا غيرهم من اشبع جوفه من الجثث كافل صاحب الاستانة ورب يلدز في هذا العصر

نام اهل الاستامة بين كهمل يحرق الارم اسفاً على ما ذهب من شبابه عبئاً في معالجة باب الرزق فلم يجد له فيه مدخلأ . وسبعين يدعوه به خلة ان يقتضي له من القوم الظاللين . وارملة اغرق بعلها في مياه البوسفور خيبة الجوايس . ويتامي يتضورون جوعاً ولا ذنب لهم الا انهم ولدوا في عصر طاغية لا ينام عن الاذى متابهم المخاوف حتى في الاحلام فيتصور لهم عبد الحميد كالتيين فاغرها فاء او كالتعنان ينساب بين اسرتهم ينثت سمه في جراحهم

حتى اهل يلدز - وهي الجنة باغرابها وقصورها ومباهتها والدار عن عشقى في اكافها من اعداء الانسانية الذين تعمض عيونهم بالرقاد ولا تنام افكارهم عن فسب الحبائل . يغنى النهار بنوره وينهل الليل بدبحوره وتبديل مظاهر الوجود ولا يتغير ما في ظوسهم . اذا خيم الظلم سكت الطبيعة وتخللت هيبتها وانسع مجال الطير والأشعثت ببرقة النور عن وجه الحقيقة فيرى العقل من مساوى* الفتن ما لا يراه في رابعة النهار - كالسكون اذا استولى على المكان اسمعك اختفت الا소ارات . فالليل بدبحوره يكشف لاهل الارض سباتهم ومحسم اعماهم . اذا نظروا الى السماء راوا عجومها كالميون الحديقة بهم او كالضايقة تراقب اعماهم — وكان اليوم يجرد الفوس من الاجداد فتنقابل وتنعاب لا فرق فيها بين الملك والمصلون والظالم والمظلوم كأنها في حضرة الديان العظيم — ان الظلمة تكشف لاهل الظلم موقاتهم فيرونها كبيرة في ذلك الكوت المهيوب كان الطبيعة سامة غضباً من اعماهم

ذلك موقف يربك فضل الحيوان على الانان . ان الحيوان لا يؤذى اخاه الا اذا جاء فيتازعان على الفريسة فاذا شبعا تآلفا وتكلاما . والانسان كلما زاد شيئاً زاد طمعاً وكلما زاد نروة زاد جشعماً . اذا شبع قتل اخاه الجائع وقد يقتل المثلث ليقال انه قاتل . ويستبعد الا لوف يسمى نفسه الحكم . فيموت هو من التخمة واخوه بعجاشه يموت من الجوع

انظر الى اهل يلدز فقد ناموا ملء جفونهم بعد ان تآمروا وتحجروا وتخادعوا وتوطأوا على خراب بيت او تعذيب نفس او ابتزاز مال . ولو اطهانت نفوسهم وهدأت ضمائرهم لم يركوا الى الاسوار العالية والابواب المؤصدة يضعون عليها الحفظة سبعة آلاف رجل من الابنان والشراككة

هناك الحدايق الفناء والقصور ازهاء . يعيش من فضلات طعامها الوف من المترفين وقد ايسح دخوطاً لالمدييات تسرح في ساحتها والطيور تدف في اكافها

ولم يتعموا الاقاعي من الاسباب بين اغراضها - حق الحشرات والديدان وادى انواع الحيوان وجدت فيها مثيلاً او مسرحاً . واتما وسدت ابوابها في وجه طلاب الرحة من بني الانسان

انظر الى تلك القصور وما اتفق فيها من الا، وال وما اهرق في سيل بني اسرها وزخرفها من الدماء وقد اقيم على ابوابها وفي طرقاتها وحول اسوارها الوف من الرجال الاشداء بالساحنهم وافراهم وعيونهم كالذهب وقلوبهم كارجم . وقد جردوا السيف واغدووا الفجائر وباعوا الآخرة بالدنيا حلية رجل واحد لاتفاق العين عليه البعد اختراق الابواب وتساق الاسوار . يحسبه غير المأذن مقتعاً باشهي ، لاذ الحياة وهو عروم ما يتنع به احقر رعایاه مع عخاؤفهم ومظالمهم . ائمهم ينامون بلا حراس و اذا خافوا نزحوا وبالاد الله واسعة وهو لا ينتفع زروحاً . لاته يخاف على حياته من كل احد حتى من اعوانه وحراسه ومن اولاده ونسائه . يخاف من طعامه وشرابه . يخاف من فرائه ووساده لا يستقر به ضجع ولا يهدأ له بال . يقفي ليه ساهرآ حذرآ واذا غلبه النعاس توسد كرسيآ وكان نومه متقطعاً يتقلب على اشواك المخاوف

الفصل الثالث والعشرون

عبد الحميد في ليلة

كذلك كان عبد الحميد سلطان البرين وخلاق البرين الذي دانت له ارقب . وقبض على الحياة والموت . ويزعم المقلدون انه اذا غضب غضبت العناصر وان رضي ايسنت الطبيعة . تخبيه ازياح وتطبيع الامطار . لم يتぬه ذلك بعد ما ارتكبه من الشطط في تلك السيادة فتجاوز بها الحد فقتلواه الخوف والقلق . تلك كانت حاله في ذلك الابل ولو اوتت المعجزة حق ليست قبع الاخفاء ودخلت ذلك القصر الفخم في غفلة من الهراس واقتلت على المائين الصغير مسكنه الطاص في الساعة الثالثة بعد نصف الليل لعلمت انت اهل تلك القصور قد استغرقوافي نومهم حق الهراس الموكلين بالشهر والحندر . حتى هؤلاء غلب عليهم النعاس فقاموا ولم يبق احد ساهرآ هناك ولا الحشرات - حتى الانججار اطبقت ازهارها تلقن الراحة . الا ماحب ذلك القصر وسيده الذي اسدت الابواب لوقايتها واقيم الجلد طليته . فنه ما زال

٢٥٣- حب الماء - حب الماء لا ينبع من عصبي مراج
الماء - في الماء تذوق الماء فتح يدها يفتح الماء - ينبع الماء
من الماء - الماء من الماء لا يذهب الماء من الماء - ينبع الماء
من الماء - الماء من الماء لا يذهب الماء من الماء - ينبع الماء
من الماء - الماء من الماء لا يذهب الماء من الماء - ينبع الماء



4. 15 3. 20 4. 15

الفصل الرابع والعشرون

البيغاء

وبعد انت جال في الحديقة هنيهة تحول الى كشك من الخشب بجانب البحيرة وجلس على مقعد فوق وسادة من الحرير وأشار الى الفهوجي باني ان يطبخ له القهوة واستخرج التقرير من جيبه وعاد الى تلاوته . ثم جاءه الفهوجي بالقهوة فتناولها وهو يعمل فكرة في ما قرأه . وإذا هو يسمى ضحكاً عرف من طوله واطلاقه انه ضحك ابه أحد نور الدين أفندي وهو يومئذ في السابعة من عمره — ومن يجسر على الضحك في حضرة الباشا سواه ؟ فالتفت نحو الصوت فرأى الغلام يلاعب بيغاه جيلة الالون بين يدي مربية ويضحكت لرفرفة جناحيها وصاحتها

ولم تكن المربية عالة بوجود السلطان هناك فاسترسلت في ملاعبة الغلام . ومالبثت ان سمعت تحنحة السلطان فاجفلت وهلت بالفرار . ثم سمعته يتاديها فتمامت واحتاجت بالغلام فقاده بيده الى الكشك تلقس الاعتنار عن جمارتها بوجوده معها . فافت الغلام من يدها واسرع بدالة الطفل على ابيه ورمى نفسه عليه . فاستقبله ابوه وقبله واراد ان يخفف ما به بمحادثته فاقعده على حجره وسأله عن سبب قدومه الى الحديقة في تلك الساعة

قال الغلام «جئت لاكل سديقتي البيغاء» وضحكت ضحكة الطفل وأشار الى البيغاء في يد المربية . وكانت لا تزال واقفة في الخارج وقلبه يختلج خوفاً من غضب السلطان للا يظن بها سوء فيتها . وقد عرفت كثيراً من امثال هذه الفظائع في يلدز يقتل فيها الرجل او المرأة بطلق ناري من يد عبد الحميد بغير دليل ان جاء بدسيسة . فطللت واقفة في الخارج وودت لو ان الارض تبتلعها وتختفيها . ولو لا علها ان عبد الحميد يكون في مثل ذلك الوقت متزوياً في مكتبه يقرأ التقارير مارافت الغلام الى هناك

فلم اشار الغلام الى البيغاء الثفت ابوه الى المربية واومأ اليها ان تعيد الطير الى قفصه . وكان قفصه معلقاً بشجرة من الداب قريبة من الكشك . فما صدق انه امرها بذلك حتى مشت الى احد البيتاين فاغاثها في ادخال البيغاء الى القفص وازوت في بعض جوانب الحديقة

واخذ عبد الحميد في مداعبة ابيه فقال له «تحب البيغاء كثيراً يا نور الدين ؟»

قال «نعم يا بابا احبها»

فقال السلطان «أكثراً منه؟»

فأهتم الفلام بذلك السؤال رغم طفوبيه لأن تعظيم شخص عبد الحميد كان قاعدة متبرعة يتدارسها الكبار والمسغار . ولعله آنس في عيني إيهما بعثه على الاهتمام . فقال « عندي اقدم .. لا ينبعي أن غرب أحداً في الدنيا أكثر من الذات الشاهانية » فادرك عبد الحميد أن مثل هذه العبارة لا يقوها هذا الفلام من عند نفسه فقال له « ومن علمك ذلك ؟ »

نفاق الفلام ان يكون قد اخطأ فيما يخوض في وجهه مع التزدد ولم يدر بباله عجيب فضحك ابوه تشجيعاً له على الكلام فقال الفلام «عانتي ايام قادين ج ...» ففي الغضب في وجه عبد الحميد عند سماح ذلك الاسم وتم قائلاً «انها اختال في استرضائي .. ياما من خاشة .. وتنظر هذه الحيلة تعللي علي؟» ثم تجاءه وعاد الى مداعبة ابنته فاستخرج من جيب عباءة سبحة من الكهرباء دفعها اليه وجعل يلابعها بها ويداعبه والفلام يضحك وابوه يتضاحك ويتلاهي فتتحرك الفلام حرفة او قلت التقرير من حجر الساطان فتطاول ليلتقطه فأشطرل لذلك ان ينهض من مقعده فتحول وجهه نحو البقاء في القفص فرأى ان يعود الى مداعبة ابنته بهما قال «الانعطيفي وهذه السبحة واعطيك هذه السبحة الجليلة؟»

قال « وما الذي كنت تفعله؟ »

فان د و م اندی سیت سیمہ

قال «كنت ساهراً على راحته لاتي شعرت بما اصابه من الارق وياحداً لاوستطع

٢١

فتحقق عبد الجيد صدق قوله وكان حن الفاظ به وبرى سواد جلده بياضاً

وكثيراً ما جعله عيناً على حرسه الخاص الموكل بحراسته لاته كان يسمى «القطن» .
 قال بسطت نفس عبد الحميد وانق عليه ثم قال «ادع سر خفية» (رئيس الجوايس)
 وقل له ليقابلني في الماءين ويتناول الفطور معى
 قال تجيبة الاحتزام والصرف . واحد عبد الحميد يهم بالهوض وإذا هو يسمع
 صوتاً مثلاً صوتة تماماً ينادي «نادر آغا نادر آغا» وفيه نفحة الاستيada مثله فأجلد وما
 ليث ان رأى نادر آغا عائد أو يكاد يتغير بياقة لطوفها فقال عبد الحميد «من دعاك؟»
 قال «لم يدعني مولاي؟ أني سمعت امرءاً بذلك؟»
 وكان نور الدين أقدس وأفلاطاً بازاوه فقصص البيضاء وقد اغرب في الفتح . فقال له
 أبوه « وما يضحكك؟ من نادى نادر آغا؟»
 فشار الغلام الى البيقاء وقال « هذه» قال ذلك وهو يتوقع أن يبدو سرور
 الاعجباب في سخنة ايه لانقان البيقاء التقليد ولكنه رأى عكس ذلك فبان الغضب في
 عيني عبد الحميد وصاح «آخر جوا هذا الطير من قصري او اقتلوه فاني لا اطيق ان
 اسمع صوتاً يأس وينهى غير صوتي» قال ذلك بلحن الحق والاستيada حق سمعه
 كل من في الحديقة من الحاشية والنماء والبياس وتولاهم الرعب من شرم ذلك التهار
 الذي ظهر غضب السلطان في اوله . وبادر البستانى فالخذ القفص وطار به وتبمه
 البرنس احد نور الدين يتسلل اليه ان يستيق ذلك الطير ولم يهد بمحير ان يخاطبه
 اياه بشأنه

الفصل الخامس والعشرون

السر خفية

اما عبد الحميد فشي الى قصره ونظر الى القهوجي نظرة فرم منها انه يريد التدخين
 فقدم له سيكاراً وبادر الى اشعاله . فثار وهو يدخن وجعل طريقة في دهليز يستطرق
 الى باب القصر الرئيسي حيث يقف الحرس الالباني بالأسلحة . فرّ بين سقوفهم وهم
 يحيونه التجبة العسكرية وهو يرميهم خلة ويلاحظ حركاتهم ويدرك في جيشه تحت العباءة
 على المسدس كلا لا يكون هناك من يتصدق له فيسبقه هو الى القتل بالرصاص — وكان من اشهر
 الناس باطلاقه — حق وصل الباب . وكان نادر آغا واقفاً في استقراره هناك ففتح له الباب

فدخل يطلب غرفة البنين . وسر بطيقه إليها في غرفة الملوحة بالقارير السرية وفيها الوف منها جمعت بتوالي السنين . فلما وصل إلى غرفة البنين ساعده قادر آغا في تبديل ثيابه فلبس الأسطنبولينا السوداء كالمادة وسأل قادر إنما إذا كان استدعى السر خفية

قال «نعم أقدم هو آثر حب الامر ومه بريد هذا الصباح»

فلا سمع لفظ البريد تذكر التقرير الذي كان معه فتفقده فإذا هو على مائة هناك . وبعد أن فرغ من البنين توجه إلى غرفة المائة وهي قاعة واسعة في ارضها يساط واحد فيه رسوم جميلة تشبه رسوماً متلها في السوق بلوانها وأشكالها . وفوق البساط مائة كبيرة تسع حولها بضعة وعشرين رجلاً . وفي صدر الغرفة موقد التندقية من الورسلين الآيسن المنبع عليه حرف H مرسوماً بالذهب . وتحيه الموقف (وسموه في اصطلاحهم سوبا) في الحائط المقابل له ساعة كبيرة موضوعة على كوندول متنقنة . ولا تخوا اغارة من غرف ذلك القصر من ساعة وترموتر وبارومتر لأن عبد الحميد كان شديد الوعم بهذه المقياس

والي كل من الجنانين خزانة من الخشب الثمين بشكل البو فيه ولكن أحداهما إذا فتح ظهرت أنها بيانو من أعلى طرز . وهي هدية من أمير اطورو الامان الصديقة عبد الحميد

دخل غرفة المائة والتقرير في يده فوضعه على طرف المائة وكان الطعام قد أعد على الطرف الآخر منها وهو بسيط يقتصر على البن والبيض وبعض المربيات والفاكهة . ونظر إلى الساعة فرأى وقت عجي «السر خفية» (رئيس الجوايس) لم يحن بعد وقدم نحو خزانة البيانو التي تقدم ذكرها وبادر قادر آغا إلى فتحها لعله أن سيده يحب الضرب على تلك الآلة أحياناً وخصوصاً إذا كان قلقاً الخاطر

جلس عبد الحميد إلى البيانو والبيانو في يده فوضعه على منصة هناك واخذ يضرب لحناً تمود الارياح إليه ونادر آغا وقف ينتظر أمره . ثم شعر عبد الحميد بعنطرات في الفسحة الفاصلة بين تلك الغرفة وباب القصر . فأمسك عن الضرب والتفت فاسرع نادر آغا إلى الباب ليستفهم عن القادم . ثم عاد وقال «إن السر خفية جاء ومه حقيقة البريد وضعها على الطاولة في الفسحة

ثم دخل السر خفية وهو كيل قصير القامة عليه اسطنبولينا قالى التجبة إلى الأرض ووقف بالباب فتبسم عبد الحميد وأشار إليه أن يدخل فدخل باحترام وهو

يتعلم ويتأنب على جاري عادتهم
خلس عبد الحميد الى المائدة وأشار اليه ان يجلس تجاهه واس نادر آغا باللصراف
وان يقف في مكانه خادم المائدة اسم ابكم تمود ان يختنه اذا كان في جلسة سرية لا يريد
ان يسمع الخصم شيئا منها . فاق ذلك الخادم الاسم لتقديم ما يلزم المائدة والسلطان
يتحاطه بما يحتاج اليه بالإشارة

اما السر خفية قدم وهو يعلم ان دعوه تلك المائدة شرف عظيم قل من يطاله من
الاخصاء وشعر بذلك انه عبد الحميد يكرمه الى هنا الحمد الا لامراهم . فلر يتناولون من
ال الطعام الا قليلاً وذلك من قبل التأدب في مثل تلك الحال . وبالغ السلطان في اكرامه
قدم له سيكارا من علبة بمحابيه فيما شربوه الخاس . فتناول السيكار وقبه ولم يدخله
فتح السلطان الحديث وقد بدلت سنته كاذب لم يكن به قلق - ومن مزايا عبد الحميد
افتخاره الغريب على اخفاء ما به والظهور بالحالة التي يريد بها وقال « كم ينشرح صدرى
ب مجاله الامان ، من اعواقي »

فقال « انتاعيد مولانا امير المؤمنين والامة فرض علينا »
فتناول فوجان البن وادناء من فيه وهو يقول « نعم ولكن الامانة قليلون وانت
واحد منهم » . وشرق شرقة من النجحان واعده الى الصحن وقال « بل انت موضع
تفتي وعليك المول في استطلاع دسائس الخارج من رعيته . وهم كثيرون »
فقال « ان اكتر وعانيا امير المؤمنين صادقون في عبوديتم واغاثة الخائنون شرفة
قلبي قادها قلادة التربية الى الدسائس »

فقطع عبد الحميد كلامه قائلاً « انهم كثيرون على ما يظهر .. » وأشار بيده الى
التقرير الذي كان يطالعه
تناول السر خفية التقرير وهو يقول « ارى مولاي البادشاه ايدمه قد اعاد
دسائس او تلك الاغرار اهتماما .. »

قال « هل قرأته ؟ » وأشار الى التقرير

قال « نعم اقدم »

قال « لم تقرأ ما فيه عن الجماعة التي انشأوها في دمشق .. ان العرب .. من
العرب .. قد ذهب احسان اليهم عينا .. »

قال « لم يذهب الاحسان عينا يا سيدى . فقد جاء في هذا التقرير ان بعض الاغرار
من اهل دمشق اخذوا في انشاء جمعية جديدة .. ولكن اوشك قليلون لainبعي اولاي

ان يمتد باعلامكم فكم انشأوا من الجميات السرية وكم كتبوا ونشروا وقد غالب توفيق
جلالة السلطان على كيدهم لأن الله معه ..

فقال « الا ترى انهم اخترعوا في جمياتهم خطة جديدة »

قال « اظن جلالة الباشائر يعني دخول الضباط فيها »

فكادت تظهر اليقنة في وجه عبد الحميد عند ذكر الضباط ولكن تجاهله وقال « الا
يظن دخول الضباط في هذه الجماعة يعلم امرها ؟

قال « ان العصدة في الجند على المسارك وهم السواد الاعظم ونحن على قمة انهم
يتقاتلون في الدفع عن امير المؤمنين عز الله على الارض »

فأثر ذلك الاطراء في نفس عبد الحميد وقال « اذا اعمل ان الخونة لا يقوون على
شيء طلاقنا طلاقية من اغراضهم .. ولكن لا اكتفى ما يجول في خاطري لاني عظيم
الثقة بامانتك وسداقتك .. قال ذلك وتناول تقاحة واخذ في تشثيرها وأشار اليه ان
يأخذ تقاحة لفته وقال بصوت خافت « لا اكتفى اهتمامي باس العرب وخصوصاً اهل
الشام لا اعني انهم يقدرون على شيء .. ولكنهم اصحاب افلام وفيهم همه وطم يد في اوروبا
بما يعرفونه من الاسننة الاقرانية ... وهل نسيت ما كانوا يكتبونه في الصحف الاوروبية
من المقالات العمبارية .. » وسكت ينتظر ما يتقوله السر خفية

فقال « لم انس ما كان من ضوضائهم في اوروبا ولكنهم غلبوا على امرهم وسلكوا
ما يبتدرء السلطان قاتلاً » سكتوا .. صحيح .. ولكن حركتهم الاخيرة تختلف
عن تلك .. انهم الآن على ما يظير في هنا التحرر داخلون مدخلًا جديداً ليس فيه
ضوضاء بل هم عازمون على انشاء جماعة يعبرون اليها ضباط الجند وهم مسلمون فيديعونهم
باسم الامة العربية ويزعمون انهم مادة الاسلام واسمه ورعا حذثهم انفسهم باسترجاع
بعدهم .. وقد يستطيعون خداع بعض الضباط جنداً بهذه الجماعة وادا فسروا ذلك ... »
وسكت ووضع قطعة من التقاحة في فيه

فتسمى السر خفية ببساط الاستخفاف وقال « اذا اذن لي مولاي الباشائر قلت ما
يخطر لي وهو ما تدعوني اليه عبوديتي .. »

فاستبشر السلطان بشيء جديد يسمعه .. وان لم يفته شيء يخطر ببال محاذاته الفرمد
دهائه وسرعة خاطره وحذره فاطم الاصناد وقال « قل ما يخطر لك »

فقال « هب يا مولاي ان العرب في الشام عزموا على انشاء جماعة سرية يدخلون
فيها ضباط الجيش .. لفرض ذلك ممكناً لهم وانهم تجسروا لاسمح الله وتکار عددهم

ففي الامكان ارجاعهم او اسكتا عليهم كاسكتا غيرهم قبلهم بالمال او بالاستئثار او بقوه الجند او على يد بعض المخلصين للمرش العثماني من عبيد مولانا السلطان لاتهم في داخلية الملك لا يرجون نصرة اعدائنا دول اوربا .. « وبلغ ريقه وبان الاهتمام في وجهه كان يكتم شيئاً منها »

الفصل السادس والعشرون

البريد

وكان عبد الحميد يسمع كلامه وهو يتشاءل بقفات من اب الحجز يعركه بين الايام والسبابية فلما لاحظ فيه الاهتمام بعد ان ذكر دول اوربا ادرك ما يشير اليه فقاومه قائلاً « فهمت مصادرك صدقتك ان العرب لا ينبغي ان تخافهم ... هل حدث شيء لا جديده في سلانيك ؟ ار انتقياه هذه المدينة لا يرken اليهم لترفهم من اعدائنا » وبان الغضب في وجهه ولم يخلو عن الوقوف والمتى نحو الباب فوقت السرخية ومشى في اتجاه وقد ادرك انه يطلب قصيدة الاستقبال التي جرت العادة ان يقابل فيها كبار موظفه كالسرخنية والباشكاب والسر عسكر وغيرهم ليطلع على ماجاه به البريد على عادته من الحاجة في استطلاع الاخبار. فقال السلطان « اقصمن على ما تعلم من امر تلك المدينة الججهية .. هل اذاك شيء ينافيها ؟ »

قال : ارجو ان تجد شيئاً في هذا البريد

فدخلوا القصيدة وهي كالغرفة الصغيرة في وسطها طاولة مستديرة عليها غطاء من الختم المزركش حوطاً، قعد وكراسي وليس على جدرانها الا اطار معلق في صدرها وقد كتب في وسطه بخط جميل هذه النقرة في الاعلى « انا قتحنا لك فتحاً مبيناً » وتحتها « امن يارسول الله »

فلما دخل السلطان القصيدة جلس على المقدم وحقيقة البريد على الطاولة بين يديه وأشار الى السرخنية ان يُقعد قعده على كرسي وبادر الى فض الحقيقة واخرج منها اوراقاً واغلفة وظروفاً والسلطان يساعد في قراءة العنوان . فافرد السرخنية ظرفاً كثيراً عليه ختم « سلانيك » فتناوله السلطان وهو يقول « هذا من تاظم بك اني اتوسم في هذا الشاب خدمة صادقة .. الا تعرفه ؟ »

قال «كيف لا ؟ إنه بالحقيقة من العبيد الخاضعين للسدة الشاهانية عرف ذلك من بعض رجالى الذين يمثلون إلى تلك المدينة »

فقال السلطان وهو ي Finch ذلك الطرف « مازا قال لك رسولك ؟ »

قال « أكذب لي صدق خدمة تأطيم ياك ما يكابده في البحث عن أعضاء تلك الجماعة » قلما قال السرخفيه ذلك تغير وجه السلطان وابرق عيناه غصباً وقال « كانت تلك الجماعة الملعونة التي تسمى نفسها جمعية الأخداد والتزق في باريس ضعيفة ولو لم يشتموا الدمام ععود وأولاده لاعنى أرها »

فقال السرخفيه « قد اعنى أرها فعلاً يا ولادي من مدة طوية . ولكن بالمعنى اتهم اعدوا الكرة واستأنعوا السعي .. واعمل في كتاب تأطيم ياك ما يكتشف الحقيقة » وكان السلطان وهو يسمع كلام جليمه يطلب تقرير تأطيم ياك وقد وقف بسره على فقرة أخذ يقرأها وبيه قراءتها والسرخفيه ساكت ينتظر ما يقوله السلطان . فإذا به قد طرح التقرير إليه وهو يقول « قد تتحقق ذلك ... أنت مجتهد في البحث .. وقد صدقتك غيريوك .. خذ أقرأ »

فتداول السرخفيه التقرير وقرأ فيه ما معناه « إن الجماعة الملعونة التي رفعت إلى اعتبار مولانا البادشاه خبرها على سبيل الظن قد تتحقق في الآن أنها اشكت فعلًا وانتظم في سلوكها كثيرون من شباب الجيش وغيرهم وأواسع في كشف أمرها والاطلاع على مكان اجتماعها .. ولكنني علمت من بعض الخبرين أن مثل هذه الجماعة تشكل في الشام بين الضباط أبناء العرب وأن بعضهم جاء سلاييك الاشتراك في هذه الجريمة وطالع آنهم أكثروا بجمعية سلاييك ووخلوا بكل قوتهم فيها وغذوا النثار عن دمشق . فإذا وفتنا إلى كشفها قطعنا دابر المفسدين .. ولكنني أؤكّد لولادي الإدشان ملحاً الخلافة القدس ان عبده ساهر على مصلحة الدولة وخاتمة النزالت الشاهانية ولا البث ان أكتشف مكانه الخائن . واظهر ألارض من وجودهم »

الفصل السابع والعشرون

الدستور

وكان السر خفية يقرأ والسلطان ينشغل بالسيكار يتنله بين أذنه ويدخن بسرعة وبلا نظام فادرك جليه قلنه فقا « صدق ناظم بك ان سلطانك اعظم خطراً من سائر مدنى الملوك وقد عرفت ذلك من قبل كما عرضت لولي الباشا . ولذلك فقد ارسلت رجالاً من جواسيسك منه بضعة اسابيع عهدت اليه البحث والتقصي عن جمعية جديدة تشكلت في سلانيةك من ضباط الجيش .. عرفت ذلك من بعض مخبري في دمشق .. فقد كتب الي بعضهم ان بعض المغوروين سافر من دمشق الى سلانيةك للمخابرات بهذا الشأن فإذا كانوا قد جموا كيدهم كلهم في سلانيةك فيرتاح بالآمن من جهة الشام وتوجه اهتماماً لما رأدهم هنا »

فقال السلطان « هل انت على تقة من جاسوسك الذي ارساله الى سلانيةك ؟ » قال «نعم يا ولادي انه شاب ذكي اسمه صائب بك من اشد الخدمة الامتهان غيره على الجانب الملوكي المطربوني . وحياته منه بالامس انه اواشك ان يخرج في كشف خيانة الخائنين » فبز عبد الحميد راسه وقد تولاه الحق وقال « ويل للخائنين . ناكمري الجليل .. حق الجنود دفاعي وانا اذخر وسماً في التوسيع عليهم .. التي سأنتقم منهم شر انتقام » فقرب السر خفية من غضب السلطان وقال « ان الجنود الثالثعانية كما قاتلوا ولادي لا يزالون على ولائه المطربوني . حتى القبض عليهم موالي الانف آقابلين انفراهم او تلك الحواجز على نجد الطاعة .. وهي يزعون انهم يجاهدون في سبيل الدستور .. » فاجمل السلطان من ذكر الدستور وصاح « الدستور : لماذا يطلبونه ؟ »

قال « انهم مغوروون بولولي .. أنا اعلم ان امير المؤمنين من ارغب الناس في منحه لزعيمه مقرئي فيهم الاستعداد له ولكن مقى كان اهل الشرق يحكمون بالدستور ؟ وقد تكرم جلاله الباشا فتحهم ايد قام يقاتلا .. ولا عرفوا كيف يستخدمونه » فسر عبد الحميد بهذا التخلص وان لم يستخداه قاله ولكنه جازاه وقال « قد اعادناكم الدستور فقدسوه .. انهم لا يصلحون له

فقال السر خفية « على ان الدستور يا ولادي يخالف الشرع الشريف .. اليس جلاله السلطان خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم وينبغى ان يقتدي به ؟ هل كانت

الخلفاء الراشدون يحكمون بالدستور ؟ آنه من بعد النصارى اهل اوربا . ولو كان ملوكهم خلافة دينية لم يسلوا بالدستور ولا علوا به .. ولكن بعض التغورون اللاتم من دعيا جلالة السلطان فسدت طباعهم بمعاهدة الافراج فراروا ان يقدّوم بالحكومة كما قدّوم باللباس والعلم والسرير والمقاسة . فاغفلوا قواعد الدين الحنيف وعمدوا اوساس التي سل الله عليه وسلم ويريدون ان يعمدوا اوساس خليفة نظر جروا عليه و ..
قطع السلطان كلامه قائلاً « والخوارج الملاعين ! ما الذي حملهم على الخيانة .. وما هو العمل الذي أوجب خروجهم ؟ هم يطلبون الناس ويطلبون بالتربيات المالية وقد ثبت في مرضائهم .. من ابن آتهم بالناس التي يطلبونها ؟ .. امن الاخلاص انهم اذا جاءوا خرجوا على مولاهم ؟ ..

فأخذ السرخفية يخفف عنه قائلاً « ان مساميهم متعدد على رؤوسهم ولا اظنهم الا نادمين عما قليل . وما عندنا اول من ترجعوا فيها سارقين .. لم يكن فيهم احد واقحة من مساد الدافتاني واصاروه وقد نادموه ورجعوا فأكرم جلالة السلطان متواهم واغدق عليهم النعم . ولعلم مليجاً اخلاقياً يزيد الله ملوكه قدبات في الاحسان اليهم والاسفاء الى صراخهم . ولو انه اهلهم واستعمل القسوة في عقابهم لكانوا عبرة لسواهم .. ولكنه عاملهم بالرفق والاحسان فطمعوا وغروا وقد قرب الوقت الذي يدركون به شططاهم في انكار حق العبودية »

فابتدره السلطان قائلاً « بل آن الوقت للاقتصاص منهم والفتث بهم » وسفق فدخل احد الحجاب فقال له « ادع البشكاب »
 تخرج ولبس السلطان ساكتاً وهو يرتعد من الضغب والسرخفية توب من رؤيته في تلك الحال . وبعد قليل دخل الحاجب يستاذن للباشكاب فاذن له

فدخل وحياناً ووقف قابعاً اليه ان يقعد فقصد ف قال له « اكتب الى ناظم بك قومندان سلانيك ان يستعمل الدقة في البحث عن الملوثة الذين يزعمون انهم يغبون في سيل ارادتي الشاهانية بتأليف الجميات السرية . قل له ان يستعمل الشدة بأية وسيلة كانت يقتضي العبودية وليدار الى ايفاء الوظيفة الموكولة اليه بما يليق بالشرف العسكري رغبة في صيانة الدولة من الادران الضارة .. » . ف قال البشكاب « سمعاً ومانعة اذنم .. وقد امس مولانا فكتب عبده الى ناظم بك بهذا المعنى بالامس ..
 قطع كلامه قائلاً « اكتب ايضاً وقل له ان يغيره اليف وقطع الرقب ويقتل وفتث .. » قال ذلك وهو يتنفس . وترجح من مقعده قهقش البشكاب والسرخفية

واستاذنا في الانصراف فاذن بالاشكاب واستبقى السر خفية
وبعد خروج الاشکاب ظل السلطان مطرقاً دقيقاً وربما هذا روعه ثم خلط
السر خفية قائلاً «كيف ترى تخيناً الاشکاب؟» قال «اراء مختلفاً يا مولاي»
فتنهى تهداً طويلاً فهم منه السر خفية الف معنى وهو يعلم سوء ظن عبد الحميد في
كل واحد فقال «وذهب انه غير مخاص فاني لا اغفل عن كشف اسراره وقد خصمت
له جاسوساً من اتباه رجاله لاستطلاع حقيقته»
قال «اما وقد فرمي مرادي فدقي .. اي لا اتفق باحد سواك .. عفراهم ..»
واحسن السر خفية انه قد آن انصرافه فاستاذن وخرج

مختصر ..

الفصل الثامن والعشرون

الخلوة

فلا خلاً للسلطان بنفسه مشى مشى الغضب حتى دخل غرفة الكتابة وفيها كرسى
من الزجاج وأمامها طاولة من الزجاج استعملهما للجلوس عليهم اذا تكهرب الجلوس وخف
وقوع الصوابع لأن الزجاج لا يصل الكهربائية . جلس على الكرسى لحظة بغير تمدد
ثم نهض وتحول نحو منضدة عليها اوراق في عصفورة فذكر التقرير الذي اتاه من الشام
فهرع الى غرفة المائدة واحتذى واصفاه الى الوف التقارير التي ذكرهاها في خزائن
الدهليز . وكانه تعب من شدة القلق فتوسد مقعداً من المقاعد التي ينام عليها واسترق في
الافكار ثم جعل يتأرجح نفسه قائلاً :

«رباً لكم من خوة .. لا تخذلون عبد الحميد الا بالمال ... حتى السر خفية قائم لا
يمخلص لي وانا هو يداهنتي ونبأة في المال .. وانا اخادعه واغريه والآخرين ليطلعني على
اسرارهم واغربهم «ليطلعوني على سره ... لا اخاف غدره ولا وهم بالقرب مني لاني املا
قلوبهم بالوعود وجوبي لهم بالاموال واجعل بعضهم جواسيس على البعض الآخر واقيم
السراري عيوناً عليهم اجمعين .. ان عبد الحميد ادعى منكم جيئاً — فن شكلت فيه
قتلته سرّاً او جهراً — واما اخاف البعدين عن الذين لا سبيل الى تخسيس اعمالهم
.. ولتكن قاهرهم .. وهذا الملك لا يخرج من يدي ولن يخرج الا الى بعض ابني
.. أنا السلطان عبد الحميد .. أنا وحدني الامر الناهي .. أنا وحدني ملك الرقاب »

وسلك هنئية تشاغل فيها بمحطران رفاس الساعة ينته ويسرة وهو ينظر اليه ويراجع في ذاكرته ما دار فيه وبين السرخنيه . حتى اذا وصل الى ما دار بينهما يثأن العرب عاد الى مناجاة قائلًا « ان السرخنيه قال من الهيئة العرب في نظرني وظني صدقه ولكنني خدمته بسكتي لثلاثة اربه مقدار خوفي من ابناء العرب . هل انسى ما رماني به قاتل والكواكب وارسان وغيرهم وما اشاؤه من الصحف في مصر وبالربيع وجنبيه . آه منهم اني اخافهم لا لهم اكثراً عدداً في ملوكني من سائر العناصر وفيهم كتاب في اكثراً اللذات الافرغنية وهم يكتبون في جرائد اوربا ويحفرون بدول اوربا ولا يسهل علينا اسكنتهم .. هذا شأن المسلمين منهم اتهم لا يقلون اهليه في نظرني عن الارمن الملاعين على ان هؤلاء قد سحقتهم وقتلهم وسيطلي عليهم سبل . واما العرب فالسيجيون منهم تخفيهم الدول . اما المسلمين فهم اصل الاسلام ومادته ولا يزالون حق الساعة يتكلون علينا حق الخلاقة لاننا غير عرب .. فكيف لا عندي بأهمهم ؟ .. ولكن هؤلاء المتعاقدين يقولون ويتوهون قاتل عليهم واظهر اني سحقهم .. ولو لا ذلك ما كان اغتناني عن تقرير عزت وابي الهدى وغيره من المشاعن الذين يتوهون اتهم يخدعنيه وما يخدعون الا اغفهم »

وتحضن ومه يده الى علبة السيكار اشتعل سكاراً وعاد الى المناجاة قائلًا « هم يحبون اتهم يختالون في التقرب مني ليكتبوا المال والجلاء وانا لا لغنى لي عنهم لتوارزن الاحزاب والعناصر - ولكنني مع ذلك اخافهم ولا اثق بهم .. »

ثم خطر له ان يطلب الرقاد في سريره فقضى ومشى نحو غرفة النوم فر بالحجرة التي تستطرق الى دار الطرف من باب كلها مرآة وهم يفتحه فوق ظهره على صوره فيه فوق يتأمل سحته ويصلح من شأنه . وكان شديد الرغبة بظهور الشاب يستخدم في ذلك الحضارة والتزوج والتخطيط . وكان لرغبته في الحياة يذكر على نفسه الاقتراب من الشيخوخة ويلفظ بكل خضون في وجهه عنذر أو لا يترى انه مارشينا وهو ينظر في المرآة نحو نظره الى سورة زيتية معاقة بحباب ذلك الباب تبتل قارباً عند الشاطئ . قد وقف فيه نحو عشرة رجال عليهم البدلة سوداء وقبعات سوداء يقرب شكلها بما يلبس الرهبان اليهوديون . وفي يدي كل منهم آلة موسيقية من الناي او العود او المزمار يضربون ويعزفون وهم في حال عربدة او سكر . وبين أيديهم على الشاطئ نحو عشر نساء عاريات برقن او يتخالعن ما يدخل بالادب . وهي سورة اهداما الى عبد الحميد بعض الملقبين يبتل فيها مددحت ورجاله الاحرار

تغليلاً يحقر دعوامه يريد أنهم إنما يتظاهرون بطلب الحرية والدستور تجاهها على العقول وهم بالحقيقة يريدون انتزاع عن الآداب الدينية والآدلة بالصاري في خلائهم وسکرهم !

فـلما وقع نظره على تلك الصورة حرق اسنانه وهر رأسه وتفاحكه متهزئاً وقال كأنه يخاطب مدحت « مدحت ؟ تطلب الدستور ؟ ما هو الدستور ؟ اردت ان تقيد ارادتي ليسمع في الدولة صوت غير صوتي ؟ لا . لا يتبيني ان يسمع غير هذا الصوت هكذا كان عني وابي وهكذا يتبيني ان اكون انا . غرّك ما فترت عليه انت واعوانك حق خلعم عمي رغبة في الدستور .. الدستور ؟ ما الدستور ؟ أنا الدستور وارادي هي الشريعة وقد نلت جزاء غرورك . مت واسمع موتاً .. آه لو استطع ان ابتك نوبة . وهكذا سأفضل من يقولون قوله ويسعون سعيك .. سأسحبهم سحقاً واقتلهم قيلاً . » قال ذلك ودخل دار الحرير بطلب الرقاد للراحة وهو ينقض من الفيظ وقد توسيط النهار ولم يهمه الطعام لفترط ماحل به من هياج الموافق المتعاربة بين الفضب والخوف والرجاء واليأس والأسقام

الفصل التاسع والعشرون

نام البادشاه

ولم يدخل تلك الدار حتى سكن ما كان فيها من حركة الجواري والمحبيان . وما عمن انت قيل « جاء البادشاه » حتى استولى الصوت على الناطقين والجلود على المتحركين لاسيما وهو قلباً يدخل تلك الدار في مثل تلك اللحظة لاتها ساعة قراءة التقارير في اللابين الصغير بالغرفة التي تقدم ذكرها

واول من خف لاستبهاله نادر آغا وقف له باحترام والق السلام بالثني اللازم وتوسم الاشتراك والفضب في عيني السلطان ولم يكن بغلوته شيء من احواله لما علمت من تقريره ودخوله في كل امر يوقعه من نفس عبد الحميد . ولعله اكثراً تقدّمه في من سائر المحظيين به في المأذين وغيره

ووقف نادر آغا ينتظر اشارة البادشاه الى ما يطلبه او يختاره من غرف الجواري فاذا هو قد سار تواً الى غرفة الرقاد فاسرع نادر آغا لخدمته في ما قد يحتاج اليه هناك

فاماً إليه ان يتركه وحده فانصرف وقد ادرك مقدار ما في نفس عبد الحميد من الناق
توسى عبد الحميد سريره في غرفة اقفل بابها من الداخل بيده واخراج المسدس
من جيئه ووضعه تحت الوسادة كأنه في الصحراء على موعد من هجوم اهل الادارية عليه :
ورغم ما يظهره من الثقة باعوانه ورجاله فانه يخاف كلاً منهم وقد عُسكن في خاطره ان
الاسنان خلق شريراً . وان اول اغراضه في هذه الحياة ان ينثال اخوانه ويسليم ملهم
بأمة وسيلة كانت

وقد نأى عبد الحميد من صفة حذراً من الفتن ولما تولى السلطة توالت عليه المخالفات غير مثاثله بهذه من خلعه ثم موته ومقتله عني بغيره حسن الشيركي ثم خلع أخيه مراد ، فرأى حياة السلطان ليست أكثـر سـيـاة من حـيـاة العـنـة أو هي أكـثـر تـرـحـباً لـخـطـرـهـاـ . فـزـادـ تـعـلـقاًـ بـالـبـقاءـ وـاشـتـدـ خـوـقـهـ عـلـىـ فـسـهـ حقـ باـلـ اـلـ دـرـجـةـ المـوسـ اوـ الجـنـونـ اـلـخـاصـ فـاصـبـحـ لـايـسـعـ حـدـيـثـاًـ اوـ يـرـىـ مـشـهـداًـ اوـ يـقـولـ قـوـلاًـ اوـ يـسـدـلـ عـلـاـلاـ الاـ وـهـوـ يـنـظـرـ مـنـ وـرـاءـ ذـلـكـ الـعـلـاقـهـ بـيـاهـهـ . وـاـشـطـرـ الـمـحـاـفـظـهـ عـلـىـ غـنـوهـهـ وـاسـتـدـادـهـ فيـ اـولـ سـلـطـتـهـ اـنـ يـسـيـهـ اـلـىـ بـعـضـ الـاحـرارـ الـابـادـ اوـ القـتـلـ بـسـائـسـ اـشـركـ فـيـهاـ بـعـضـ خـاصـتـهـ فـاصـبـحـ يـخـافـ قـتـمـ اـهـلـ التـقـتـلـ وـيـخـافـ دـسـائـسـ اوـلـاـكـ اـخـاصـ اوـ لـعـلـهـ يـقـيـسـ شـعـورـ النـاسـ عـلـىـ شـعـورـهـ فـيـصـورـاهـ لـوـ تـوـسـمـ فـقـعـاـ بـقـتـلـ بـعـضـ اـصـدـاقـاهـ اوـ عـيـهـ لـاـ يـرـىـ بـاسـاـ مـنـ قـتـلـهـ . فـاصـبـحـ يـخـافـ اـنـ يـسـتـولـ اـعـدـاءـ الـكـثـيـرـوـنـ عـلـىـ قـلـبـ بـعـضـ خـاصـتـهـ فـيـغـرـيـهـ بـالـلـالـ اوـ غـيـرـهـ لـيـقـتـلـهـ . وـلـهـكـ فـرـوـ لـاـيـشـ بـاـحـدـ اوـ يـسـتـلـهـ كـمـ يـسـتـامـ الصـدـيقـ لـصـدـيقـهـ اوـ الـابـنـ لـاـيـهـ كـمـ يـفـعـلـ اـكـثـرـ النـاسـ . لـاـهـ يـرـىـ كـلـ شـيـءـ عـدـواـهـ وـلـمـ يـلـقـ رـاسـهـ عـلـىـ الوـسـادـهـ حـتـىـ تـصـورـ مـاـسـ بـهـ فـيـ ذـلـكـ الـيـومـ مـنـ الـظـوارـيـهـ ، وـاـخـذـ يـفـكـرـ فـيـ مـاعـاهـ اـنـ يـطـرـاـ فـيـ الـفـدـ بـشـأـنـ ذـلـكـ الـجـمـيـعـ وـيـقـدـرـ الـوـجـوـهـ الـيـعنـيـهـ اـنـ قـتـمـ وـيـدـرـ حـيـلةـ يـتـلـاقـاهـ بـهـ . وـمـعـ كـثـرـهـ هـوـاجـهـ غـلـبـ عـلـىـ النـوـمـ لـفـرـطـ التـعبـ فـنـمـ وـاـهـلـ الـقـصـرـ جـيـماـ كـاـلـهـ فـيـ بـيـتـ خـوـقـاـ مـنـ اـنـ يـشـوـشـواـ عـلـيـهـ رـفـادـهـ فـيـضـبـ وـالـعيـاذـ بـالـهـ مـنـ غـصـبـهـ

نام والغرفة مغلقة ونادر افأجالس ببابها ينتظر ساعة اليقظة ليتوم بالخدمة الالزمة ولكي يعلم اهل القصر بوجود الادشاه هناك فلا يخطرون ولا يتذكرون . وفي الساعة الرابعة (بعد الظهر) سمع نادر افأ تمنحة وحركة فعلم ان السلطان استيقظ فوراً . وما عمت ان فتح الباب واطل عبد الحميد فثاروا الى نادر افأ ان يدخل فدخل فقبل له « سمعت شيئاً في هذا المعلين »

فاستغرب نادر آغا قوله وأكده له أنه لم يعر أحداً ولم يكن عبد الحميد سمع شيئاً لكنه قال ذلك من سوء ظنه على سبيل الاستطلاع . ثم أشار إليه أن يأمر رئيس الاسطبل بإعداد الفرس الآيسفن لاته عازم على الركوب للتجول في الحديقة فاسرع نادر وبلغ الأمر لتخلو الطرق من المارة ، وبعد قليل نزل السلطان حتى ركب الفرس وسار بين يديه أئمّان من ياورانه وما مقوضان ان يقتلا كل من يجد أنه في الطريق



جود عبد الحميد في انتظاره أمام باب القصر

طاف الحديقة الصغرى والكبرى على هذه الصورة وهو يتلألئ ذات العين وذات اليسار فلاح له أن يلهم زيارة المعامل . ومنها ين تلك القصور معمل للترميم يسمونه تعبير خانه وأخر لصنع البروسلين وترسانة لصناعة الأسلحة من كل نوع حتى المدافع والبنادق . وزار أيضاً ماحنالك من المتاحف الصناعية والملائج المختلفة ثم تحول إلى الاسطبلات للتفرج بمناظر الأفراس على اختلاف إشكاطا حق انتهي إلى إبراج الحمام في الحديقة الصغرى التي تقدم ذكرها

وكان ينزل عند كل معامل أو متحف او اسطبل ويلهم بمحركات الصناع وغيرهم وهم يبذلون جهدهم في عرض ما فتقروا به من ضروب الصناعة وهو يظهر انه بهم بكل ما يقولونه ولكنه في الحقيقة مشتغل بهواجه

الفصل الثالثون

كاغذ خانه امامي

فلا وصل الحديقة الصغرى دخل ذلك الكشك فنذكر ما كان من حاله فيه في صباح ذلك اليوم . ووقع نظره وهو داخل هناك على شيء اذ كره بالضحك (المهرج) وهم يسمونه في اسطلاحهم « كاغذ خانه امامي » فاشار الى نادر اما ان يأتيه به وبعد قليل جاء المضحك واسمه علي افendi وهو كهل منظره يضحك الشكلي وكان قصير القامة كبير الرأس عظيم الانف وقد لاث حول راسه عمامه كبيرة وليس جبة طولية تزيد منظره غرابة . جاء وهو يستعيد بالله من تلك الدعوة لأن السلطان كان يبالغ في تعذيبه الفاسد للضحك . سالما اقبل على السلطان وقف مطرقاً بعد ان قبل الارض فاشارة السلطان الى نادر اغا اشاره فهمها فامر بعض الوقوف من الخدم ان يطروا وجه المضحك بالسوداد ففعلوا وهو ييدي اشارات الرضا والاعجاب . وهل يستطيع غير ذلك ؟

فاما تم الطلاء وقف علي افendi والقي التحية ففتح السلطان من منظره وأشار الى نادر اغا اشاره اخري قبض على ذلك المسكين وحمله بين يديه والقاء في البحيرة فكان لوقوعه فيها طيشيش قهقهه له السلطان ولكن الناظر في ملامح وجهه يعلم انه يتکلف ذلك عنوة . فجعل علي افendi يخوض الماء وقد وقعت عمانته عن رأسه وعادت جبته على سطح الماء وهو يصبح ويستوي والسلطان يضحك . ثم امر باخر اجه فاخر جوه والماء يقطر من ارداه وقد اعدوا له ثياباً اخري في مكان اخر ففني قتيل وعاد وهو يتظاهر بالسرور والمجون ويهىء على افعه يضرره ضرباً متوايلاً فاغرب السلطان في الضحك وابتدره قائلاً « ما الذي اصابك ؟ لماذا تضرب اتفك ؟ » فقال « اضرر به لانه اصل هذا البلاء علي » . انا اعلم ان شكل هذا الانف هو السبب في ما افاصبه من العذاب » .

فادرك السلطان انه يعني الاشارة الى الارمن . وهم كبار الاتوف وقد اشتروا بعبداوة السلطان ولكنهم تجاهل وقال « هل نقطع لك هذا الانف ؟ » فابتسم المضحك وقال « اذا كان الياد شاه بريده ان يزيدني جلاً فليفعل »

فضحك السلطان وقال « تادرأغا اقطع اغه »

فاظهر تادر اغا انه يهم بذلك فصاح الفضحك « امان اقندم ، امان ! »
فشار بالعفو عنه وهو يضحك وقال « قد عفوتا الان عن اهلك واما بعد الان
فلا نغفو »

فقال « الامر لولي النعم .. اذا اراد ان يطلعني اريا اريا فهو صاحب الامر ..
ولكن لا يخلو كبر الايف من فضيحة قان بين اصحابه من يتلقاني في رضى جلالة الباشاه
وفيه من يعشقه ويعن الموت تحت قدميه »

فيبدلت سخنة السلطان من الجعون الى الجد واما الى الحضور ان ينصرفوا الا
الذاء في خاتمة امامي . فنجعوا جميعاً وظلل المضحك وهو يحسب تلك الخلوة الف حساب
فاما انفرد السلطان به او ماما اليه ان يقعد بين يديه فقدم على العتبة جنوة اواطريق
وابت ينتظر ما يكون . فلقت السلطان بيضة ويسرة ولا تأكيد خلو الحديقة من
الناس قال « كاغد خانة امامي ! »

قال « حاضر اقندم »

قال « اترع عنك الجعون وخطبني »

فاظهر الجد والاحترام وقال « اني عبد ولائي الباشاه طوع ارادته »

قال « انت تعلم متزلك عندي »

قال « ياسيدي .. ان فهم امير المؤمنين قد غرفني وانا اخاف عبيده له »

قال « عفارم .. هذا عهدي بك .. ولا شئ انك تعرف اعتمادي عليك »

فقبل الارض وقال « فهم اقندم .. وهذا شرف لي »

قال « هل عندك شيء جديد ترقه الي ؟ — يظن تادر وغيره من كبار الخصيان
وسائر اهل القصر اتي اقتربتك هذه الملائكة .. ومن اجلها ادخلتكم قصري وجماعتك
تدعي .. » وسكت ينتظر ما يغقوله المضحك

فسري عن علي اقندمي فقال « انا افتر بيهذه الثقة واوكل لولي الباشاه اني
ساهر على راحتة واقت بالرساد ل بكل من يخرب عن واجب العبودية .. لأن الناس
انحراف لا يعروفون حقوق العمة »

قال « كيف تجد تادر آغا ؟ »

قطاطعاً المضحك راسه وقال « انه فهم العبد الامين »

قال « وغيره »

قال « لم الحظ شيئاً جديداً هذين اليومين . . . »

قال « ا Finch .. لا انفك الا فهمت مرادي .. »

قال « يا مولاي ان قادر آغا ساهر على هذه التصور ومن فيها . . . »

قال السلطان « والقادرين ج ؟ »

فاظهر على اخذى الاهتمام والاحترام وقال « من اين لي ان اراها ؟ »

قال « لا تخف .. قل الحقيقة انك تراها وادا ذلت لادر آغا ان يعن القوارين

يجهونك وكان يبني ان تعرف غرضي من ذلك ، إيه ! »

فاجفل المضحك من هذا التهديد وقال « نعم يا سيدى .. آلا فهمت الغرض لكن

هيبة الادشاه امير المؤمنين بعنتى على التكم »

فضحك عبد الحميد حركة انتصارية وقال « طيب .. ثانياً تعرف عن القادرين ج .

قل لا تخف »

قال « اتها يا سيدى في حالة يرثى لها .. لا تكتف عن البكاء »

فاستغرب السلطان قوله وقال « اني لم اره ابكى فقط »

قال « لا تبكي في حضرة امير المؤمنين لان رؤته تذهب عنها كل حزن ..

مسكينة ! »

فاقطب السلطان حاجيه وقال « وتفول مسكتة ؟ »

قال « اذا اباح لي مولاي ان اقول ما اعرفه وامتنى قلت »

قال « قل لا باس عليك »

قال « ان هذه القادرين بستة الحظ »

فقططأول عبد الحميد بعنته وحلق يبنيه وقال « تكون في قصرى وتعدمن نسأل

وتروم اتها بستة الحظ »

قال « التس حلم جلالة السلطان . ان مو .. خطها مبني على وجودها في هذا

القصر .. »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « لاتها تسهلك في حب جلالة الادشاه وهو يعاملها بالجلفاء »

فاطرق السلطان لحظة شاغل فيها باصلاح حيته وعيشه البر اقامت يكاد الشرد

يتغایر منها ثم تهض بثأة فاجفل المضحك وتهض وخف ان يكون قد اغضب السلطان

في ماقاله ووقف متادياً وركبتاه تصلكان . ومشي السلطان نحو قصره وذلت المسکن

في حالة يرثى لها . لكن السلطان بعد انت تجاوزه بعض خطوات التفت اليه وايسم
عجيناً لا حل به من الرعب نصف اشطرابه

الفصل الحادي والثلاثون

والدة سلطانة

دخل عبد الحميد الى الماين الصغير من بابه السري وهو يتمتع بذيل جبهة وازاح
طربوش عن جبهته كانه ياقس تفريح كبرته من قبة رأسه . فلما صار في غرفة المكتب
نفس الصعداء واستلقى على الكرسي وهو مستترق في الافكار وتناول سيكراً اشهله
وجعل يدخن يعنف ويتنقل بينظره على ما في الغرفة من المزانين والكراسي يغير
انتباه . ثم اخذ ينادي نفسه قائلاً « اذا اعلم انها تجنبني وتنفاني في مرثاني .. ولكن
كيف احبها وهي ستكون سبب بالائي »

ثم همض عن الكرسي ومشى نحو منصة فتح درجها واستخرج ورقة من محفظة
هناك واخذ يقرأها ويعيد قراءتها ثم عاد الى الكرسي والورقة في يده وهو يقول
« كيف احبها وقد ظهر في هذا المدل انها اذا جاءتني منها غلام سيكون شوماً عليء ...
لابنفي ان اقرب منها .. ان الحب شيء وللملك شيء آخر ... واخاف مع ذلك ان تكون
قد خدعتني » واعادة الورقة الى المحفظة ومشى الى دار الحريم فلقي نادر آغا فقل له
« اين والدة سلطانة ؟ »

قال « هي في غرفتها يا مولاي »

فشي وهو يقول « احب ان اراها »

فاسرع نادر آغا حتى بلغها ورغبة السلطان في مقابلتها فتأهبت لاستقباله . لكنها
ابتدرت نادر آغا بالسوال قائلاً « ما هو لون ثوبه اليوم لا بس منه » ، لان العادة
الجاورية في آداب بلاط عبد الحميد ان يلبس ناوأه عند مقابلته ثوباً لونه من لون ثوبه
فقال نادر آغا « انه بنوبه الاسود الرسمي لا حاجة الى لون معين . و لم تكن هي
والدة السلطان حقيقة لكنها تقوم مقامها في ادارة دور الحريم وكانت قبل اخرين دار
اوسته اي خازنة دور القوارين . فلما ماتت والدة السلطان تولت تلك الادارة واليها
يرجع تدبير نساء السلطان وسراريه . وكانت كبيرة السن ولكن الجمال ما زال يغلي في

وجهها وفيها ذكرة ونبأة . فلما علمت بقدوم السلطان خفت لاستقباله ورجحت به
وعليها ثوب يغطى بها الاساور وعلى صدرها الحلى الثمينة . ولحظت في وجهه
السلطان الفلق ولكنها تعرف متزلا عنده فابتسمت له وقالت « هل من امر اقضيه
ليلة الداشاء ؟ »

جلس على المقهى وأشار إليها أن تقدّم وقال «جئتكم بأمر يهمي»

فقالت «روحى فداء مولاي»

قال «كيف القادين هم؟»

فغير وجه المرأة عند سماع ذلك الاسم وقالت والبفتة ظاهرة في عينها
«أنا في خبر»

قال « لا أسألك عن حفتها ... ولكن هل قامت حاضرتها بما عليها »

فادركت غرضه وتلعم ل أنها عن الجواب لكنها غالب نفسها وقالت « أنها لا تقبل عن رعاتها »

قال « بل اسألتك عن شيء آخر .. هل خبرت أمرها من عهد قرب؟ »
 فلم يعد في إمكانها العبر على التجاهل فقال « أخبرتني الحاضنة أنها ربما تكون حاملة »

فاحفل السلطان وتهبض، ولم يحالفك ان سام « حامل ؟ »

فهضت احتراماً له وقالت «هكذا اظن»

قال « ليست الحلة بالظن .. كيف تغفل الحاشية عن واجباتها . أنها إذا كانت كافية في التنب بفع على تلك الحاشية الملونة .. ليس من واجباتها ان تمنع الحل وقد شرحتها ان تمنعه يابي طرفة كانت ؟ »

فخيرت والدة سلطانة يامرها وارادت ان تخفى غضب السلطان فنالت « لاما ينجب مولاي من حلها اليست هي من نسائه وقد حصل لها الحظ ان تصبح مادرّاً »

فاملك السلطان غيظه وتجدد وعاد الى القعود واشار الى والده سلطاناً انت تعمد وقال « قد جعلتها قادريّاً مكافأة على خدمة قاتلت بها » ولهذا وجدد وقل بصوت مخفق « نعم ان القاعدة كـ تعلمين ان الجارية بعد ان تكون كوزده » عدد دخوله فصرنا ترثني الى رتبة « اميرال » فإذا حللت هنا صارت قادريّاً ولكن جـ . هذه جعلتها في هذه الرتبة لانها تجسدت لي اخبار احد الملونة في حوادث الارمن وكانت في رتب من امراء فاقعفتها اليه في جملة الجواري اللواتي اهدى بهن الى البلاشوات يومئذ ليكُنْ « لي

عيوناً عليهم وقد كشفوا لي خيانات كثيرة، ولكن ج هذه كلتها مهمة فوق الماءة فمررت نفساً بالخطر على وعد مني أنها إذا أفلحت جعلتها قاديناً وإن لم تلد مني وقد أفلحت فانجزتْ وعدِي »

فلا رأيه يخاطبها بهذه المخاشرت على مباحثه في الموضوع فقال « فإذا كنت قد انسنت عليها بهذه الرتبة فما المانع من حملها؟ »

قال « وما الفائدة إذاً من كثرة المخاصن اللوائي بتحولن اتخاذ الوسائل لمنع الحل؟ وقد أوصيتك على المخصوص بهذه »

فخذلَكَرَتْ والدة سلطانة انه كان قد خصص ج بالوهابية وهي اوصت الحافظة بما يلزم لكنها اخفقت فقالت « ولكن لا تقطع الوسائل دائمًا ... ان في عصمة امير المؤمنين الان اربع قوادين هن ناؤه الشرعيات و١٤ قاديناً مثل ج واكثرهن يحملن فلا باس اذا حملت هذه ايضاً »

قال « لا ... هذه لا يعنيني ان تلد فإذاً كنت تأكلتِ حلبها فيجب ان تموت »

وكانت والدة سلطانة تحب القادرين المذكورة جل جلالها وذكراها ولأنها تحب السلطان الى حد الكاف - وذلك نادر في قصور الملوك فاستثنى شديد عيد الحيد في أمرها فأخذت تحفظ الامر عليه فقالت « في قصر مولاي السلطان ٣٠٠ جارية هي بان واحدة منهن حملت فإذاً كنا نفعل؟ »

ـ ـ ـ ـ ـ

الفصل الثاني والثلاثون

التبيل

فنهض ولم يعد ينالك عن النسب وقال « لا تخاذليني ان هذه المرأة اما ان يذهب حلبها او تموت وقد قات لك ذلك وكفى » قال هذا وتحول نحو المابين الصغير وقد ازفت الساعة السادسة وآن وقت العشاء ولم يكن قد تقدى فوجد المائدة مهبة وبشاشة يحيط وفي تحضير طعامه على يسانته مشقة كبرى لشدة حرقه على حياته وسوء ظنه بن حوله . ومن الاحتياطات التي اخذتها لوقاية نفسه انه ابعد الطاهي الذي يصنع له الطعام عن كل علاقة بأهل الدولة وامرها ان يقيم في حجرة مضبوطة يابها من الحديد على يسار باب القصر المسمى بباب السلطنة « سلطنة قبومي » فيصنع الطعام

تحت مرأة الكلارجي باشي وكان عبد الحميد ثقة شديدة فيه . ففي نصيحة الطعام حمله إلى غرفة المائدة اثنان من الخدم بلباس أسود على مائدة اثنين يعتقدون مثقل وطوله ٨٠ سنتيمتراً عليه كأس من السجاد يرسم السلطان ييشي وراها خادم يحمل طبقاً مفتوحاً يكأسه أسود وقد حضر امراهه وخت عليه الكلارجي باشي . ويأتي بعد ذلك خادم يحمل وعاء الخبز ثم خمس يحمل زجاجة الماء مختومة أيضاً . يسير هذا (الورد) من المطبخ إلى غرفة المائدة بالاحترام فإذا ق testimهم أحد في الشاء الطريق المغنى احتراماً لصاحب الطعام . حتى إذا بلغوا المائدة دخل الكلارجي باشي الطعام وفتش الاختام عنه بين يدي السلطان وقدم له الاطباق وعليها الالوان فيتناول ما شاء

فلا يصل عبد الحميد غرفة المائدة وجد الطعام قد وصل بطبقاته المختومة كما تقدم فنفتها وكل وحد ، على جاري المادة وهو غارق في بخار المواعين . وكان النصر قد انبر كله كالعادة فانتقل إلى غرفة المطالعة واخذ في مطالعة التقارير وهي كثيرة لكنه أصبح بعد امس سلانية وجمعتها لايئمه غير الوقوف على خبرها . قترك التقارير ولم يشعر بالتعاس لأنه نام في آذان النهار فراراً ان يابو يحضور التبليل في مرسمه الخاص

وكان له في يلدز مرسخ التبليل وعرض الصور الفرقة وساعي الفونوغراف مما يقضى به الوقت لا يحضره الا خاصته قبعت الى الجلوس انه عازم على الحضور في المرسخ تلك الليلة فاستعدوا التبليل وأشار ابنه يبني ان يحضره من خاصته وفي جلدهم كبار رجال الملايين . وما غادر السلطان في منظرته (لوج) وقف له الحضور وقوف الاحترام وصافحوا «إد شاهنر جوچ يشا» وضررت الموسيقى سلامه الخاص . ثم دار التبليل واتفق ان الرواية التي مثلت تلك الليلة فيها حكاية امراة خات زوجها وانفرت ابنتها على قلبه فماجحت «وابس السلطان وندرك حاله مع الثادين ج وشام من تشخيصها والختنه دليلاً على صدق خوفه وبعث الى مدير الجوق يعطيه لانه لم يسأل الله عن الرواية التي يريد تشخيصها او امره ان يشخص رواية اخرى بطلما ملك يفوز على مكابدته كثيراً ما كانت يحضرها ويسر من حوارتها . ولو لم يكن مدير ذلك الجوق اجنبياً لامر يقتله لكنه كان يخاف مداخلة الاجانب

وكلت الحضور مُشتملين بالحاديده رعي عبد الحميد غارق في هواجه ولاحت منه الثالثة قرائى زاد آغا واقتفي مكان من المرسخ تؤدّى ان يقف فيه اذا اراد محاسبة السلطان في امر « زاد آغا اليه فهو بحقه حتى دخل منظرته فامر ان يجلس وسأله عن نزره فقال « اني اتمن تسکین بال مولاي ... ونلت الله بخراج الي في نمي »

قال «قد اصبت اني في حاجة اليك .. هل لقيت والده سلطانه؟ »

قال «نعم يا مولاي وقصت علي» غندب الفات الناهانية

قال «ارايت ما فعلته تلك الحاضنة؟ .. انها لم تفعله عن اهمال كما توهمت، والده سلطانة لكنها تمدحه بالرشوة .. اغراها على ذلك اعدائي بجهنم الله» قال ذلك وحرق اسنانه وهو راسه

فقال نادر «لم افهم سبب غضب سيدى من حمل هذه القادين فاقترض انها احدى الجواري الكثبيات في يلدز ٢٠٠٠ و ٢٠٠١»

فقطع السلطان كلامه قائلاً «لا الومك على استغرايك غضبي ولذلك فانا امر اليك السبب برها على ثقتي بك واعيادي عليك»

فاما نادر آنا شاكراً تلك النعمة .. وأشار اليه السلطان ان يرخي ستارة المظيرة حتى يخفيا عن الجلوس فعل ثم قال السلطان «هل بما الى المابين» ونهض فسرع نادر بين يديه من باب سري بوادي الى المابين ولم يشعر بهما احد من الجلوس شيئاً توآ الى غرفة المطالعة وهي لا تزال مشتملة بالانتوار فحمد السلطان وأشار الى نادر ان يقصد فتح

فتحاول السلطان سيكاراً أسلمه وفتح الدخان من فيه مع زفارة طوباله وكرر ذلك مرتين فامثلات الغرفة من الدخان وهو مطرق ونادر بين يديه جامد كالصنم ثم رفع السلطان بصره الى نادر وقال «الا تعرف القادين ج .. من يوم بعثها فقرنا؟»

قال «لم اكن اعرف عنها شيئاً كثيراً ولكنني كنت اسمع قمراً آغاسي (في الجواري) يشي على ذكائها وجمالها»

قال «الا تعرف انها ارمينة الاصل؟»

قال «يظهر ذلك من شكل اتفها وملامح وجهها واغلن هذا هو السبب في نفور مولاي الادشاه منها»

قال «لا .. لا .. ليس السبب في ذلك كونها ارمينة ولا يجرد كرمي بهذه الطائفة بعد ما كان من تخردهم ودسائهم ولكن ..» وعاد الى التدخين ونفض رماد السيكار في تنفسة بين يديه وهو مطرق كأنه يتربّد في هل يطلع نادر اغا على ذلك السر الذي لم يطلع عليه احداً بعد .. ونادر جالس متأدباً لا يدعي حراً كثلاً بشوش على السلطان محاري انكاره

الفصل الثالث والثلاثون

كشف السر

ونهض السلطان عن الكرسي الطويل الذي كان جالاً عليه الى المكبة وفتح المدرج واستخرج منه تلك الورقة من محفظتها وقبض عليها بكتفه وعاد الى مقعده والسيكار في فيه وقال « اسمع يا نادر آغا .. يقولون ان والدتي ارمنية الاصل ؟ »

قال « نعم يا سيدى هكذا يقولون »

قال السلطان « فكان يبني ان احب الارمن من اجيها .. »

قال « نعم اقدم »

فخرج السيكار من فيه وتنهى وقال « ولكنني اكرههم .. لانهم الداعنة »

قال « ائمهم يستحقون الغضب لبب عقوفهم ونرمهم »

قطاعمه السلاطان قاتلاً اتى اكرههم واصافحهم من صباه .. اتعلم لماذا ؟
قطعلوا نادر آغا ينتهى ولم يحب اكتفاء بالاسرة، فقال السلطان « كرههم من
صباي لأن التنجيم الذي تنبأ لي من ذلك العهد ان العرش سيفضي اليه - هل تعرفه ؟
فيقت نادر آغالاشه لم يكن يتوقع سواؤ الأقوال « خير اقدم »

قال « كنت في صباي احضر مجلس التشجيم والتدخل بين يدي والدة سلطانة - وهي
بومثني والدة عم السلطان عبد العزيز وكان عندها جماعة من مهرة التجميين سبوا ائمهم
صادقة . تم عرفت متوجه اسمه الشيخ عبد الرحمن من اهل صيدا جاهني به محيب باشا
احدر رجال الدولة عند رجوعه من منفاه في قبرص وأظرى مهارته في استطلاع
الغيب . فطلبت اليه ان يكشف لي عن مستقبل قفال اتي سأتولى العرش قريباً وافق
عليه مدة طويلة فاعتبرت بوجود عمي عبد العزيز حياً ثم اخري مراد فاكده في ان
طالعي يدل يقيناً على ما قاله . لكنه اسرى اليه بروي ظللاً - وبدبحوم حول سعدى
وانه اذا كان على خوف فيكون من عشرة امي وهو يعتقد أنها ارمنية . فلم تخفي مدة
طويلة حتى سدق التنجيم وتوليت العرش وكانت الرجل مكافأة حسنة ثم خدمتني
خدمات جليلة تعود الى حفظ السلطنة ... - فلما رأيته صدق بعض الندل خفت
ان يصدق بالباقي ولذلك رأيتها اطارد الارمن واحاذرهم »

وسكت ربنا سحب سحة من السيكار ويظهر من ملامح عينيه انه لم يتم حدبه

بعد فضل نادر آغا مصطفياً

فعاد السلطان إلى السكلايم قاتلاً « قد علمت سبب تعمقى على الارمن احوالاً ولم تعلم بعد سبب حذري من هذه المرأة على المخصوص .. فاعلم اني شديد الاعجاب بهذه الجارية منه عرقها لذايتها وسداد رأيها وكثيراً ما كنت أقضى الساعات في مجالتها حتى شغلتني عن سواها لما لها من الاطلاع على الصحف والكتب . وهذا ما يعنى ان انت بها حتى كلفتها بتهمة ذات شأن في اثناء دسائس الارمن التي اشتهرت بنجاحهم في الاستانة منذ عشرة اعوام »

واعتدل السلطان في مقعده وتسخنح وقد أبرقت عيناه سروراً بما كان من تجاهه في تلك المنذجة وقال « كنت اسمع يومئذ ان بعض رجال المسلمين من قدمتهم ورقيتهم ووليهم الناصب مواليون لا ولذلك الكفار على » فلدي أتحقق ذلك بعثت بعض السرارى الديبيات الى بعضهم على سبيل المدية - وهم طبعاً يحررون بالهدية السلطانية ولا يغرسون على ردها . فاطلعني اولذلك الجواري بعد ذلك على اسرار هامة .. وكانت القادرين ج يومئذ لا زوال من جلة السرارى فكلفتها بكشف اسرار ع . بانيا لاتي كانت اخف تظاهره بالاخلاص . وحرماً على استرجاعها الى لاتها ارمية وخوفاً من ان تتحاذ لابنه جلدتها وعدتها اتها اذا قامت بذلك المهمة اجعلها قاديناً واشترطت عليها شروطاً خصوصية تخفيز رجوعها الى قصري واما وائق بصدقها . والحق يقال اتها اخلصت الخدمة وعادت بهم الاخبار عن الارمن افسهم ايضاً - فسميتها قاديناً وامررت لها بدائرة خاصة تقيم فيها وعندتها الخازنة والباشكتابة والمهردار والاستجبي فضلاً عن الخدمة والجواري والمحببان مثل سائر القوادرين . ولم اميز واحدة منها عن شيء ولكن ... آه » وتهجد

وكان نادر آغا كثیر الشفقة على تلك القادرين يحب ان ينقذها من المطر اذا استطاع الى ذلك سيراً فاسعى بكلته الى حدبة السلطان قام بمجدد في كل « ما سمعه شيئاً يوجب غضب السلطان . فلما رأه يتهجد توقيع ان يسمع ما يكشف له القناع عن الباب الصحيح

الفصل الرابع وأشلاطون

القتل على التهمة

اما السلطان وبعد ان تنهى روى بقية سياقه في النفيضة وقال « انك لا تجد في حدبي عن هذه المرأة حتى الساعة ما يوجب الغضب عليها .. ولا انا ايضاً . ولكنني رأيت في المقام بعد ذلك رجلاً ارمياً كثت اراءه في مجلس والدي ساكن الجبان واسمه مهران بك ولم اكن احبه لانه كان يفضل اخوتي علي . وربما اوعز الى والدي بذلك وكانت الالاحظ ان والدي يسايره ويشتهر في فشتات على كره هذا الارمني . وقد مات من زمن طوبيل ولم يختصر ببالي ذكره الا في تلك الليلة فرايته في المقام برأته التي اعرفه بها وبيده سيف يشير به اشاره التهديد فاجفلت واستيقظت واتبهت الى الخطير الذي يتحقق في من الارمن وقلت « ينبغي ان اتيقظ منهم » ولم اجد حلاً الا بالدليل فامرته الشیخ ... ان يعمل منهلاً على ما في ضمیري ولم اذکر له شيئاً . فكتب لي نتيجة الدليل في هذه الورقة خفقتها عندي من ذلك الحين وتيقظت لنفسی وأوصیت الحاضنة ان تتيقظ جيداً للقادرين . وقد علمت اليوم أنها حامل ... ». قال ذلك ودفع الورقة الى نادر آغا ليقرأها

فتحتها واقترب من المصباح وقرأ فيها « لا ينبغي للسلطان ان يطعن من اهل امه بعد ان طاردهم وذبحهم قان ما كتب في صحائف الدهور كائن» والخطير سألي من طفل امه ارميا وابوه السلطان »

ولما فرغ نادر آغا من تلاوة الورقة افترى بدنه لانه يعتقد التمجيم مثل سيده واطرق مفكراً فابتدره السلطان قائلاً « الا ترأني معنوراً ؟ الا توافق على رأيي ؟ هل يجوز الاعفاء عن تلك المرأة اذا صح أنها حامل ؟ قل ... ». فقال « ان سيدى الباشا صاحب القول . لا شئ ان يقال لها على هذه الصورة خطير — ولكن هل ثبت حلها ؟ »

قال « يكفي الشك للتجليل بالقتل . . . وقد تكون مصيبة وقد تكون خطأ فذا سيراً ووضمت غلاماً أصبح التخلص منه شاقاً ونحوم حولنا الظنوں اما الآن فالانسان عرضة للمرض والموت كل ساعة . . . والاطباء يرسلون الانفان الى العالم الآخر

مجرعة لا يشعر بها بلم ولا عذاب . . فصاحب ارسال هذه المخلوقة من هنا واحسب انها لم تكن في جهة الجواري الـواقي ابتغاهن وان كنت آسفأ لذلك . . لأن هذه السكينة كانت تحييني »

فالنادر آغا « لافضل طلاق في حبها ومن لا يحب ولا أنا الخليفة ظله الله على الارض؟ ان الحافظة على سلامته فرض لا بد منه ولو قتل الا لفوف في سيله . وانا اول من يضحي نفسه في هذا السبيل — اطال الله بقاء امير المؤمنين »

قد تخيّل ذكاء عبد الحميد عن ان يتعالى عليه هذا الاطراء او يعتقد صدقه ولكن الانسان ضعيف . قد يكون قوياً، كل جهه الا من جهة اغتراره بنفسه فانه في غايةضعف . يقبل الاطراء ولو كان بعيد التصديق ولا سيما اذا كان لا يسمع غيره وكل الذين حوله يتباينون الى استبطان عبارات الاطراء تلقاً له وتقريراً منه فلا يلام اذا صدق مثل قول نادر آغا . فلما سمع قوله قال له « فانا اكل امر هذه المرأة اليك » وكان قادر علناً اولاً وان لم يعرف كيف يوصل اخلاصه . فلما وصل السلطان

إلى هذا الامر اشار مطليعاً

ثم تحفظ السلطان للهوض في طلب الرقاد فهم نادر آغا وخرج بعد ادن قام بواجب الاحتراز

اما عبد الحميد فها جت اشجانه في ذلك المساء على ان ما تحدث به عن المترجمين والارمن والقتل فزادت مخاوفه وغلب عليه ميله الى التستر والاختفاء . فاظهر انه ذاهب للرقاد في دار الحرير وبعد ادن خلا بنفسه طلب النوم في غرفة المائدة على كرسي طويل وفوقه ملاءة من الصوف كما في سائر الغرف لينام السلطان مق شاه ولا يعرف احد مقره

الفصل الخامس والثلاثون

الأخبار الجديدة

نام عبد الحميد في تلك الليلة نوماً متقاعداً على جاري العادة وافق في الصباح وعليه قيس (عنتر) وقططان طويل وهو رع بالبنعلوفي السوداء الى الحمام كجاري العادة وتماطى بعض الحركات الرياضية وليس ثابه الاعتبادية وانصرف الى غرفة المطالعة وكان القهوجي باشي قد وقف هناك واعد الادوات الالازمة لطبع القهوة بين يديه

فقد عبد الحفيظ وهو ينظر إلى التهويجي بانني كيف يطبع القهوة وتناول بيكرأ
فأشعله وشرب القهوة بللة وفكرة مشتعل في ما عاه ان ياتيه من الاخبار الجديدة
في تلك اليوم

انصرف التهوجي باني وجاء الحبيب ان المائدة . مدة للفطور فهُم إليها وتناول
فطوراً خفيفاً من البيض والبن وهو يتوقع دخول الحاجب يعنيه البريد او السرخفية
أيضاً وما عُلم ان سمع جرس الباب اثارجي فعلم انه الحاجب آتى بغیر جديده فهُم
وهو يصح فه وليته بالفوطة للذهبان باثار آخر جرعة من قبحان البن ورمي الفوطة
ومشي نحو غرفة الاستقبال التي يطالع فيها التقارير فلقيه الحاجب والتي النجية المصادرة
وقال «أن الناس كانوا على باب »

فعلم عبد الحميد ان الباشكاب لا يذكر على هذه الصوره من عند نفسه الا تخبر هام
تفقق قلبه تطلعاً الى ما عاه ان يكون وأشار الى الحاجب ان يأخذن الباشكاب بالدخول
وبعد هذيه دخل الباشكاب والسلطان قد جلس الى اللضدة التي يقرأ عليها
النمارير خبا وهو يتسم دلالة على حسن الاخبار التي جاء بها فاستبشر السلطان وادا
بالباشكاب يقدم له طرقاً عرف من شكله انه تلفراز فتناوله بلهفة وفنه وقراءه فبات
الدهشة في وجهه ولم يتألم عن الضحك وفي عينيه ملامح الشهامة والاحتزاء ثم اتبه
لوقوف الباشكاب قواماً اليه ان يقدم فقدم

فأعاد عبد الرحيم نظره في التلغراف كأنه يتهم معاذ ثم قال «عفرازم .. عفرازم .. ناظم ١» والتفت إلى الباشكاب و قال «من جادك هذا التلغراف ؟» قال «في هذه الساعة سلطان»

فقرأ ما زرجه «قد نعمكنا ببركة النذات الشاهانية المقدسة وهذه الخيبة صائب بك من القبض على رامز احد اعضاء الجماعة الجهنية ومهما اوراق مهمة تكشف عن خيانات كثيرة.. ونستقر الاص بـ يلزم للاجراء والفرمان لصاحب الفرمان» «ناظم فتح السلطان» من هو صائب هذا؟

قال « هو من الحفنة الذين ارسلهم السرخنيه الى سلاييك وقد سمعته ينتقد على اخلاصه واحتياطه »

فأعتدل السلطان في مجلسه وقال «كيف ترى هذا الرجل .. السر خفية ... أحر ان اعرف راتبك فه لاني لا اتفق بسوالك كا نعلم »

قال « هو من العبيد الخالقين يا سيد ونجاح رسوله في هذه المرة من اكبر الادلة عن ذلك . وكيف لا يكون مخلقاً والذات الشاهانية وضعت ثقها فيه ؟ » فاظهر السلطان انه اكتفى بهذه الاشارة واعتقد على فطنة السامع لفهم ما يكتفي هنا بسؤال من مراقبة حركات السرخفية وقال « ما هو رايك ؟ هل نتقدم هنا بالثائق المقوّس على الى هنا ؟ »

قال « الامر لامير المؤمنين .. ولعله اذا جيء به الى هنا نتطلع منه اشياء
جديدة ... الله ما اجهل هؤلاء الفلان ! »
ف FECQ السلطان بناء الحاجب قمره باستدعاء السرخفية وقال للباشكتاب « قل
لنا نظم ان يبعث بالثمان واوراقه حالاً »

الفصل السادس والثلاثون

القاف

فهم البشكاب وأشار اشارة الطاعة وخرج وعاد عبد الحميد الى سكاره
 فأشعله وهو يعيد فنظره الى التلغراف حتى انبىء بمجيء السرخفية فامر بدخوله. وكان
 قد علم السرخفية بمجيء التلغراف في ذلك الصباح وفتحوا سريراً. كيف لا وهو رئيس
 الجوايس؟ فلما دخل على السلطان حيا نجية الاحترام واظهر انه لم يكن يعلم بذلك
 فقرأ امارات السرور في عيني عبد الحميد فشاركه بتلها قدم السلطان به ودفع التلغراف
 اليه وهو يأمره بالجلوس على سرير التلغراف وهو يقول « اذا كان هنا التلغراف
 من سلائيك فقيه خبر القبض على احد الحلوة »
 ظهر السلطان الاعجب بيقظته وقال « نعم انه من سلائيك وقد قام بهذه المهمة
 احد وجالك مع ناظم بك ٠٠ ٠ »
 فتناول السرخفية التلغراف وقراء وقال « نعم يا سيدى ان صائب بك من العبيد
 الخلصن » وقد

فقال السلطان « ان الاخلاص منك . وقد توسمت فيك صدق الملودة منه عرفتك ولو لا ذلك لما اضمع ثقتي فيك واجعلك عبني الباصرة ... انك معقدي الوحيد في مراقبة الخلوة المارقين وهم كثار حتى في هذا القصر » ولذلك فانا اخاطبكم راساً »

وتحجج وسحب سجنة من السيكار وقال «قد امرنا اليائشة ان يستقدم ذلك الخائن واوراقه . لم تفل حنأا ؟»
 فانشرح صدر السرخفية من ذلك الاطراء وخصوصاً من ذكر الودة وقال «معلوم .. وهي جاء استطاعنا منه سر تلك الجمية ويدنها»
 فقال «عفاص .. نعم .. قد آن الاقتراض من سلايتك واهلاها وكل آن قربا»
 قال ذلك بلعن التهديد وتهض فنهض السرخفية واستاذن بالانصراف
 فلما خلا السلطان بنفسه مئى الى غرفة التجارة وأخذ يتلهمي بصنع برواز من الابوس كان قد بدأ بدقته منه أيام وافكاره ثانية في ما سيكون من امر وامر مق جاه وكيف يختال في كشف سر الجمية فطراً على ذهنه راي فتشى الى موقف التلفون وخطب اليائشة فاجابه . فـأله اذا كان قد ارسل التلفون الى ناظم بك

قال «نعم ارسنته »
 قال «ماذا قلت له ؟»

قال «قلت له ان يرسل المتبوض عليه واوراقه حالاً»

قال «معي جاء هذا الخائن ارسنه الى السرخفية . فهمت ؟»

قال «حاضر يا سيدى»

واقفل السلطان الحديث وعاد الى غرفة التجارة . وبعد هنيرة خطر له راي جديد فعاد الى التلفون وخطب اليائشة ثانية قائلاً «اذا جاء الخائن ارسنه الى عزت وارسل اوراقه الي»
 فاجاب «حاضر يا سيدى»

وعاد السلطان الى عمله وقد غلب عليه التردد في هذا الامر لشدة القلق ولاج له ان يكون هو اول من يرى رامزاً فعاد الى التلفون ثالثة وقال اليائشة «ارى الانفضل ان ترسل الرجل واوراقه الي»

قال «حاضر يا سيدى سافعل » ولم يستغرب اليائشة هذا التردد فقد تعوده اما السلطان فبعد ان رجع الى عمله عاد الى التفكير في الامر فرأى ان استقدم الرجل اليه راماً لا يخلو من الخطأ فعاد الى التلفون وامر اليائشة اذا جاء المتبوض عليه ان يبيه عنده ويظهر الاختلاف به وانما يرسل اوراقه الى السلطان فاجاب مطمئناً

قضى عبد الحميد بقية ذلك اليوم كاهن على الجمر من شدة قلقه في انتظار رامز واوراقه

وفي صباح اليوم التالي لم يعلم عبد الحميد كيف يستحم وبدل ثيابه ولا كيف يتناول الطعام من قلق الاستثار وهو ينتقل من غرفة إلى غرفة وقد نسي القادين ج ونادر آغا وما كان من أمير ها

وهو واقف امام خزانة الاسلحة يتأمل ما فيها من المسنات والخاجر سبع
صوب الباب فتشى نحو قاعة الاستقبال وهو يتجلد وينضي ملفته فرای الحاجب داخلاً
وسمه محفظة كبيرة مختومة علم السلطان حالاً أنها محفوظة رامز فشار اليه ان يضعها على
التنفسة ويستدعى السرخيبة ولم يكدر يقعد حق كان السرخيبة امامه قاؤماً اليه ان
يقعده واخذ في فض المحفظة واخرج ما فيها من الاوراق والظروف وبينها خطابات
ومراسلات بالتركة والقرناوية وبعضها بالارقام السرية (الشيفرا)
قضيا ساعة وها صابتان وقد استقر في القراءة ثم قطع السلطان ذلك السكت.
يتحمّحه ومدد يده وفيها ورقه وقال «اقرأ هذه جيداً»

فقرأها واعداً فرأها ثم قال «يظهر أن الملاعين ساعون سعياً شيطانياً .. إنهم عاملون على بث تلك الروح الحبيبة في أحياء مكdonald's يجمعون بين عناصرها ومنذاهياً ..»

فصحك السلطان ضحكة انتقامية وقال « أهـم يطلبون عـثـاً .. يـريـدون ان يـجـمعـوا النـصـارـى وـالـمـسـلـمـين لـيـتـحدـوـا عـلـى ! خـاب فـاطـمـاـن ذـاك مـسـجـيلـ عـلـيـم .. يـرـيـدون ان يـجـمعـوا بـيـن الـبـلـغـارـى وـالـسـرـيـرى وـالـكـدـمـونـى وـالـتـرـكـى وـالـعـرـى ؟ كـيـف يـجـمعـوهـم وـقـد فـرـقـا بـيـنـهـم قـرـيـغاً وـمـزـقا جـامـعـهـم تـغـيـراً »

الفصل السابع والثلاثون

جمع المعاشر

وكان السر خفية في آثاره، ذلك يغلب الاوراق فوق نظره على عريضة كبيرة باللغة الفرنساوية وهو يفهمها فاخذ يقرأها والسلطان ينظر اليه فرائى وجهه يتغير قيادره قائلاً « ماذَا قرأتُ؟ »

قال « هذه يا سيدى صورة لأشحة مقدمة من تلك الجمعية الشيطانية الى وكلاء الدول ... »

فيفت السلطان وقال « الى وكلاء الدول ؛ بلقت قحتم الى هذا الحد ؛ ما شأن الدول في هذا الامر .. لا يجوز للدول ان ت تعرض لامروري في ملكتي . وعب اتها نستطيع ذلك فاتها لا تفعل وقد اسكنها ولا اطئها تعباً باقوال او لائك الاغرار للتشريدين .. ماذا يقولون لهم في هذه اللائحة ؟ »

قال « انهم يقولون كثيراً ولكن ما القائمة والدول لا تعباً باقوالهم بعد ان رأت فشلهم مراراً وهذه جرائم فرنسا قد دافعت عن النات الشاهانية وينت الهلا ان الذين يسمون اقليم احراراً قوم خوارج يباعون بدمائهم قبلة »

يُحمل السرخية يترجم له بعض الفقرات الهمة من ذلك قوله يخاطبون الدول : « ان المرض المستولي على بلاد العرب او طرایس الغرب دوعين المرض المستولي على ماكدونيا . فكل الاقوام المؤلفة من الترك والعرب والابانين والجركى والكرد والارمن والفالاخ واليهود والصرب والروم والبلغار من يشعفهم الاسم العُماني يكابدون تلك المنشاق ويُشوت تحت تلك الظالم بعينها . وفرق المذهب والله لا يهون اضطراب احد ولا يخفف اعباءه . فليس بماكدونيا ولا باخرى من الولايات العُمانية نوعان من الناس احد هما ممتاز والآخر مظلوم . كلنا بلا استثناء مشتركون في الظلامة كثنا رازح تحت استبداد واحد . »^(١)

وكان السرخية يقرأ والسلطان مطرق يتلاهي بالتدخين وعروقه تتفض من العين . فلما تى السرخية على آخر الفقرة اظهر السلطان الاستخفاف وقال « انهم سلكوا الان مسلكاً جديداً ولهم لا يفلحون .. كلهم رازحون تحت استبداد واحد ولذِكْرِهم سيفرون تحت تلك الاعمال الى ما شاء الله .. حكنا يفعل ابناء الدولة الصادقين ؟ بما لهم ... ولكن الدواء عندي ... ماذا ترى ؟ »

قال « اتي ارى ما يراه امير المؤمنين وقد تفضل به الساعة .. ان الجم يعن هذه العناصر مستجل .. كيف يجمعون بين الكردي والجركى والابانى واليهودى والفالاخى و ... هذا مستجل وقد امتلأت قلوب كل عنصر حدانا على العناصر الاجرى و .. »

فقطع السلطان كلامه قائلاً « بما لهم كيف يجمعون هذه العناصر هل كيف يجمعون بين المسلم والمسيحي واليهودي والمسلمون طوع ارادتني اآآ خليفة النبي (سلم) لا يفعلون غير ما ارادته .. ليس في ملكتي فقط بل في سائر املاك العالم .. كلهم يحسبون

(١) خواطر نازى ٠٠

السلمين قد مرقا من دينهم كما فعلوا هم .. » وضحك وعاد الى التدخين وتناول سيكاراً دفعه الى السرخنيـة . فتناوله وبقيه ووضعه في جيـه وادرك من ذلك ان السلطان يستحق غـيرـه لـيـنهـ قـرـعـتـهـ لـاخـتـرـاعـ حـيـلـةـ مـقاـوـمـةـ تلكـ المسـائـيـ قـاطـرـ السـرـ خـفـيـةـ لـحـلـةـ ثمـ قالـ « رـأـيـ مـولـايـ الـبـادـ شـاهـ فـرقـ كـلـ رـأـيـ وـلـكـنـيـ استـاذـهـ بـكـلـمـةـ .. »

قالـ « قـلـ .. اـنـ اـحـبـ آـرـاـكـ وـاعـقـدـ عـبـتـكـ فـانتـ صـدـيقـ الـوحـيدـ لـاـ اـعـولـ عـلـ سـوـاـكـ . وـنـحـنـ شـرـكـاـهـ فـيـ الـاـمـرـ لـاـنـ مـاـيـسـنـ الدـوـلـةـ يـسـكـ وـمـاـيـفـعـهـ يـنـفـعـكـ .. هـلـ تـرـكـ اوـلـكـ الـاـغـرـارـ يـغـلـبـوـنـ بـصـاـحـبـهـ وـعـدـنـاـ السـلـطـةـ الـدـيـنـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ وـعـدـنـاـ الـامـوـالـ .. » قالـ ذـلـكـ بـلـجـنـ الشـيـدـيـدـ

فـسـرـ السـرـ خـفـيـةـ بـذـكـرـ الـمـالـ وـقـالـ « اـنـ اـرـىـ اـنـ يـكـونـ الجـزـاءـ مـنـ نـفـسـ الـعـمـلـ هـمـ يـخـارـبـوـنـ الدـوـلـةـ بـجـمـعـ الـعـنـاصـرـ وـنـحـنـ نـخـارـبـهـ بـنـفـرـيـهـ .. وـلـاـ وـسـيـةـ لـذـلـكـ خـيرـ مـنـ الدـيـنـ .. »

فـقـالـ السـلـطـانـ وـهـوـ يـحـكـ ذـقـهـ بـبـيـانـهـ « عـنـارـمـ .. هـكـنـاـ . مـكـنـاـ »

فـقـالـ « هـمـ يـشـكـونـ لـاـورـيـاـ اـنـهـ جـيـمـاـ مـظـلـومـونـ وـيـسـعـونـ فـيـ تـهـيـمـ الرـعـاـيـاـ اـنـ الـوـسـيـلـةـ الـوـحـيدـ اـنـاـ هـيـ اـنـ يـجـمـعـ الـسـامـ وـالـمـسـيـحـيـ وـمـحـنـ نـيـنـ لـلـسـلـمـيـنـ اـنـ هـذـهـ اـسـاعـيـ اـنـاـ يـرـادـ بـهـ ضـيـاعـ دـيـنـهـ وـادـخـلـهـ فـيـ زـمـرـةـ الـكـفـارـ »

فـقـطـ السـلـطـانـ كـالـمـهـ بـقـولـهـ « عـنـارـمـ .. اـنـ شـعـبـيـ الـمـؤـمـنـيـنـ شـدـيـدـوـ الـغـيـرـةـ عـلـىـ الـاسـلـامـ . وـازـيـدـ عـلـىـ ذـلـكـ اـنـ السـيـرـ عـلـىـ هـذـهـ الـصـلـالـاتـ وـالـاـسـنـاءـ اـلـىـ هـذـهـ الـرـجـاـسـاتـ يـقـودـ اـلـىـ خـروـجـ نـسـاءـ الـسـلـمـيـنـ حـسـرـاتـ الـوـجـوـهـ كـنـاءـ إـلـاـفـرـعـ الـكـفـارـ .. اـنـاـ اـعـلـمـ تـكـنـكـ عـلـمـ الـسـلـمـيـنـ بـالـحـجـابـ .. »

فـاخـدـ السـرـ خـفـيـةـ يـحـنـ هـذـاـ الـفـكـرـ اـطـرـاـ، لـذـكـرـ السـلـطـانـ وـدـهـائـهـ فـقـالـ « وـفـيـ الـوـاقـعـ اـنـ ذـلـكـ الـاـتـحادـ اـذـاـ تـمـ سـأـولـ اـلـىـ هـذـهـ الـتـيـجـةـ كـاـرـىـ الـحـالـ فـيـ اوـلـكـ الـاـغـرـارـ اـفـسـهـمـ قـلـهـمـ يـقـلـدـوـنـ الـمـسـيـحـيـنـ بـكـلـ حـرـكـاتـهـ .. يـعـاقـرـوـنـ الـحـرـ وـيـجـالـسـوـنـ السـاءـ وـيـشـعـلـوـنـ كـلـ حـمـرـ .. هـنـاـ درـذـلـكـ الـعـبـدـ الـخـلـصـ الـذـيـ صـورـ مـدـحـتـ وـرـجـالـهـ تـلـكـ الـسـوـرـةـ قـاهـ قـدـ اـصـابـ كـبـدـ الـحـقـيـقـةـ .. »

فـلـماـ سـعـ السـلـطـانـ اـسـمـ مـدـحـتـ اـقـسـمـ بـدـهـ وـلـكـنـهـ تـجـاهـلـ وـقـالـ « هـذـهـ اـفـضـلـ الـبـلـ .. اـكـتـبـ اـلـىـ رـجـالـهـ بـهـذـاـ المـقـ .. وـلـاـ حـاجـةـ بـيـ اـنـ اوـصـيـكـ بـاـنـ يـبـقـيـ هـذـاـ الـمـدـيـثـ مـكـنـوـمـاـ، اـعـنـ كـلـ اـنـسانـ حـقـ الـبـاشـكـاـبـ وـعـزـتـ وـغـيـرـهـ فـاـنـ اـعـولـ عـلـيـكـ فـقـطـ

.. اتفق ما استطعت في هذا السبيل .. وعندما عرفوا اعضاء هذه الجماعة بجعل جرائمهم القتل ... » قال ذلك وتناول ورقة بحاجة وكتب عليها يده امرأً الى وزير المالية ان يدفع اليه عشرة آلاف ليرة عثمانية حالاً ودفع الورقة اليه وقال « وخصوصاً من تأخير الدفع ساعطيك الآن دفعة مستعجلة » ومد يده الى جيده واستخرج ورقة مالية بالليرة العثمانية سلمه ايها فتناولها وقبلها وجعلها في جيده وأشار اليه السلطان ان يجمع تلك الاوراق في المحفظة حتى يعيد نظره فيها مرة اخرى ثم قال « وسائل بك يبيغي ان تكافئه لا نفس ذلك »

فقال السرخسية « هو معمور بنعم امير المؤمنين ولكنك بعث اليه تلفراقاً يطلب رتبة الى احد الخلصين الذي ساعده في كشف ذلك السر »
 فاجاب السلطان سريماً « معلوم .. قر للياشكاب يعرض اسه فكافه على اخلاصه .. انت لا تخس الخلصين الامنة حفهم »
 وهذا في ذلك « دخل الحاجب وقال « ان الصدر الاعظم بباب »

الفصل الثامن والثلاثون

الصدر الاعظم والمال

فاجفل السلطان لعلمه ان الصدر لا يأتيه رأساً الا بما بهم الدولة او الامة وعلاقتها مع الدول الاخرى . وهو مشغول عن الدولة ببنوته كارأيت لكنه لم يستطع رده وأشار الى السرخسية ان ينصرف فالصرف دخل الصدر الاعظم وحيا كالعادة فثار اليه ان مجلس مجلس متادباً ينتظر ان يفتح السلطان الخطاب اذا ليس من آداب الملوك ان يخاطبهم احد قبل ان يبدأوا به بالكلام فتجدد السلطان كأن لم يكن في شيء مما كان فيه وقال « كيف الاحوال ؟ »
 قال « ان الاحوال حسنة لكنها تحتاج الى نظرۃ من موالي الباشا »
 ففهم ان الصدر لا يقول ذلك الا لامر هام فقال « ما وراؤك ؟ »
 فاستخرج الصدر ورقة من يده ودفعها الى السلطان وقال « هذه خلاصة ماجاهنا اليوم .. ان الدول الاجنبية تستخف بنا .. »

فتناول السلطان الورقة فقرأها واعادها الى المتضدة وقال « اراك قد علقت على هنا اثغر اهمية كبرى »
 قال « كيف يا سيدى وهذا قيسرونيا وملك انكلترا قد اجتمعا في « روال »
 وقررا ما يأول الى ذهاب تركيا او ربا من ايدينا . »
 فهو راسه واغتصب ابتسامة وقال « كثيراً ما قرروا مثل هذه القرارات وقد
 عرقلت مسامعهم »

فامتنع الصدر من تعيير السلطان في هذا الموقف بصفة المفرد كأنه هو الماعول
 لكل شيء ولم يبهمه هذا بقدر ما به استخفافه بالامر فقال « لاشك أن حكمة امير
 المؤمنين تغلب على كيد الكائدين ولكن ذلك ينذر الى المال والخزينة تحكم الفراغ »
 فلما سمع قوله اظهر الاستغراب وقال « يالعجب . وانا نعمت اليك الصداره
 لتناقلي موقع في اسلافك . ان عملك الواسعة كثيرة الارادات ابن تذهب الاموال؟ »
 ولو اراد السلطان ان يفهم مصدر الاموال لعلم أنها تذهب بسبب دخول رجاله في
 كل فروع الحكومة فيسلط عليها جماعة من خاصته يستولون على الارادات او يتضيغونه
 بسوء ادارتهم ولا تستطيع الصداره ان تعارضهم الا ويقع القبض عليهم ولم يتعسر الصدر
 ان يقول ذلك صريحاً فقال « ان عملة جلاله السلطان واسعة زادها الله سعة ولكن
 الارادات يتذهب من سوء الادارة و .. »

فقطلع السلطان كلامه بصوت عال قائلاً « وانت المسؤول عن ذلك . جانم ١ »
 فعلم ان الكلام لم تبق منه قائمة فعاد الى مائة روال فقال « ولكن مائة
 روال ... اليرى سيدى الاهتمام بشانها؟ »

قال السلطان « جانم ... ما هذه روال ، دعنا منها الان . ولا بد من تدبير التقدود
 فاني في حاجة اليها نساعدكم في ادارة هذه الحكومة . ولو لاسهري وتمي لتعصب دولتنا
 جداً ، منشوراً — تعمون في الخطأ فاضطر انا الى اصلاحه وهذا يقتضي له الاموال . »
 وخلق بيته وتشاغل بفنون وماد السيكار في التحفة وشك
 فهو الصدر وهو يعلم ان غضب السلطان لا يرد ولكنه لم ير بذلك من الرجوع
 الى الموضوع فقال « ان مائة روال لو لا احوال اخرى لم يكن لها اهمية ... »
 قال « اراك عدت الى الشكوى من فحة المال ! »

قال « يا سيدى اني لا اطلب المال لغير الجند . .. ان معولنا على الجبود وهو لاء
 ينبغي ان يستولوا على مرتباتهم و .. »

فلم يهلك السلطان عن التهوض من الغضب وقال « الجنود ! قد اتفقت مالي وراحني في سيل ارضائهم وهم يتذمرون ايضًا ؟ اعطوهم روايهم — من اين آتى بالمال ؟ ان ايرادات الحكومة في ايمدیكم . اذا استول على راتبي منه اشهر فاذا احتجت الى المال — ولا احتاج اليه الا في سبيل مصالحة الدولة — لا اجد منه شيئاً . واما ساكت .. وفي هذه الساعة حوت على الخزينة يبلغ زهيد في هذا السيل ادفعوه لحامل امرى حالاً » ورأى السلطان انه بالغ في التخيف بغير حق تخفيض سنته واظهر التعلق وقال « ومع ذلك لا بد من اتخاذ التدابير الالازمة لزيادة الابراد واما اكلفك ان تضع لائحة في هذا الشأن .. لا ينبغي لنا ان نجعل سيل الاجاب ان ينقدوا اعمالنا » وكان الصدر مخلصاً في خدمة الدولة لكنه لم يتوت من الجراة ما يكفي للتصرع بذكره ولو اوتتها لم تأت بفائدة . ولما رأى غضب السلطان نهض حق اذا فرغ السلطان من كلامه اشار معلمياً وانصرف وهو يقول في سره « لا يرجى اصلاح هذه الدولة وهذا الرجل سلطاناً »

ومشي عبد الحميد بعد انصراف الصدر وقد خلا بنفسه وهو يجتم قاتلاً « تطلبون المال مني ؟ وانا اعطيكم ما عندي كيف ادفع عن حياتي ؟ كلكم تحفظون بالمال لافضلكم الا يتحقق لي ان افضل مثلكم ؟ »

وظل ملائياً وهو يتطرق من غرفة الى اخرى ويختلفت كلامه يخادر ان يتبعه احد حتى اتي غرفة صغيرة مهملاً لا يدخلها احد وضفت على زر ورأى بها فانفتح في الحال المقابل باب دخل منه في دهليز الى حجرة فيها خزانة من الحديد اخرج من جيبه مفتاحاً فتحها به واما هناك بدر من المال على اختلاف اشكاله من الذهب والجوهر والورق

ولما وقع بصره عليها اشترق وجهه وابسطت اسرمه وجعل يقلب ما هنالك من الاوراق المالية وهي كثيرة ويقول « اريدون ان اعطيكم هذه الاموال وهي عدنى التي احاوليكم بها ؟ ولو لا هام نأتوا الي صاغرين .. اعطيكم ايها ؟ وبماذا اغريككم بعضكم على بعض وارمى الشفاق ببنكم حتى لا تجتمعوا علي ؟ لو لا هنا المال لكم انتم اصحاب السلطة .. انتم تخدعني طمعاً بالمال واما اخادكم ولا اعطيكم ايه .. سلاحى وبه حياتي »

قال ذلك وعاد فاقفل الخزانة وأغلق باب الحجرة وهو يقول « ليس هذا كل مالي .. وهل جئت لاضع كل ثروتي في مكان واحد واما عباط بالصوص والجواسيش ؟ »

ومشى حتى أني غرفة التجارة ففتح درجاً في مكان لا يغطى لاحظ وجود المال فيه واستخرج منه طرفاً فيه مئات من الأوراق المالية وبما زادت قيمتها على نصف مليون جنيه وجعل يقلبها ويقول « هنا من مالي ومنه كثير في هذه التجاراً »

الفصل التاسع والثلاثون

الفنك

ثم عاد إلى قاعة الاستقبال ورجح إلى مطالعة اوراق رامز فرى يدها كتبًا من شبرين فيها مداعبة ومتاكاة وهو يقرأها طرق ذهنها بخاء صورة القادرين ح فاجفل وتحولت هواجسه إلى دار الحريم قرادر ان يشغل نفسه بقطعة من جريدة فرنساوية فيها مقالة لرامز أخذ يطالعها ويتفهم خواها لأنه ضعيف بالفرنساوية فلم تذهب صورة القادرين من أمامه فرمى تلك الجريدة على المتضدة واسترخي في مجلسه على المقدم وتهده هداً طويلاً ثم قال لنفسه « ماذا جرى بذلك المرأة ؟ هل تحقق حلها ؟ ويلام إذا ينبغي أن استغل ؟ بالخوارج المارقين أم بالمساء في دار الحريم أم براقة حرکات رجال الدين يزعمون أنهم النصاري أم بطاليب الوزراء أم بطالعة التقارير من الجوايس او بالتقارير على الجوايس ؟ أنه لعمل شاق ! »

ثم مد يده إلى صندوق السيكار وتناول سيكاراً واسمه وهو ينظر من خلال الدخان إلى الساعة الموضعة على الرف أمامه فإذا هي الساعة الخامسة (عربي) ففتح نفخة قطابر دخانها في جو تلك القاعة ثم نهض وهو يتشدد ويقول « ولكن هذا العمل لا يصعب على حمة السلطان عبد الحميد ا لم ير عرش آل عثمان سلطاناً عاملًا مثلـ .. آني قابس على ملوكى ودولتى وقصرى بيد من حديد » وصفق بخاء الحاجب فصاح به « نادر آغا » يعني إن ينادي نادر آغا

قال ذلك ومشي في الدهليز بين خزائص التقارير السرية نحو دار الحريم وهو لا يائثت بيته ولا يسرره . وإذا بنا نادر آغا قادم عليه من الباب المري المؤدي من دار الحريم إلى المابين شيئاً ووقف . ولو كان أيسن الأوت ظهرت دلالات البنية في امتناع لونه ولكنها ظهرت في عينيه رغم ما كان يحاوله من التستر . وادرك عبد الحميد ذلك فقال وهو يتحول إلى حجرة التجارة ليهوا بالخفـر « ماذا جرى ؟ هل أرسـلـقوـها ؟ » بـريـدـه هل قـلـمـ تلك المرأة

فأجاب نادر آغا « خير أقدم »

فعلم السلطان فيه وقال « وماذا ؟ »

قال « لم تتحقق بعد إذا كانت حملة »

فأدار عبد الحميد قوله « وإذا لم تتأكلاوا إن ذلك وحده كاف لتنبأه اوامرني .. ولو لا ما تعلم من منزلتك عندي لكنت .. » وسكت والتهديد ظاهر في حمه

فقال نادر آغا « هل في الدنيا أسبق من هذا العبد الذي تنبأه اوامر ذات الشاهانية المقدسة ؟ ولتكنى كنت احب امير المؤمنين اذا تأكد عدم احتمال حفل بقاءها »

فأسرع في الجواب قائلاً « لا »

فقال « لا يبني اكتم شيئاً عن سيدي وولي نعمتي .. »

قال « قل »

قال « ان الخاصة للكائنات مثل هذه المهام لا اتفق انها تحمل ذلك بامانة وربما كنت خطأ في ظني .. »

فقطع عبد الحميد كلامه قائلاً « فهم مرادك صدقت .. لان تلك الخاصة تعرف تلك القارئين جيلاً أسدته إليها بتوسطها لها عندي .. ولكن لا بد من التنبأ » فأطرق ذلك الخفي ذهنه وهو ينظر إلى حرفة عبد الحميد في الخنزير على الآباءوس قاله من امهر التجارين ثم قال « اعرف طيباً يزلف إلى الآذين منه رهبة ويتوسل في طلب منصب وهو لا يعرف تلك المرأة فلا يتفرق ولا يرحم .. وهو أيضًا جائع يطلب وزفاً .. وإذا علم أن جلالة السلطان يكانه على تنبأه أمره .. فإن يجعله من اجلاء القصر الملوكي فعل ما تريده »

ففتح عبد الحميد وقال « تعجبني اراوك يا ايضن الحال .. ان طريقة الصغار اقرب إلى الاستفادة من أماتهم لأنهم حررison على استقبا .. النعمة التي تأواها بصدق خدمتهم لنا .. ولكن هل يستطيع ذلك ؟ »

فقال نادر « مالنا وله اذا اخطأه .. واجعل ذلك العمل شرطاً لتنبأه وابتدر الامر كما يشاء .. وإذا لم يحسن الاسلوب عدنا ذلك ذنبًا حاسباً عليه »

فتبسم عبد الحميد وأشار إلى نادر بالاقتراف وسكت وهو يفكر في رامز ويدرك أن رواه له عليه يستطلع اسرار الجمجمة منه ولكنه راي من الحكمة ان يصبر تمه

الفصل الأربعون

رامز عند الباشكاب

اما رامز فاتهم حلوه مع اوراقه من سلانيك فوصل الاستانة في ذلك الصباح
فدفعوه الى الباشكاب فارسل اوراقه الى عبد الحميد كما علمت واستيقاه عنده في حجرة
خاصة ليس فيها احد . خلاس رامز على مقعد هناك ولم يبهه ما يهدده من الخطر على
حياته اكثر من اهتمام بشرين وكيف يكون حالها بعده وهو يعلم ان اياها لشفقة في
قلبه عليها وان صائبها ربما طمع فيها ووافقته ابوها على تزويجه بها . فلما تصور ذلك هب
جسمه واقشعر بدنه واحس بقل ذلك الاسر

وبعد قليل جاءه الباشكاب بنفسه شفاه وتلطف في خطابه وسأله عن سبب
القبض عليه سؤال من لا يهمه الامر وانما يسأل على سبيل حب الاطلاع
فقال رامز « لا اعلم السبب »

قال « لعلك منهم باشتراكك في احدى الجمعيات السرية »

قال « نعم .. وليس هي ثمة »

قال وهو يظهر الاستغراب « اذا كنت تعرف باشتراكك في تلك الجمعية فازك
تعرض نفسك خطراً شديداً لأن جلالة السلطان يشدد في مع تلك الاجتماعات الفارة
.. وما كان اغناك عن الاعتراف بذلك .. اقول هذا شفقة عليك اذ يظهر لي انك من
ابناء النعم واهل الذكاء ولكنك قابل الاختبار فربما اغراك بعض المتروسين الذين يسمون
انفسهم الارواح الاحرار فادخلتك في الجماعة التي سموها جمعية الاخاء والتزقي . اذنك
لو عرفت تاريخ هذه الجماعة لعدلت عنها .. ان بعض المخربين من الوظائف اخذوها
وسيلة للارتفاع بالتهديد (Chantage) وكان امير المؤمنين يقطع السنة الصاخبين
احياناً بالوظائف . واكتزهم كانوا يسيرون اصواتهم بدريمات قليلة فشكراً لدعياه
الحربيه — ولا اذنك من الادعاء فيها بل انت حرـ الضمير يقول ما تعتقد .. ولكنهم
خدعنوك حتى وقعت تحت الخطـر وهم مستريحون .. ولو وقع احدهم مكانك لتخالص
واوقفك مكانه .. حد هـ . وقد فعلوا ذلك مراراً .. مالتا وطم اذنك لم تستأول القطـور
بعد » ومدىده الى جيـه استخرج عـلبة السـکـير ودفع اليـه سـیـکـارـة وخرج وتركـه
يفكر في ما سمعه لعلـه بـسـعـيـه يـتـخـلـصـ منـ الخطـرـ

وبعد قليل جاءه بعض الحجاج يدعوه إلى الطعام فهضم وأكل بعض الشيء وهو لا يفتح فاه للكلام لاستفراغه في هواجه ولم تبرح شيرين من فكره - وبعد الطعام أتوه بالجرائد المطاعة فأخذ يقرأ وهو لا يفهم ما يقرأ حتى إذا آتى الفداء تناوله وقد ملء الانتظار واصبح شديد الرغبة في معرفة ما يكون من أمره في ذلك التصر الذي لا يدخله غريب الآتي من كثرة ما يجول في أكتافه من رجال العسكرية وكثيرهم من أهل الرب العالمية وخصوصاً الياوران وظم دائرة خاصة يقال لها دائرة الياوران وفيهم حفول القواد وقروم الابطال وهم ثلاثة طبقات ياور وياور اكرم وياور نفري والياور الأكرم فوق سائر المراتب قدرأ - فكان يقع بصره على بعضهم ماراً أو داخلاً على الباشكائب وعابيه علامات الشرف والابهة ويکاد رأسه ينطاح السحاب



تحسين باشا الباشكائب في أيام ثورته
وتأهيل ب Directorate of the bashkabs نفسها فاتحها تحتوي على الباشكائب وعشرين كتاباً من

ذوي الرتبة الثانية الى رتبة بلا وهم من الشبان الناشئين على الاخلاق الجديدة وكلهم عيون على البشكاب وهو عين عليهم . وقد باعد الشفاق بينهم فتقاهم جميعاً وقلوبهم شرق . وكان البشكاب الواسطة العظمى بين السلطان والحكومة اي يبلغ اراده وأوامره الى الصدر الاعظم او شيخ الاسلام . وانشهر او تلك البشكاب واقر لهم عهداً ، ناخعين بادا

وعلى البشكاب ترد الاوراق الرسمية من الباب العالى ومن المشيخة الاسلامية ومن سائر النظارات وسائر الولايات وتصدر عنه الى الباب العالى وجميع الجهات . وهو يبعث بملخصاتها لتوضع على المكتبة السلطانية فتนาهى عنها الارادات بتلقي الملاينجية او من يأمره السلطان بالتبليغ من الذين في الحضرة الشاهادية . والبشكاب يبعث بالارادات السنوية بامضائه في اوراق صغيرة الى الصدر الاعظم او الى من تحصيم من الوكلا ووزراء

وحيث يتم الصدر الاعظم او غيره تلك الارادات يكتب على الورقة المرسل بها ساعة الاسلام والحقيقة . ولدى البشكاب دفتر يكتب فيه المبلغ للارادة وصورتها ودقيقة صدورها ويفضي ما يكتبه بامضائه . وهذه عادة جديدة لم تكن من قبل احدها او تكتاب بعض المباينين تلبيخ ارادات لا اصل لها

وكان البشكاب وكأنه عظيمًا من اركان الجوايس في السראי وهو يعرض فوق وظيفته الرسمية العليا اوراق المخفيات التي ترد عليه منهم . ولهذا التنصيب الاولى من حياته واهتممه فلا ثابت في يده الا وربما يتواءط فيها فتذهب الى الحجرة الشاهادية فتنذهب اسرع من متقدمة السبل فتناهى عنها الارادة في الحال سواء كانت اراده استطاق او استطاعت او اتفقت او احسان على من قدمها . بخلاف الاوراق الرسمية او اوراق ذوي الحاجات فان طرائقها في العرض لا يتغير وربما تأخرت شهوراً أو جاء عليها تيار الاوراق الاخرى ولا ينفع البحث عنها

على ان السلطان كثيراً ما كان يدعى السر خفية اليه رأساً متن شاه لنتظر في شأن بهمه كما وأيضاً فعل في مسألة رامز وقد يائمه الصدر الاعظم رأساً لامر حام خوفاً من اشغال البشكاب عن مطالبه امامية بناية مطالب الجوايس

الفصل الحادي والاربعون

قصر مالطة

ظل رامز هناك الى المساء يخاءد البشكاب وسأله اذا كان في حاجة الى شيء، وقال له « انا ابيتك ينسني لكي تستأنس بي لاني اشتفت عليك فهل رأيت ان تسمع نصحي قبل ان اسلفك الى المحقفين » قال وهو رابط الجأش « لم افهم مرادك »

قال « نصحت لك ان ترجع الى رشدك وتعدل عن الفرور وانا اضمن لك السعادة ، المطلوب ان تخبرنا عن اسماء الاشخاص الذين اغروك على الدخول في هذه الجماعة ، ان الاطلاع على خبرهم لا بد منه لان الذين سيأتون اليانا منهم كثيرون على جاري العادة دائماً ولكنني احيطت ان يكون ذلك على يدك لاتزال الجزاء الحسن » فهز راسه هز الانذار وقال « ان مثل لي لا يخاطب بمثل ذلك يا حضرة البشكاب » وسكت

فاظهر البشكاب الامتعاض من جفاء عبارته وتحول عنه وهو يقول « لقد اخطأ ظني بك فوضعت امي في غير موضعه . لا بأس » وبعد قليل دخل على رامز خابيط او ما عليه ان يتبعه فمض وخرج معه فوجده يضئع رجال من الجند ينادقونه خارجاً . فأشار عليه الضابط ان يتبعه فشي في اتجاه في طريق واسع يؤدي الى حدائق يلذر الخارجيه ولم يكن دخل يلذر من قبل . فرأى السور الفخم الفاصل بين الحديقتين كاه سور مدينة حصينة وسار به الجند يجاذب ذلك السور حتى عرجوا في بعض الطريق بين الاشجار الغضة الى قصر في باية الحراس بالسلحهم . فأشار الضابط اليه ان يدخل فدخل ودخل احد الحرس معه في دهليز القصر ثم اسعده في سلم ينطلي بالسجاد الى الطبقه العليا ومتى املأه حتى اوصله الى غرفه وقال له « تفضل يا سيد امك هنا »

فقال رامز « ما هو هذا المكان ؟ اين انا ؟ »

قال « لا تخاف ، انك شيئاً وهذا القصر قصر مالطة »

فما سمع رامز ذلك الاسم اجفل وتهيب اذ تذكر ان مدححت باشا ابا الاحرار

جلس فيه حيناً في اثناء محاكمة التي حكم عليه بعدها بالتفوي الى الطائف حيث لاق حتفه

فجده في مكانه من شدة التأثير والحارس لا يزال واقفاً بالبندقية . ثم اتبه وامر لنه فتجدد وقد عل مقعد هناك وكانت الشمس قد آذت بالزوال واقتلت طلائع الظلام فاسرع بعض الفراشين الى ادارة القصر ولابها تلك الفرقه وهي مفروشه بالبطنيه وفيها مقاعد وكراس ومنضدة . وانس رامز في الخادم اطضاً فقال له « اليس في هذا القصر احد سواي ؟ »

فابتسم الحارس واجاب « لا اعلم يا سيدى »

فاقشعر بدنه من ذلك الجواب لانه توقع ان يكون تحته اسرار عنيفة وهو يسمع بيلدر وقطائمه لكتنه تحيد وقال « ايطالب مني ان ابقى في هذه الفرقه ؟ » فشاربه ان يتبعه حق دخل من باب فيها الى غرفة اخرى فيها سرير مفروش وقال « هذا هو الفرات الذي ستقام عليه دولتكم » خاطبه بهذا النعت لأن هذا القصر لا ي benign في الاكابر رجال الدولة

جلس رامز على المقعد وقد اسودت الدنيا في عينيه واستغرق في مخاوفه وأخذ يردد في ذهنه ما سبب في ذيئك اليومين من الاهوال وتحقق انه مقتول بخاشت في صدره عاطفة الاشقيق على شيرين وما يكون من امرها اذا بلغها قتله . وقد ذكر محاسنة البشكاب له وما وعده به من الحسنى اذا باح بخبر الجماعة . وتذكر اساساً فعلوا ذلك وبالروا المكافأة بالأموال والرتب فقد ته نفه لحظة ان يتبعي حياته اكراماً لشيرين ثم غلت عليه الاعنة وعزوة النفس فصم على التبات وهو يعلم أن شيرين لاترضى بالخطيئة منه

قضى هنيبة جالساً مطرقاً ثم سمع وقع اقدام واذا بالخادم يدعوه الى العشاء ولم تكن نفسه تستيق الى الطعام لكنه لم يتأد ان يظهر الضعف فشي الى مائدة كبيرة جلس اليها وحده لتناول الطعام وهو يذكر في حاله ثم نهض الى نافذة توادي الى شرفة نطل على حدائق بيلدر وقد خيم عليها الظلام . ولكن رأى بعض الانوار عن بعد في بعض قصور بيلدر وما بعدها . وجلس على كرسى وقد احس بالوحدة وغابت عليه لوحة وهو لا يعلم مصيره . هل يقتل في تلك الليلة ام يسأل عن اسرار الجماعة ماذا يقول اذا سأله

الفصل الثاني والاربعون

طارق ملهم

ثم شعر رامز برد خفيف ففضل الدخول إلى غرفة الجلوس فدخل وما استقر به للقام حتى سمع حركة ووقع اقدام فاضى وما عُمَّ ان رأى ورجل دخل عليه وقد انتهى يقطن أوابه وتلمس حتى لا يبديو من وجهه شيء غير عينيه . واقبل عليه حتى تناول كرسياً وجلس أمامه . فاشعر بدن رامز وصبر لبرى ما يبديو منه فيبادره الملام بالسلام وسماء باسمه فاجفل ولكنه رد التحية فقال الرجل « قد اتيتك بصيحة ارجو ان تقبلها »

فهز رامز رأسه هزة الاستفهم كأنه يسأله « ما هي ؟ »

قال « انت شاب في مقبل العمر فلا تلق بنسك الى التهلكة »

فاستغرب بهذه الصيحة من رجل لم يسمع صوته من قبل فقال « واي تهلكة » ، قال « أنا اعرفك واعرف احوالك اذا لم تتفق على نسك فاشفع على شيرين » ، فلما سمع اسم خطيبته ارتعدت فرائصه وتواته الدهشة وجعل يتغرس في عيني الرجل وفي قيافته فلم يذكر شيئاً عنه وارجع عليه فقال الرجل « لاستغرب اطلاقي على حقيقة حالك ليس في هذه القصور احد يعرف ذلك سوى وقد علمت ما كان من عدك اليوم عند البشكاب وعلمت ان ذلك يذهب بحياتك وحياة خطيبتك فلا تتسلم للجهل فان ذلك ثابت عليك . ولا سيل للنجاة من القتل بغير الاقرار - يطلب منك فقط ان تذكر اسمه الشبان الذين اغروك على الدخول في تلك الجماعة قتال المفروض المكافأة وتكتب حياتك وحياة شيرين »

قال « وما دخل تلك الفتنة في هذا الامر ؟ »

قال « أنها شريكتك في الجريمة وهي التي كانت تشجعك على تلك المغارات ضد الذات الشاهانية »

فتجلى رامز واظهر الاستخفاف وقال « لا دخل لها في شيء من ذلك ٠٠٠ من انت ؟ »

قال « لا يهمك من انا ولكن معرفة صدق ما اقوله تدرك على اخلاقي في بمحك واذا كنت لا تصدق فاني اطلعك على خطها يدها تشاركك في الفتنة على

جلالة السلطان »

وكان رامز يعلم أن بين أوراقه كثيراً من مكاليم شيرين لكنها لم تكن تذكر اسمها صرحاً فاستغرب اطلاع ذلك الرجل على اسمها وأتها خطيبته فرأى الانكار أولى فقال « لا تبريك لي في هذه التهمة .. دع الكلام عن النساء واما أنا ففي سلسلة عن الجماعة فاجيب بما أراد ».

قال « لافتة من الانكار واما لا اطلب الجواب منك الا زوالكني نسمح لك حتى ادا سللت لا يأخذك الفرور وقتل نفسك واعز الناس عنك .. هذه نصيحتي لك وغداً لاظره قرب ». قال ذلك ووقف وتحول من تلك الغرفة وترك رامزاً يتقلب على مقللي ايجر من الدهشة والاستغراب

ظل رامز وحده وقد أحاطت به الهواجرس والخفاوف وهو يتصور أنه في حلم وسأل نفسه من هو العارق وكيف عرف شيرين وما الذي جعله على النصيحة . قضى في ذلك مدة وهو مطرق وباهت إلى حل وقد غلب عليه التعب لفرط ما قاساه من القلق والاضطراب في ذاك اليومين فذهب إلى فراشه يطلب الرقاد

وقذى اليوم التالي منفرداً وهو في كل ساعة ينتظر أن يأتيه من يستطقه ويستطيع خبر الجماعة منه وهو يعني الاجوبة ويستمع لنباتات على رأيه والحافظة على المعلوم التي اقسم على صيانتها . على أن سيارة الماين اقتضت النظاهر بعدم الاكتثار ولكنهم وسوسوا له على يد البشكاب وذلك لتنشر ما يبعثه على الخوف ويحمله على الاقرار . ولعل القاريء ادرك ان ذلك الماين انا هو السرخنية نفسه وقد اطلع على علاقة رامز بشيرين من مكاليم خصوصية جاءته من صاحب بك وعام انه اذا استطاع كشف سر الجماعة فالجزاء عظيمأ

الفصل الثالث والأربعون

عزت

اما السلطان فإنه سير نفسه الى القد وسأل عما جرى فلما عالم ان الرجل لا يزال متكتئاً رأى ان يختال في استطاعاته على يد عزت بابا لانه يعتقد فيه الذكاء لفرط والدهاء البائع وقد غابه عزت على أمره فقام اليه النظر في اهم شؤون السياسة وادبج معه

الوحيد ومشير الاول وهو الذي اندلع من عواقب مذبحة الارمن . وكان ذلك من اكبر اسباب تقويه ولو تقويق به . فرأى عبد الحميد ان يكتفى باستبعاد رايلز وان كان ذلك خارجاً عن دائرة عمله ولم يتأتى ان يطاب ذلك منه رأساً فذرع اليه في اثناء حديثه معه بشأن ملاقة رواي التي تقدم ذكرها . قبعت اليه فلما جاءه قال له « انت معقدتي في المهام السياسية وقد جاءني الصدر بغير ملاقة رواي فهل عالمت بذلك » فقال عزت « لا اكذب جلالته مولاي البادشاه ان هذا الخبر من الاعية يمكن عظيم لكنني لا اتوقع تغيفه لاختلاف الاول في المقادير والاغراض وان كان ذلك لا يمنع سعينا في سبيل افادته »



عزت باشا العابد

قال « هل دبرت شيئاً بشأنه ؟ اني شديد الثقة بك »
 قال « ان هذه الفتنة التي لا استحقها تجاهناني عبد ارقاً ابدل حياتي في مصلحة جلالته الساطuan . . . وانا منظر في امر ساعرضه بعد قليل »
 كان السلطان جالساً على كرسيه في قاعة الاستقبال والمحظوظة لا زالت امامه فلما سمع قول عزت تنازعه بازاحة المحفظة الى ما زين يديه وقال « انت تعلم يا عزت انك

موضع تقي بل انت صديقي الوحيد ولا انت الخدم الجزلة التي قت بها دون سواك من رجالى وقليل فيهم الصادق المخلص . ومع كثرة الحائين حولي قلَّ من اعوَل عليه بل افالا اعوَل على سوانِه ٠٠ انعلم ماذَا اطلب اليك ؟ »
قال « اني عبد مولاي طوع ارادته وافديه بروحى »

قال « بارك الله فيك — انت قلام ما نفسيه من صباح اوئل الغدوان الذين يسمون انفسهم الاحرار وكثيراً ما اتاباني بضعفهم وعجزهم عن غير الصباح وقد كفاني متبر باسا سفيرنا في باريس مؤنة كثرين منهم حتى اضمحل شأوه وأخلط جميدهم . لكنني عامت بالاسن اتهم استancoوا النهوض على سيدل آخر غير الصباح فالقوا جميه في سلايريك دخل فيها كثرون من جنودي اغراهم اوئل الخوارج على الاشتراك معهم . جاءني خبرهم على ايدي الحيبة لكنهم لم يعرفوا اصحاب هذا المعنى لازهم شديدو التكتم . غير ان نالم بك قوم مدان مركز سلايريك يمكن بواسطة احد الخفية من القبض على واحد منهم وحمله اليها مع اوراقه وهي هنا في هذه المحفظة . وقد قرأتها وفهمت منها ان اوئل الملاعين عملون بدعاهم وهلة وبهمني الان معرفة الاعضاء العاملين في هذه الجماعة .. وهذا لا يمكن الاطلاع عليه الا من هذا الرجل وهو الان مسجون في قصر مالطة .. ويظهر انه صعب المراس فلم ارد ان اكلف باستطاقه سواك لما اعهدته من ذكائك — وان كنت لم اكاففك بذلك هذا الامر من قبل — وهذا يدلك على مبالغة تقي بك »

وكان عزت يسمع كلام السلطان وهو مصحخ والذاك ينبع من عينيه ومخترق اقضى ضمير السلطان فلما فرغ من كلامه قال « لم يكن امر هذه الجماعة غريباً عن عبدكم ولا اما ساكت عنها وان كنت لم اذكر شيئاً من امرها مولاي البادشاه تحفياً عن التوبيه بيري على الدولة ومقاومة المارقين الاغرار — ان هذه النهاية لم يكن منشأها في سلايريك فقط لكنها ظهرت في الشام وكانت تشنعل تارها لوهما ابدارها بما يلزم فقط مللت دابرها من هناك .. »

قد ظهر عبد الحميد الى عزت نظر الرضى والارياح وابتسام وعيشه تتلا آلن بالدمع كله دمع الانعطاف والاعجاب بحيث يترم من يراه كذلك انه مثال الاخلاص وصدق الاهجة .. وكثيراً خدع جلاءه هنا المنظر منه حتى عزت تمع طول اخباره وبالله وفطر دهائه كثيراً ما كانت هذه النظارات تؤثر فيه وهو يقابلها بالاخلاص وصدق الخدمة في مصالحة السلطان .. وهم عزت ان يتم حديثه فطلع عبد الحميد كلامه قائلاً

دبورك فيك من صديق مخلص . . قد علمت ذلك من السر خفية . . وهذا عهدي باخلاصك . . فالآن صرت أتوقع أن تكشف لنا أمر جمبة سلاييك من هنا السجن أقول . أه ؟ »

فثار عزت مطيناً وقال « أني قاعل بتوفيق الحضرة الشاهية المقدسة التي أفادها بمنفي وأهلي »
فهض السلطان وهو يقول « إن صدرى يشرح كل ما رأيتك وأشعر إذا كان ذلك باسم آنه مقضى »

فهض عزت واستأنذن بالانصراف ومضى إلى قصره وخارجه مشتملاً باسم رامز وكيف يحمله على الاقرار - واعمل فكرته في هذا السبيل وهو شديد الرغبة في إفاذة السلطان من تلك الجماعة الجديدة فينقذ نفسه أيضاً لاته واقع بما وقع به هو . على أنه كان يرى في هذا السبيل وهو مقتضى أنه يخدم الدولة به لاعتقاده أن الاحرار لا يعنون أن يعيشوا على أمر كبير فبرى وجودهم عترة في طريق الأحكام . اضفت إلى ذلك ما يخشأه من نجاحهم على حياته وهذا وحده كاف ليوجه الخطأ في اعتمادهم واتهم على ضلال . فهو مضطر بطبيعة الحال أن يبذل جهوده في خدمة مصالحة الاطنان بقاومة الاحرار ففي يومه وهو يذكر وبات تلك الآية وبكر في الصباح فبعث إلى رامز أن يأتي إليه معززاً ملرياً . وكان قصره في الطرف الآخر من يلدز قصر ان يعمد إليه را ز في سريرته

الفصل الرابع والأربعون

الاستنطاق

وكان رامز قد ملأ الاستئثار بيف على مصير أمره . وأصبح في ذلك اليوم قلبى يما به وتناول الفطور وهو غارق في هواجه وإذا يوقع حوافر الخيل قرب التصر فاقفل ونهض إلى شرفة تطل على الطريق فرأى منارة غيرهاتان من جياد الخيل ثم سمع شيئاً في الدهاينز وإذا بالخادم قد أتاه مسرعاً وهو ياتسم ويقول « اقدم . . تفضل إلى المركبة »
فقال « إلى أين ؟ »

قال « ان مولا ناعزت باثا يدعوك اليه وهذه من كتبه بالباب »
 فاستغرب تلك الدعوة ولكنك تجده ونزل الى الباب فرأى جاويشاً واقفاً بانتظاره
 واما اليه انت يركب دركب الجاويش بجانب السائق وسارت المركبة الى
 قصر عزت

وبعد بعض دقائق رأى نفسه بياب ذلك القصر فاستقبله احد الحجاب بالاكرام
 ودعاه الى الصالون فدخل وهو يفك في ما عاه انت يترب على تلك الدعوة فدعاه
 الحاجب الى الجلوس وبعد هنئه اقيل عزت وبيده جريدة يطالع فيها ويعثي المطروبين
 بدون اكتذاب. فوقف له رامز ولم يكن يعرفه من قبل . فرأى كهلاً ريمة من الرجال
 يلوح الذكا في ملائحة وكان يسمع بهاته وتعقبه قريب من منظره
 دخل عزت الصالون وهو لا يرفع بصره من الجريدة كانه مستغرق في المطالعة ثم
 رفع بصره بفتحة وحجا رامزاً وأشار اليه ان يجلس وجلس امامه وينهياً متضمنة وقال
 « انت شيئاً يا رامز اقصدني ؟ »

قال « نعم يا سيدى ولی الشرف بذلك »

فديده الى جيده واخرج عليه مرصعة استخرج منها سيارة قدمها له وهو
 يقول « ربنا استغرب بعيتك الى عندي .. بعد ان كنت تتوقي ان تؤخذ الى السر
 خفية او غيره من الجاويش . الا تعدد ذلك اكراماً خصوصياً ؟ »
 فقال « قد علمت يا سيدى وعرفت هذا الفضل لكم »

قال « لا بشفي لي ان اتحقق السبب الذي دعوتك من اجله الى هنا .. اعلم انى
 قد استأذنت في مخاطبتك شخصياً من جملة الابداش لما بالغت من الخطير الذي يهددك
 وقد علمت انهم لم يحسنوا التفاهم معك في الامر المطلوب منك فاحببت ان آخذ هذا
 الامر على عاتقى وتمهدت ان اخشعك الصيحة فهل انت عارف قدر ذلك ؟ »

قال « نعم اقصد »

فقال عزت وهو يعتدل في مجاله « انا احب ان اباحثك وابين لك وجه الموارب
 وانت تخذل الطريق الاساح .. لا اهددك بالقتل ولا حاجة لي ان ابين لك الخطير
 الخحق بك فات اعقل من ذلك . انا اسألك عن السبب الذي حملك على الدخول في
 تلك الجماعة المدعا تعلم اتها من الجمادات الفارة ؟ »

قال « لم افهم مرادك بالضرر هنا »

قال « قد احسنت الاستفهام .. غارم .. ان مرادي بالضرر هنا ان وجردها

مضر لـ «نهاية الدولة»

قال «كيف يكون ذلك وغرضها الاصلي انفاذ الدولة من الاضرار .. هل تأذن لي ان اخاطلك بعربية؟»

قال «أني في غاية المرور من حرية فكرك .. تفضل قل ما تريده»

قال «هل اقول بعربية؟»

قال «قل .. لا تخاف .. انك تناطح وجلاؤركه لا يحرّك ولم ير بذلك او اذنه ان اقر انك خاطر لم يخطر له .. وقد تبصّرت في هذا الامر ميلًا ولو وجدت فيه عيًّا مارجع عنه»

فابتشر رامز بهذا التصرّف وقال «هل سبق انك ذكرت في اخلال المفcken في جسم الدولة؟»

فثار برأسه وعينيه ان «معلوم»

قال «ذاك كنت تعرّف بوجود اخلال «لتجاهل ان سيه سود الادارة»»

قال «لا انكر ذلك .. ان الحكومة تحتاج الى اصلاح .. لاشك في ذلك»

قال «هذا هو الامر الذي نحن ساعون فيه»

فأبقي عزت وقال «هذا هو وجه الخطأ .. نحن متتفقون في تشخيص الداء ولكننا مختلفون في وصف الدواء»

قال «اشكرك يا سيدي لا اطلاق حرية الكلام لي .. اني استغرب ان يكون هناك وجه للخلاف في الملاج .. اذا كانت احوال الدولة مختلفة كا تقول فالخلاف لما من الحكومة الحاضرة وابدالها هو الدواء الوحيد»

قال «اطلك تعني ان تغلب الحكومة من الاستبداد الى الدستور»

فبادره قائلاً «معلوم وهل من طريق آخر»

قال «هذا كلام جيل ولكنه اثنى بالحال الشعري منه بالرأي السياسي .. هل نقلن الامة العثمانية مستعدة للدستور؟»

قال «نعم»

فتتحجّح وهو يسخّن فمه بنديله وقال «لو كانت مستعدة له لم تضيعه بعد ان ناله .. او كذلك انت الذات النهاية منحت الدستور لرعاياها وهي تؤدي من صحيحاً القلب ان تكون الامة في استعداداته .. ولكن ظهر بعد ذلك انه كان السبب في اطراف ولولا حركة مولانا السلطان لا ادرى كيف كانت حالة الدولة بعد الاعوجاج الذي ظهر من الراب

والانقسامات التي آلت إلى زيادة ملامح الدول .. إن الشعب الشرقي على المدوم والمعتاد
على المخصوص لا يصلح للحكم الدستوري ..
فاستأنس وأمز بذلك الكلام وقال « أنا لا انكر عليك أن الحكم الاستبدادي
إذا تولاه رجل عاقل عادل كان أسرع نتيجة في الإصلاح ولكن ..
ولتكن مكتفيًّا بقطعة السامع

الفصل الخامس والأربعون

الخوارج

فيأدره عزت قائلًا « اسمح لي أن أقول بمحنة ثامة إن السلطان عبد الحميد مظلوم
في أحكام الناس أنه اشدهُ غيره على سلامته الدولة من أي واحد منها لافت في سلامتها
سلامته وتأييده سعادته ولم يعدل عن الحكم الدستوري إلا غيره على هذه الدولة التي قد
احدق بها مطامع الدول من كل ناحية وهو وحده يدها وذاته وشهره قد حافظ
عليها واستبقها . ولو لم يتدارك الأمر بنفسه لاختلت وتقاسمها الدول .. أنا أعلم الناس
بالمقدمة . صدقني »

فاطرق رأمز عند سماع ذلك وكاد يقتضي أنه مخطئ ، لوم يسدرك الامر فقال « بالعجب
كيف يقول هذا وليس في الدنيا رجل واحد يوافقك عليه . قد أجمع الناس قابلة
من عتايين وغيرهم أن الخلل المستحوذ على هذه المملكة أثابيه سوء الادارة الحاضرة
وخصوصاً لاتها في قضية الملايين وآهله . سأعني على هذا التصرع »

ففتح رأمز عزت ملء فيه وقال « هنا هو موضوع الخلاف ومنه منتأ المناع .. وسبب
ذلك أنا نسيـ « الفتن بسلطاناـ والاجاب يسعون في توسيع الحرق وتفرق قلوبناـ .
قولـ أنـ الدنياـ كـاـمـاـ تـعـرـفـ بـاـنـ سـبـ الـاخـلـالـ مـنـ الـلـاـيـنـ وـاـنـ أـقـولـ أـنـ سـبـ هـنـاـ
الـاخـلـالـ أـنـاـ هـوـ مـنـ الشـبـانـ الـذـيـنـ يـسـمـونـ أـنـقـبـهـ الـاحـرارـ وـخـنـ نـسـمـيـمـ الـخـوارـجـ .
هـمـ يـدـمـنـ طـنـونـ وـيـصـبـحـونـ رـجـاءـ أـنـ يـعـدـ جـلـالـةـ السـلـطـانـ إـلـىـ اـسـكـنـهـ بـالـنـاصـبـ اوـالـلـالـ
عـلـىـ جـارـيـ العـادـةـ لـاـ انـكـ عـلـيـكـ أـنـ يـنـهـمـ اـنـاسـاـ يـعـمـلـونـ بـاـخـلـاسـ وـلـعـكـ وـاـنـدـ منـ
اـوـلـكـ اـخـلـصـينـ وـلـكـ الـبـاعـتـ الـاـصـلـ اـنـاـ هـوـ طـلـبـ الرـزـقـ ... قـدـ مـضـىـ عـلـيـهـ تـلـافـونـ
سـنـةـ ظـهـرـواـ فـيـ اـنـاثـيـاـ يـظـاهـرـ مـخـلـفـةـ اـنـتـهـ دـائـيـاـ بـاـيـشـتـ قـوـلـيـ . يـظـاهـرـ اـنـكـ حـدـيثـ
الـعـدـ فيـ هـذـاـ الـامـ وـقـدـ اـدـفـعـتـ بـتـيـارـ الـافـكـارـ الـافـرـنجـيـةـ الـتـيـ بـنـهـاـ الـاـعـدـاءـ فـيـ رـعـاـيـاـ

الدولة باسم المستور او الحرية وقد قاتلهم ان كل امة حالاً غير حال الامم الاخرى .
لو تركوكنا وشأننا لكان في خير — ليس هم اكثراً غيرة على دولتنا من جملة الادشاه
انه مافق ، بعد ان اخذت على عاتقه اصلاح الدولة وهو ينتهي «المدارس العالية لتخرج الشبان
التعلمين ليتولوا مناسب الحكومة . ولكن او تلك التخرجين اكثراً كثیراً من المناصب الموجدة
فمن لم ينزل متسللاً يغضب وتحتخد الداعمن في الحكومة ذريعة الاستشهاد بالحال . لأن جملة
السلطان كان يقطع السنة الطاعنين احياناً بالاعضا ، ويقبل النادحين منهم ويحسن معاملتهم
وذكرها الى كون وفتنتوا في الاسباب والقرائن وقدروا الافرخ في جميع اتهم السرية .
« الجماعة التي تشكلت الان في سلانيك ليست الاولى من نوعها او كذلك انه لا يعنى برها
وجيزة حتى يأتينا المقالة من اعضائها ويرجموا الى رضى الذات الشاهانية .. فاري ان
نكون انت اعتقادكم وانا اضمن لك جيانتك وكل مازريده وغاية ما يطلب منك ان تخبر
جملة السلطان عن اسماء الاشخاص القائمين بهذا العمل اعني المؤذرين اصحاب هذه
الفساد وهم قليلون ... هذه نصيحتي لك »

وكان رامز يسمع هذا الكلام وهو مطرق يفكر فظنه عزت بانها قد اقتنع ولا
يلبث ان يوافقه فقال له « من هؤلاء المؤذرون ؟ اذنهم بعض التخرجين الذين كانوا
في باريس او جنيف »

فأنتبه رامز لنفسه وقال « ليس في هذه الجماعة فرق بين مؤسس وغير مؤسس
واو كذلك ان المجموعات التي بدلت من بعض الاحرار في الماضي لم تعد تذكر لأن الامة
تعلمت كيف تطلب حقوقها فانا كنت من عبّي الاصلاح حقيقة هذا هو وقت العمل »
فهز عزت رأسه استخفافاً وقال وهو يضحك « يظهر ان الفرور من ممكن من
نفسك وقد استهواك ما يطنطعنون به من الالاطاف الفخمة كالحرية والمستور وغيرها ..
وانأسف لأن نصيحتي ذهبت عيناً . فاخذت نفسك ما يخلو وقد فلت ماعلي . وسوف
تفترغ بالواقع مكرهاً عند ما تذوق العذاب .. » قال ذلك وغمره من عجله وهو
يستخرج علبة السيكاراة . ثم وقف وهو يظهر العتب او الغضب

اما رامز فظل جالساً وهو مطرق ينظر الى نقش جيل على غطاء المنضدة التي
ادامه وقد استغرق في افكاره . فراغ عزت من كلامه ورامز لا يزال ساكتاً مفكراً
فتوسم عزت قرب الصياغة فتشاغل باشعال السيكاراة ثم رأى الخادم داخلاً بالتهوة
فقد وثار الى رامز ان يتاول الفنجان ففعل وتناول عزت فنجانه وهو يراقب
حركات ذلك الشاب فرأى الاربیك ظاهراً في عياه وقد اخذه السكت فاستأنف

الكلام قائلاً «قد أغضيتك عما سمعته من حديثك لاني أحبك قلته قبل اعمال
الفكرة .. واصح لك يا بي ان تفكر قبل الجواب ثانية تأمل يا يهدوك من الخطأ على
حياتك اذا اصررت على التكتم » وسكت وهو يلاحظ حرارات رامز فرأى حبرته
ظاهرة في حرارة يده وهو يدلي النجحان من فيه وينظر الى ما يعن يديه نظر المفكـر
فقدم له سيكاره وقال « لا الوجه على ما بـدا من سؤـولك بـخلافة السلطان وسـارـ
اـهلـ المـاـيـنـ لـانـكـ لـاـ تـسـعـ اـخـبـارـهـ الاـ مـنـ اـعـدـاهـ وـلـوـ مـكـثـ هـنـاـ جـيـنـاـ وـتـرـفـ
اـبـهـ لـتـحـقـقـ اـنـكـ مـخـلـوـنـ .ـ وـلـعـكـ تـمـوـدـ الـىـ رـشـدـكـ وـتـصـدـقـ اـلـخـدـمـةـ وـرـىـ
صـدـقـ قـوـلـيـ »

وكان رامز قد فرغ من شرب الفهوة فوضع النجحان على المنضدة ونظر الى عزت
وعيناه تبرقان وقال « اذا لم يكن بد من ان اقول شيئاً آخر فاني لا اقوله الا
للسلطان نفسه »

فيـشـ لـهـ وـقـالـ «ـ اـنـتـ خـيـرـ »ـ فـيـ ذـلـكـ وـاـقـدـمـ كـلـلـانـهـ وـاوـسـيـهـ بـكـ خـيـرـاـ .ـ فـاعـنـ
اـلـآنـ الـىـ قـصـرـ كـحـىـ اـسـأـذـنـ لـكـ فـيـ المـتـولـ بـيـنـ يـدـيـ جـلـانـهـ »ـ قـالـ ذـلـكـ وـقـدـ سـرـ
لـتـجـاجـ مـهـمـهـ
ثم وقف رامز واستأنـنـ بالانصراف فـانـنـ لـهـ وـاـتـارـ الـىـ اـلـحـرـاسـ اـنـ يـوـسـلـوـهـ الـىـ
قـسـرـ مـالـطـةـ وـوـدـعـهـ وـهـوـ يـبـتـهـ لـهـ

فـىـ رـامـزـ بـقـدـمـ ثـابـتـةـ وـقـدـ زـالـ اـرـبـاـكـ شـائـنـ مـنـ يـرـتـدـدـ فـيـ اـمـرـ تـمـ يـسـتـقـرـ عـلـىـ رـأـيـ
فـوقـ بـصـرـهـ وـهـوـ مـاـرـبـابـ يـلـدـرـ اـلـخـارـجـيـ عـلـىـ مـرـكـبةـ مـقـنـلةـ دـخـلـتـ الـبـابـ فـاحـسـ عـنـدـ
وـقـوـعـ بـصـرـهـ عـلـيـهاـ بـخـفـقـانـ قـلـبـ شـدـيدـ لـاهـ لـمـ فـيـهاـ اـرـأـةـ تـشـبـهـ شـيرـنـ .ـ فـاقـتـمـرـ بـدـهـ
وـبـعـدـ لـطـلـةـ غـابـتـ المـرـكـبةـ عـنـ بـصـرـهـ فـوـقـ وـقـدـ نـفـيـ حـالـهـ فـيـهـ اـحـدـ اـلـحـرـاسـ بـعـارـفـ
الـبـنـدـقـيـةـ فـاتـهـ وـهـشـيـ وـظـنـ عـشـهـ وـاـهـمـاـ فـيـ ماـ رـآـهـ وـاعـنـدـ اـنـ قـلـقـهـ عـلـىـ شـيرـنـ اـرـاهـ
طـفـلـهـ فـهـاجـتـ اـشـجـانـهـ وـمـاـعـمـ اـنـ دـخـلـ قـسـرـ مـالـطـةـ حـتـىـ عـادـ الـىـ حـوـاجـهـ

الفصل السادس والاربعون

ابوالحبيبة

قضى بقية ذلك اليوم وهو يذكر في ما ي قوله للسلعان وطال انتظاره وهو لا يعلم الوقت الذي سيضرره السلطان لما باته وتهرب من تلك المقابلة لكنه تجد وتشجع وما زال يجول في ذلك القصر متفرداً لا يرى احداً ولم يخرج صورة شيرين من ذهنه وقد هاجت اشجانه، ولما اتفقى النهار ومالت الشمس الى المغيب تكاثفت هواجه وتراءكت قendum في الشرفة المطلة على البوسفور واستقر في افكاره وتصور شيرين بين يديه لعابه او تشکو اليه فتذكر ما شاهده في ذلك الصباح وقال في نفسه « هل يمكن ان تكون شيرين هنا ؟ ما الذي يأتي بها وكيف يمكن ان تجيء .. اغراها بخياطها او هذه روحها جاءت لتعزبتي .. »

وهو غارق في هذه التأملات جا الفراغ لانارة المصايف كالعادة فام يلتفت اليه ثم رأه آتياً نحوه الى الشرفة فاستغرب قدمه وتجاهله فما هو بمحاطبه قائلاً « تفضل اقدم اذا شئت الى الصالون »

فاجفل ووقف وسار نحو القاعة وقبل موته الباهسخ تحنحة اضطررت لها جوارحه وكاد الدم يجمد في عروقه لانها تشبه تحنحة طهراز وابتعد ان يكون هناك لكنه تمنى ان يكون هو نفسه لعله يستطلع منه خبر شيرين . ولا وصل الى الصالون راي طهراز تمنى بقربها وعليه ثوب مزركش بالقصب يابسه اصحاب الرتبة الثانية وقد تقاعس وقطاول واصلاح من شأنه وقتل شاربيه حق كاد يتغير على رامز لكنه ما لبث ان تعرفه فبعث واسنافه بروبيته لاته والد الحبيبة رغم ما كان من نقل روحه عليه فتقدم نحوه وجاء

فرد التحيه وهو يتسم ابتسام الاعجاب ومشي معه الى صدر القاعة ودعاه الى الجلوس وجاس وهو يقول « هكذا فمات بنفك يا رامز ؟ لم يكن الاولى بك ان تسمع نصيحتي »

فاستقل رامز ذلك العتاب وان لم يستدركه من طهراز فاجابه « ما لنا وما مضى يا عمه .. اين هي شيرين الان ؟ »

فقال « شيرين ؟ شيرين الجنة ؟ من يعام اين هي ؟ »

قال «كيف لا تعرفون این هي ؟ »

قال « الذي نعرفه أنها فرّت من سلائقي مع الخادم خوفاً من الواقع بما وقعت به انت فنبعـت الى مناسـير او الى رـسـنة لـان هـا هـنـاك بـعـض الرـفـاقـ منـ اـنـهـاـ واـنـالـاـكـ اـهـلـ الطـيـشـ الـذـيـ يـقـدـيـونـ النـصـارـىـ باـفـكـارـهـمـ وـسـوـفـ يـنـاطـمـ ماـ تـالـكـ ٢٠٠٠ـ قالـ ذـكـ وـهـوـ يـقـتـلـ شـارـيـهـ وـاخـذـ فيـ اـسـلاـحـ القـصـبـ عـلـىـ كـهـ وـطـوـقـهـ كـاـمـ يـسـتـلـفـ اـنـظـرـ رـامـزـ الىـ الرـبـةـ الـتـيـ نـاطـاـ »

فأعمل رامز فكرته في ماسمه واغتفى عما تخلل الحديث، من سوء التعبير وفاد الذوق لأن الأمر للهم عنده أن يعرف اين هي شيرين فقلب على ذهنه صحة ذلك القول لعلمه بالصدقة المتمكنة بينها وبين صديقة لها في مناسير وهي خطيبة صديقه نيازي بك لكنه لم يفهم السبب الذي أوجب فرارها فتجدد واعاد السؤال على طهراز قائلاً « لا فذهب يا عمه اذا سألك سؤالاً ثالثاً . ما هو السبب في فرار شيرين ؟ »

فضحك ثم قطع السعال فشك و قال « سبب فرارها انت .. الا تعلم انك اوقعنا جميعاً تحت غضب الذات الشاهانية ولو لا صديقنا صائب بك لكننا تحت طائلة القصاص مثلك .. ولكنك » بلغ صدق عبوديتها إلى مولاها السلطان فكفاها بالتلطيف والرتب . أما تلك الجاهلة الحمقاء فابت الا العنداد وقد وقووا على اوراقها بين اوراقك تشتراك فيها معك ومع اصحابك في المفاسد وقد علمت هي بذلك فبدلاً من الاعتذار اسرت على عنادها وخففت القبض عليها ففررت »

قال « وـأـينـ وـالـذـهـاـ ؟ »

قال « سارت للتقبيل عنها في مناسير . وهي لا تقل طيشاً عنها - مع اني كثيراً ما اندرتها بهذه العافية منذ رأيت قيمتك على جلالـةـ اـخـلـيقـهـ اـمـيرـ المؤـمنـينـ - وـاـنـ لـوـ لاـ سابقـ عـلـاقـيـ بـالـحـومـ وـالـدـكـ لـمـ التـفـتـ إـلـيـ وـلـكـ فـأـبـيـ طـيـبـ وـقـدـ وـصـلـتـ إـلـيـ يـلـدـزـ فـيـ هـذـاـ الصـابـاحـ وـلـقـيـتـ كـلـ اـكـرـامـ وـاحـتـفـاءـ مـنـ سـعـادـةـ الـبـاشـكـابـ وـالـسـرـخـنـيـ وـسـائـرـ الـبـاشـوـاتـ وـالـبـاـورـانـ وـائـمـ عـلـيـ بـالـرـبـةـ وـعـلـمـ مـنـهـمـ اـنـكـ فـيـ هـذـاـ القـصـرـ فـاستـأـذـتـ فـيـ مـقـابـلـتـكـ لـمـ يـلـمـ اـسـطـبـ اـقـاعـكـ لـرـجـعـ عـنـ عـنـادـكـ . وـقـدـ اـسـكـدـ لـيـ صـائبـ بـكـ اـنـكـ اـذاـ بـحـثـ يـابـهـ مـؤـسـيـ هـذـهـ الجـمـيـعـ يـعـقـ عـنـكـ وـتـنـالـ الجـوـاـزـ وـالـهـدـاـيـاـ وـيـعـقـ اـيـضاـ عـنـ شـيرـينـ - فـأـسـعـ مـيـ وـاقـعـ عـنـ غـيـبـكـ . وـقـدـ فـصـحـتـكـ هـذـهـ النـصـيـحـةـ مـرـأـوـمـ وـمـ تـسـتـصحـ وـوـقـعـتـ فـيـ شـرـ اـعـمـالـكـ فـاسـعـ فـصـيـحـيـ هـذـهـ المـرـةـ قـطـ »

وكان الكلام طهراز ثائراً شديداً على قلب رامز لاسباب كثيرة اهمها انه ذكر فيه

والده ومهـاه المرحوم وهو لا يـعرف متـره ولا يـعلم هو حـي او مـيت - ويـكـنـيهـ منـ اسـبابـ القـلـقـ ماـ سـمعـهـ عنـ شـيرـينـ وـقدـ اـغـضـىـ عـماـ تـخلـلـ ذـلـكـ منـ الـكـلامـ الـبـارـدـ والـدـعـوـيـ الـفـارـغـةـ وـرـايـهـ أـنـ هـمـ يـعـدـ يـتـوقـعـ فـائـلـةـ مـنـ حـدـيـثـ عـمـهـ فـاحـبـ التـخـاصـ مـنـهـ قـالـ «ـآـمـاـ سـامـعـ نـسـيـختـكـ هـذـهـ الـرـةـ وـلـذـكـ قـدـ عـزـمـتـ أـنـ أـقـولـ الـحـقـيقـةـ وـلـكـنـيـهـ اـشـرـطـتـ أـنـ لـاـ أـقـولـهـ إـلـاـ لـلـسـطـلـانـ نـفـسـهـ وـلـاـ فيـ اـسـتـارـ الـمـوـعـدـ الـمـثـولـ بـيـنـ بـيـدـهـ »
 فـضـحـكـ وـهـزـ رـاسـهـ وـهـوـ يـقـولـ «ـ عـفـارـمـ رـامـزـ »ـ مـتـقـابـلـ جـلـالـةـ السـاطـلـانـ فـلـأـنـخـفـ عـنـهـ شـيـئـاـ وـارـجـوـ انـ تـذـكـرـيـ بـيـنـ بـيـدـهـ وـتـيـنـ جـلـالـةـ اـتـيـ كـثـيرـاـ مـاـ كـنـتـ اـفـصـحـكـ هـذـهـ النـصـيـحةـ - عـفـارـمـ رـامـزـ . وـلـاـ ثـكـ اـنـكـ سـتـالـ الـغـفـوـ هـكـذـاـ اـكـدـ لـيـ مـائـ بـكـ وـسـتـالـ الرـتبـ وـالـأـوـالـ »ـ قـالـ ذـلـكـ وـوـقـفـ فـوـدـعـهـ وـخـرـجـ وـهـوـ بـهـادـيـ فـيـ مـشـيـتهـ وـرـامـزـ يـنـظـرـ إـلـيـهـ وـيـعـجـبـ مـنـ كـبـرـ جـتـهـ وـصـغـرـ نـفـسـهـ وـفـلـهـ عـقـلهـ

الفصل السابع والأربعون

التلغراف

اماـ الـسـاطـلـانـ عـبـدـ الـطـيـبـ فـبـعـدـ خـرـوجـ عـزـتـ مـنـ عـنـدـهـ عـادـ إـلـىـ التـفـكـيرـ بـنـاجـيـدـ بـهـ مـنـ الـأـخـطـارـ وـلـمـ يـكـنـ عـنـدـهـ شـكـ بـنـجـاحـ عـزـتـ فـيـ هـذـهـ الـمـهـمـةـ . وـقـفـيـ بـقـيـةـ الـبـيـوـمـ فـيـ مـطـالـعـةـ التـقـارـيرـ وـبـعـدـ الـمـثـاءـ جـلـسـ لـمـطـالـعـةـ مـاـ كـيـفـاـلـيـ كـالـمـادـةـ . وـاـذاـ هـوـ بـالـحـاجـ قـدـ دـخـلـ يـسـأـلـنـ الـبـاشـكـاـبـ فـعـلـمـ اـنـ جـيـئـهـ فـيـ تـلـكـ السـاعـةـ لـاـ يـكـونـ الـلـاـمـ هـامـ قـمـرـ بـادـخـالـهـ فـقـدـمـ لـهـ نـظـرـاـ فـأـعـامـ مـنـ شـكـلـهـ اـنـ تـلـفـرـافـ قـفـضـهـ عـبـدـ الـطـيـبـ وـقـرـأـهـ فـاـذـاـ هـوـ مـنـ الـاسـتـانـةـ وـهـذـاـ نـهـ

إـلـىـ جـلـالـةـ الـبـادـشـاهـ

عـدـيـ اـمـورـ تـمـ الذـاتـ الشـاهـيـةـ اـطـلـبـ الـأـذـنـ بـالـتـوـلـ لـعـرضـهـ عـلـىـ جـلـالـةـ (ـشـيرـينـ)

فـأـعـادـ عـبـدـ الـطـيـبـ قـرـاءـةـ التـلـفـرـافـ مـرـارـاـ نـظـرـ إـلـىـ الـبـاشـكـاـبـ قـاتـلاـ «ـ اـنـ هـذـاـ اـلـاسـمـ اـمـراـءـ . هـلـ تـعـرـفـهـ؟ـ »

قـالـ «ـ خـيـرـ اـقـدـمـ »

قـالـ «ـ إـلـيـ بالـسـرـخـيـةـ وـامـضـ اـنـ وـأـجـبـ عـلـىـ هـذـاـ التـلـفـرـافـ اـنـ تـأـنـيـ حـالـاـ »

فاثار مطيناً وخرج وبعد قليل أتى السرخية فدفع السلطان التناحر إلى
خلالا قرأه أبضم وقال « إن عجي ، هذه الفتاة فوز عظيم يا مولاي »
قال « ومن هي ؟ »

قال « هي خطيبة الثاب رامز الذي قبض عليه في سلانيك وهو يعتقها
ويستهلك في مرضاها »

فأبسطت اسرة عبد الجيد وهزَ وأسه ولسان حاله يقول « قد ظفرنا بالطلوب
ولمل الفتاة خافت على خطيبها إذا ظلل على عناده لشلا يفشل فانتها لتبיע بالسر
وتتجه » وفظل إلى السرخية وقد استخفه الظرف وقال « مازا ترى ؟ »

قال « الرأي مولاي واظنها سلطتنا على ما يذكره رامز طمعاً في خياله وأذالم
تفعل فان والدها عندنا وهو من اصدق عبيد جلاله السلطان وقد نال المكافأة بارتية
بالامس على يد عبدكم صائب »

قال « هي بنت طهراز بك ؟ »

قال « نعم يا مولاي »

خدق السلطان في ما بين يديه من الاوراق وقال يبنيغي كمان امر هذه الفتاة
عن كل انسان حتى عن خطيبها وأيهام وقف على التلuron وطلب البشكاب قاجاه
فقال « يبنيغي ان يكون عجي ، تلك الفتاة سرًا ادخلها القصر وسلمها إلى نادر آغا وأوصه
بكتمان امرها عن كل احد .. فهمت ؟ »

فاجاب « نعم افديم » ثم انصرف السرخية
وبات السلطان تلك الليلة وافكاره تنافذه والأمل ملء صدره أن عزت سيفوز
في كشف امر الجمة

وجاء البشكاب في الصباح ان شيرين انت وسلمها إلى نادر آغا قبعت إلى نادر
آغا وأوصاه بكتمان امرها ثم جاء عزت وأخبره بما قاله رامز من انه لا يبيع بسره الا
جلالة السلطان فازداد السلطان احتفاء بالفوز وقال « ليأتني في صباح الغد » وعین
الساعة

الفصل الثامن والاربعون

المقابلة

وكان رامز قد بات تلك الليلة متذكرة الافكار واكتف تذكرة في شيرين وقد غلب في اعتقاده أنها فرت الى مناسير وكذب نظره وتهوره انما راي شخصا يشبهها. وفي الصباح جاءه ضابط البانى يدعوه الى الماين الصغير لمقابلة السلطان فلما تحقق الامر تهرب ولكنه تحيله ومشى بين يدي الخفر حتى اتى بباب الماين فتناوله احد الباوران الوقوف هناك ودخل به الى غرفة وفتح ابوابه حتى يتحقق خلوها من الاساهة ثم استاذن له فدخل رأساً بدون واسطة صاحب التشرفات هكذا امر السلطان ومشى متأدباً حتى وقف بباب القاعة التي يقرأ السلطان بها التقارير والقى النجية على جاري العادة ووقف قشار اليه السلطان ان يتقدم واوما الى كرمي وامر بالقعود . فقعد وهو لم يتمود الاداب المنبعة في مثل تلك المقابلات ولم يهنم السلطان بذلك لاضراف فكره الى استطلاع سر تلك الجماعة فصبر هنية ثم قال « ابانا كاتبنا عزت باشا انك اهتم الصواب وترجمت الى صادق العبودية وقد سرنا ذلك ولم نر بآسا من مثلك بين يدينا فاتنا يشرح صدرنا بشهادة خدمة الدولة الصادقين وستتحقق ذلك متى برهنت على اخلاصك لعرشنا »

فasher رامز بالغنى ولم يحب ولكنه غالب عليه التأثر ولو كنت الى جانبه لسمعت دقات قلبه لفطر ما خامره من التهيب لاقدامه على امر لم يقدم عليه سواه . ولكنه تحيله وتتسارك وبعلم ريقه استعداداً للجراب فبادره عبد الحميد قائلاً « تكلم يا بي .. اخبرنا عن اوثاك الماسدين الذين اغروك على الدخول في تلك الجماعة وماظهرون اتهم بريدون الاصلاح واما يطلبون احراب ويقفون عزة في طريق العمل ويغرسون بالشبات العقلاء فيصرفونهم عن خدمة الدولة الى اعمال صيانية .. قل من هم » فتجدد رامز وهو يخالف ان يخونه نقطه ولكن بزداد جرأة تصور شيرين واقفة تسمعه قاحس برباطة جأش لم يعهدوا في نفسه من قبل فقال « هل اقول وانا آمن ؟ قال « قل لا تخف »

قال « ربما قلت اموراً لا يتوقعها جلالة السلطان من مثل وانا اعلم انني اعرض حياتي للخطر وانا يحمني على التصرع بها غيرني على هذه الدولة » فابتذرءه قائلاً « قل ما تريده .. لا تخف »

قال «انا لا اسمي اعضاء تلك الجماعة مفسدين ولا اعتقاد انهم يسعون في خراب هذه الدولة بل انا اعتقد ان المفسدين هم الذين ينقلون الاخبار الى جلالة السلطان ، اعني طائفة الجنوايس الذين يرثقوت بالدسائس والوشايات . «ؤلاء يا سيدى هم المفسدون . . . »

فيقت السلطان عند سماعه هذا التصرع ولم يسمع مثله من احد جهاراً قبل تلك الساعة لكنه على عادته تجاهد واظهر الاستحسان وقال « يعجبني اصحاب الافكار الحرة . لو كان رعایتی كلامهم في مثل هذه الحلة لنجحت الدولة من المشاكل ... قل ما تشاء » فلما آتى رامز هذا التلاطف من السلطان ذهب تهيبه واعتقد انه فائز بما « هو هازم على الاخذ به فابرق اسرته وخطر له في تلك اللحظة ان الاحرار يظلمون عبد الحميد بما يشيرون عنه من حب الاترة والظلم لما ظهر له من لين جانبه وقرب انصياعه الى الحق فقال « اخشى يا مولاي اني غجاوزت حدودي في الجرأة على جلالة الباشاده ولكنني اقول ما يوجه ضميري ... يظهر لي يا سيدى ان سبب الخلاف بين جلالتكم وربماكم انا هو سوء الفهم بما يدسه المفسدون من الوساوس طمعاً في الدنيا ، ولو علم الشبان الاحرار ما عليه سلطانهم من لين اجلاب والرغبة في الحقيقة لما جعلوا ينهم وبينه واسطة فيحسن التفاصي ويذهب ما في التفاصي وهم عند ذلك عبيد طائعون لأن غرضهم خدمة الدولة و . . . »

فقطع السلطان كلامه وهو يظهر الاهتمام بما يسمعه وقال « وانا طبعاً لا غرض لي غير مصلحة رعایتی ورفاقهم ولكنني عاتب على الذين يسيئون الظن بي منهم وينحازون الى الاجانب .. و اذا كان لهم شकایة وجب أن يرفعوها الي لاني لا اعد نفسي سلطاناً عليهم بل انا كالوالد لهم »

فقد دش رامز هذا التلاطف وظن نفسه في حل ولا بد انه خطر له سوء الظن بما يقوله السلطان لانه كان يسمع عن مكره ودهائه ويعلم ان الاحرار لم يقصروا في رفع تظلماتهم الي بالتقارير ونحوها

لكن تلك المقابلة اثرت في اعتقاده وغابت على رأيه وخططاً من يتمهم السلطان بالذكر او الرياء وظن التقارير التي كان يرفقها الاحرار لم تكن تصل اليه — تلك كانت مزية عبدالحميد التي كان يقلب بها اعداءه فان احدهم منها يكن من سوء ظنه به لا يابث اذا جاله وخطبه ان يخرج من عنده مقتعم راضياً حتى كبار رجال السياسة من الباب . وقد اعترف له كثيرون منهم بهذه القوة

ولم يكن رامز من اهل الدعاء والحمدة واتما يشأ في طباعه حرية الضمير واستقلال الفكر لا يعرف الكذب ولا يدرك الرياء والتفاق الا بالسباع . فهو لذلك سريعاً التصديق لما يسمعه فيعتقده على ظواهره . فلما سمع كلام السلطان تأكد انه صادق في ما يقول وجد الله على وقوعه في تلك الورطة ليكون وسيلة لحسن التفاهم بين السلطان والاحرار فقال « اني اعدت نصيبي سعيداً ملتوي بين يدي جلالة السلطان وارجو ان اكون واسطة لحسن التفاهم . وقد انتقد جلالته تفاصلاً وعلمه الاحرار عن رفع شکوام اليه رأساً ولكتني على قمة اتهم ف humili ذاك مراراً فرقووا التقارير المطلوبة عن المدحاة المنهائية وما تحتاج اليه من الاصلاح .. ولم يلتجأ بعضهم الى الاجانب الا يأساً من رسول اوصاهم الى مولام .. »

فهز عبد الحميد راسه هزآلانكاروهو يظهر الاستقرار وقال « اين هذه التقارير؟ الى من رفعوها؟ »

قال « رفعوها الى المأذون يا سيدى .. »

فاظهر القضب وهو يقول « اني محاط بالصوم منافقين بهم توسيع الطرق ليستفيدوا من الزراع .. قد فهمت الان .. » ثم نهى ونظر الى رامز نظر الاستئناس وقال له بصوت متخفض « اكتم ما دار ب هنا واما ساكته وساعدتك الى سجنك كالمادة واوصي الحراس ان يختفظوا بك فلا تفهم ذلك »

فنهض رامز واكب على يد السلطان يقبلها من الفرج والاعجاب واستاذن في الانصراف . فامس الحاجب ان ينقله الى سجنه . خفرج رامز ومشي بين الحراس حتى اعيد الى قصر مالطة وقبليه يطعن سروراً وقد امتلا سدره املاً على انه كان بحسب نفسه في حل

الفصل التاسع والاربعون

الخلوة

لا خلا عبد الحميد بنفسه مشي في الدليل المؤدي الى غرفة الرقاد فوق نظرة على الصورة التي مثلوا له بها مدحت ورجاله فوق عدتها وهو يحدق فيها بعين القدر كما يرى مدحت بين يديه وبهم ان يصفعه ثم حرق اسنانه وزعجر كالشبل الجريح وهو

راسه وهو يتحول عن الصورة وقال «ويل لكم من اشر او اغرار.. تصدقون ان عبد العبد الحميد يصر على وقاحتكم باسم المحبة؟ ابتعل هذه الجحارة يخاطب عبد العبد سلطان البرين وخاقان البحرين؟ حق هؤلاء الفلاحان يزعمون انهم ينصحون لي؟ ان رجالاً يخاطبني بهذه الوقاحة لا ينتهي ان يبقى حياً ..» قال ذلك ومشى الى غلبة البكار فأشعل سيكاراً وفتح دخانه نفحة ملات الفرقة. وانته وهو يقعد على كرسيه طاوب هناك ثم أستلقى عليه وهو يقول «ولكن ما الحيلة في كشف سر هذه الجماعة ومعرفة اعضاها العاملين. اني اذا ظفرت بهم ذهب خوفي .. ان اولئك الاغرار يطلبون الدستور... قد طلبه قبلكم رجال ذوو سلطى وحنكة ودهاء وذهبا واقتلاً وقياً واغرافاً... وأسأفل بكم كذلك؟. لا بد ان اطعن على اسراركم ان لم يكن بالحيلة فالسيف او بالمال او بكل وسيلة. لا ينتهي ان اغول في ذلك على اولئك الاعوان الملائعين — ساخت عنه بنفسه .. ان هذا الشاب عنده سر الجماعة فكيف استخرج له منه؟»

ونهض عن الكرسي وهو يمحك عتنوه ليستhort ذاتكرته وينبه قريحته ثم وقف بفتحة واشراق وجهه كانه فتح عليه او هبط عليه الاطام بالصواب فقال «شيرين!.. هذه الفتاة التي حلها جها رامزاً على القدوم اليانا لابد انها فعلت ذلك وفي خاطرها ان تفتدي حديها بكل شيء.. ومن اعون الامور عليها ان تشتريه بكشف سر الجماعة وهي بلا شك علة باعضاها» ولما خطر له ذلك صفق فاتاه الحاجب فطلب اليه ان يستقدم نادر آغا ومامعيم ان كان ذلك الخصي بين يديه وقد وقف متثباً ولو لا استانبولينا الطويلة التي تزمل بها لباتت ساقاه العلو بياتان مثل سائر الخصيـان. كان الخصيـي يطيل الساقين — وقف نادر آغا وهو يتحفـز للعمل بأمر مولاـه فقال عبد العبد الحميد «اين ضيفتك الجديدة؟»

قال « هي في حرز حرizer »

قال « هل خاطبـها وعرفـت شيئاً من خبرـها؟ »

قال « لو امرـني مولاـي لفـمات ولكنـي لا اجـسر على ذلك بدون اـمرـه »
فضحـك وقال « بورـك فيـك عـفارـم .. اليـهـا »

فضـى نادر آغا ودخل عبد العـبدـ الحـميدـ الفـرقـةـ المؤـدـيةـ إـلـيـ دـارـ الـحرـمـ واـخـذـ فـيـ اـسـلاحـ شـأنـهـ اـمـامـ الـرـأـةـ. وـكانـ شـدـيدـ الرـغـبـةـ فـيـ الـحـافـظـةـ عـلـيـ نـفـارـةـ الشـابـ حتـىـ كـثـيرـاـ ماـ كانـ يـتـخـاطـلـ وـيـتـبـرـجـ تـبـرـجـ النـاسـ طـنـهـ الـفـايـةـ فـضـلـاـعـنـ الـخـصـابـ. ثـمـ جـعـلـ يـخـطـرـ فـيـ الـفـرقـةـ وـهـوـ مـطـرـقـ يـفـكـ حـتـىـ نـادـرـ آـغاـ يـبـنـهـ بـقـدـومـ الـفـتـاةـ فـاصـ بـادـخـالـهـ قـدـخـلـتـ وـقـدـزـادـهـ

التوب رونقاً وركبتها تصطكان من الخوف لاتها يشت ذلك التلفراف ودخلت الماءين وهي كالصائمة ولم تقدر عوقيب جسارتها وأمام قاعد ذلك مدفوعة بالخوف على رامز ورات صائب بك يهددها بالوشاعة بها فسيقته الى القدوم وفي نفسها نحو ما في نفس حبيبه من جهة السلطان واعوانه . اذ لم يكن يدور في خلدها ان من يقبع على اشس العباد ويتوى الخلافة يرتكب ذلك الشطط في سياسة الا وهو يجهلحقيقة حال مملكته . وانه لو عرف الحقيقة لرجع الى الصواب . على انها كانت تتصور ذلك الامر اهون مما هو . ولم تكدر تدخل يلدز وترى قصورها وحدائقها ومبانيها وما ابى في اطرافها من الحeras والاعوان حتى تحيطت وادركت خطأها . وكانت تتوقع ان تستطلع حال رامز ساعة وسوطاً فتطمئن عنه او تشجعه فإذا هي لاذكم الاصلحاً يكأن لا يجاورها احد على سؤال . تخيل طابعه ما رأته من تجاهل الناس امر رامز انه لم يأت يلدز وتصورت ان ناظم بك دس له من قتلها في الطريق وندمت على بعثتها

الفصل الخمسون

شيرين وعبد الحميد

فلا دعيت لمقابلة السلطان تجيء بـ جهود طاقتها ودخلت وعليها اليشمك يغطي رأسها ومعظم وجهها وكان عبد الحميد عند دخولها يختصر في تلك القرفة يظهر عدم الاكتراث . فلقت النحبة ووقفت فشار عبد الحميد الى نادر آغا ان يتصرف واما اليها ان تقعد . فقطات واقفة وهي تسترق النظر الى وجهه فرأيت الشرر يكاد يتطاير من عينيه . ثم رأته يقعد على كرسى وهو يرمي اليها ان تقدم على كرسى بين يديه . فقدمت وقد امتنع لونها وادرك هو ما بها فابتسم لها وقال « انت شيرين ؟ »

قالت « نعم يا سيدي »

قال « يظهر لي انك من اهل الذكاء والاخلاص . فمساك ان تكوني قد حلت علينا خبراً يهمنا كما قلت »

فأربكت ولكنها تمسكت وتجيء وتصورت انها تطلب نجاة رامز حبيب قلبها فقالت « نعم يا مولاي اني لم اقصد على هذه الجمارة الا عن اخلاص وصدق نية »

فقال « قولي واسدقني واعلمي انك في حضرة امير المؤمنين »

فأشارت اشارة الاحترام وقالت «ان ذلك شرف لي» وسكت وهي تود قبل الكلام ان تعرف اذا كان رامز هناك وماذا جرى له . وادرك عبد الحميد ما يجول في خاطرها فاراد ان يجعل رامزاً وسيلة لاقرارها فقال «قد عللت السبب الذي حمل على الجني ، بينما وبيكيدت هذه المشقة من اجله وبيظهر انك خائفة . فلا تخافي اذا كنت تتوبين الاخلاص في قوله والا قاتك ... » وسكت

تفوست في كلامه شيئاً مما خطر لها فقالت «اقسم مولاي اني لا اقول غير ما يدعوني اليه الاخلاص و ... »

فقطع كلامها قائلاً «وقبل ان تقولي شيئاً اعلى انك تتكلمين عنك وعن رجل اخر يهمك امره هو تخت خطر القتل الان »

فلم سمعت لغط القتل اجفلت وقالت «من يعني مولاي ؟ هل رامز هنا ؟ »

قال « هو هنا في أحوزتنا وقد خاطبنيه وسانده سؤالاً جعلنا حياته رهناً على صدق في الجواب فأجاب عن البعض واعترف انه لا يستطيع التصرّح بكل شيء لانه اقسم الايungan المقلّطة على الكهان فلما يقيق سيفيل الى نجاداته فهو مقتول حتماً . الا اذا اتفقني بصدقك » قال ذلك وهو يراقب حركاتها خلسة فراها قد ارتبت في امرها وامتنع لونها وقالت « وما الذي يطلب مولاي مني ؟ »

قال « افي اطلب شيئاً يسهل عليك كثيراً ولا ريب عندي ان رامزاً لولا نفيده بالقسم لنكره بعد ان تتحقق انه مخدوع وربما يرجع الى صوابيه في الند . اما انت فلا يربطك قسم وانت ذي وانقذيه وانقذني نفسك ولا اكلفك شيئاً غير التصرّح لي باسماء مؤمني الجماعة التي تموّنها جمعية الاتحاد والترقي في سلازيك وبذلك تخرين نفسك وتفس رامز وافقك كثيرين وقت عليهم الشبهة وقد يكونون ابراء ، ولا اخسب ان تأخذ البري « بغير برة المجرم »

فاستغربت ان يكون رامز قد تساهل في امر الجماعة ولم يد الباب الذي تمهد فيه لنصرة الحق . اكثراها ما لبست ان عادت الى صوابيها ونذكرت ما يقال عن دهاء عبد الحميد وقرست في عينيه قادرتك بشعورها النسائي ان ذلك الطاغية يخادعها وان رامزاً لا يمكن ان يبيح بشيء فقالت « افي يا سيدي قد طابت المثول بين يدي جلالة الباشا له ان لو عليه اشياء كھلعن بالدولة ربما لم تبلغ اليه بعد ولو علم حقائقها لا وقع فصاشه على غير تلك الجماعة »

فرأى عبد الحميد ان تعريضه برامز لم يغير عزمها فاراد ان يسايرها فقال « ماذَا تعدين ؟ »

قالت « اعني يا مولاي ان الذات الشاهانية لا تصلها اخبار الدولة الا على ايدي اناس بتکببون بالکذب والربا ، فيزبون جلالة السلطان غير الواقع اتخاماً لرضاه ويکثرون

الحقيقة وهم يعلمون ويقرون سداً بيته وبين رعاياه الصادقين الخلقين »
فوجد في نعمتها نعمة حبيبها راى فرأى ان يخادعها فقال « قولي ما في خاطرك اني
احب الاطلاع على الحقيقة »

قالت « ان حالة الدولة في اضطراب شديد ... ليست الجماعة التي تشكك في سلاليك
ما يخف به واعضاها اخلص الرعايا لجلالة السلطان . فلو اخذتم جلالته خدمة واستحلبتم
لانقذ الدولة من مهافي الاصططاط ومن مخالف الاجانب ... ان مطاردة جمعية الاتحاد
والترقي لا تفيد شيئاً لأن الامة كلها ثانية على الحالة الحاضرة لما تكون من النساد في جم
الدولة بما يراه الناس من استئثار رجال المأمين بالاموال لا يهمهم خرب البلاد او عمرت وقد
ادرك هولاً ، هذه الحقيقة فاصبح هم من متصروا الى جمع الاموال لافسحهم واستهلوكوا في
افتاء العقار وخباً المارقون منهم ثروتهم في مصارف اوربا وامييركا وطلبوها أعلى الرتب
والملاصب فنالوها . واستفادوا من الحالة الحاضرة يقدر ما امكنتهم . ولم يفك الواحد منهم
الابن نفسه واولاده ثم بالاقرب فالاقرب من عائلته . وامتحنوا في الوصول المساعدة وتقدّم
الكلمة بالتقرب من جلالتك واستحوذوا على مناصب الدولة ورتبها ونياشيتها ولقابها حتى
وجوه رتبة امراء الممكلة ورتبة بالا العالية الى الشاعر ذوي التيجان والعامّ و قد جرت
معاشرتهم من الخدمة العسكرية ومعاقبتهم من اقصي اليهم . وسقط اعتبار الدولة في عيون
الاجانب واصبح العثمانيون انفسهم المقيمون في البلاد الاجنبية يستنكفون من الاقبال
الى الدولة العثمانية واصبعوا لا يرون علاجاً لذم الحالة الا الرجوع الى الحكم الدستوري
لا كشاف ثقة الدول بعد ان كانت قبيحة الحكم الاستبدادي خروج كثير من الابيات
العشمانية الى سلطة الاجانب او الاستقلال كما حدث في الفلاح لوبالغدات والروملي
الشرقية والبوسنة والهرسك والجبل الاسود والسرد وقبرص وتونس وطاليا ومصر
والسودان وغيرها وعدد سكان هذه البلاد يزدoun على ثلاثة مليوناً كلها خرجت
من سيادة الدولة العثمانية بسو سياسة اولئك المقربين . ولا ريب عندي ان جلاء
السلطان مخدوع بما ينطلق اليه المشغلون الذين لا يهمهم الامصال لهم الشخصية وقد اصبحت
اكثر اموال الدولة تفاق فيهم وسائر اهل الملكة في جوع حتى الجند ... »

الفصل الحادي والخمسون

القادين ج

وكان شهرين تكتمم والاهمام باد في عينيها وكان صوتها في بادى الامر يرتجف وينقطع ثم انطلق لسانها وفاقت قريبتها ولم تم كلامها حتى كل العرق جيئها والسلطان مطرق يسمع ما تقوله ويهجوب من جسارتها ويکاد يتغير غيظاً من اقوالها . وحدثته نهانه ان يذهب بحياتها في تلك اللحظة بطلق ناري من مسدسه لكنه كظم غيظة الناساً للوصول الى غرضه وهو الاستطلاع على سرتللك الجماعة فقال وهو ينظر الاعجب بما سمعه « يسرني ان يكون في محاكمتي نداء من هذه المعرفة وهذه النيرة . ان امة فيها من امثالك بلديرة بالدستور . وكم كنت اود ان اعرف زعماً هذه المعركة لا باحثهم وتفقد على طريقة النجاة من هذا الخطير . واراك مع ذلك تكتفين عني امها . وانا الومك على ذلك لانك لو اخلصت الخدمة لذكرت بعض الذين تقذفون في يوم الايقاف لهذا التغيير . ولعلك تعلمون بعد الان اذا تحققت افي اشد غيرة على هذه الدولة من سواي » قال ذلك واظهر تهامله في استطلاع سر الجماعة لعل ذلك يهون عليها الافرار .

اما هي فظلت ساكتة وقد كادت تصدق ما قاله عبد الحميد من رغبته في الاصلاح . على أنها فضلت السكوت لأن شعورها حملها على سوء الفتن بما سمعته وعادت إلى امر رامز واحتاجت أن تخال في معرفة حقيقة حاله فقالت « اني لا اعرف شيئاً عن اعضاء هذه الجماعة . ولعلني اذا اجتمعت برامز ان نتعاون على خدمة جلاله السلطان في هذا شأن »

قادرك عبد الحميد اتها تكذب وانها انا تخال للجتماع به للتعاقد على الانكار لكنه اظهر الاقتناع بقوله وقال « سوق اجعلك به » ووقف ونادى « قادر آفا »

فأشار إليه ان يأخذها إلى محبسها ويعود فلما عاد قال له عبد الحميد « اخفر هذه المرأة عن عيون الناس كافة وإندر ان تعرف يمكن خطيئها او يعلم هو أنها هنا »

فأشار مطيناً وهم بالخروج فناداه وقال « ماذا جرى بالقادين ج ؟ »

قال « قرب موعد قتلها وهو الليلة »

قال « أرجوك ذلك وقل لها « اني اشتقت لرؤيتها قلت اني بعد القبولة لتلبسي ببابي وحدها . واظنها ستفرح بذلك كثيراً »

قال « انها ستجن من الفرح طبعاً »

فضحك عبد الحميد وقال « افعل كما قلت لك »

فشار مطيناً وخرج

فعاد عبد الحميد الى مناجاة نفسه قائلاً « لا يغدر على استخراج هذا السر منها الا تلك القادين الذاهبة .. انها ماهرة باساليب الجبل وهي تحبني ولكن ... دعني اكشفها بهذه الخدمة وسأرني ما يكون »

وذهب عبد الحميد بعد الغداء الى غرفة المدام وبعد الفيلاولة انت القادين ج وقد اصلاحت من شأوها وكادت تظير من الفرح بهذه الدعوة التي يحسدها عليها سائر القوادين وخصوصاً بعد ان اهملها مده طوباه وهي لا تعرف ذيها

فلما دخلت عليه جبته بالطريقة المعتادة ووقفت تلمس اشارته فقال لها وهو يغازلها

« اذنك اذا شئت اما عنك بعهام السلطة لا اخطر بيالك »

فقالت بلطفة « العفو يا مولاي اني امتك وطوع اشارتك وانت ملاك الرقاب ...

والقلوب ... اني اقبل مو طاقمي واقناني في .. » وتهجدت وتألقت بتقديم الدراعية لتبشه ايها

فادرك انها تشير الى حبها الشديد له فقال « تزعمين انك تحبني ؟ » ومدد يده

ليدخلها في كم الدراعية . فقالت وهي تدبر الدراعية نحو يده « اني اعبدك يا سلطانى ..

يا مولاي .. اني لا اجد عباره اعبر بها عن حبي »

قال « وانا ايضاً احبك كما تعلمين ولكنني شفدت عنك وعن سوانش بقيام بعض الفعلان الملاعين في سلائيك والتفاجئه سرية ويزعمون انهم من الاحرار وانا لا اخافهم طبعاً .. ولكنني احب ان اعرف من هم فاذكرني ذلك صادق خدمتك في الماضي .. هل رأيت الفتنة المكdonee التي اثنا بالامس ؟ »

قالت « وانني لي ذلك وانا في قصرى لا اخرج منه »

قال « ان هذه الفتنة اسمها شيرين قدمت نفسها لي في الصباح وهي خطيبة احد اوكذلك الفعلان . ولا شئ انها تعرف اعضاء تلك الجماعة ولكنها تشكتم وانا اثنا ان اسألهما ثلاثة ترى متي اهتماماً باسمهم . ولا احب ان اكلف احد الخيبة باستطاعتها .. واما اعهد فيك الذكاء والاباهة فهو قدررين على النيلام بهذه الخدمة لاصحاحك القديم »

فائز ذلك التعبير في قلبها واذكرها ایامها كان يظهر لها فيها تقرباً وقالت وقد ابرقت

اسرتها « اني افعل ذلك على الرأس والعين »

وكان قد فرغ من لبس ثيابه فقال « سأمر نادر آغا ان يأخذها اليك لتمكنت
معك بمعرفة الاستئناس بك فابذلي جهلك في استطلاع ذلك السر منها باقرب وقت
بدون أن تشعر .. فهمت ؟ »

لخت رأسها اشاره الطاعة وقالت « أني اخترم مثل هذه الفرصة لا برهن لبدي
وحيبي أني مازلت اتفاق في خدمته »
فابتسم لها وقال « لكن احضرني ان تعرف شيئاً منك خذلي منها ولا تعطيها »
قالت « على الرأس والعين » وخرجت
ثم نادى عبد الحميد نادر آغا وامر « بما يلزم

الفصل الثاني والخمسون

اما رامز فإنه لما خلا بيته في قصر مالطة عاد الى التأمل في ما مر به ذلك اليوم
وما سمعه من عبد الحميد وقد مال الى الاعتقاد بان الناس يظلمون هذا الطاغية بسوء
ظنهم فيه وانه إنما يرتكب ما يرتكبه بغباء اهل الملايين - وقد رأيت انه يغير هم ويفسد
ما ينتمي باللداجة والخداع خوفاً على حياته وتمكنه بسلطانه . قضى رامز بقية ذلك اليوم
وهو ينتقل في ذلك القصر من الشرفة الى النافذة الى الصالة الى المائدة وافكاره تائهة
في ماءعاته ان يتم على يده من الخير للدولة وللامة وتوهم ان اهل القصر صاروا أكثر
إيساراً له واحتفاء به . وكثُر تفكيره في شيرين وودّ لو انه يستطيع تبليغها تلك البشارة
لولا يقتاتها اليأس من بقائه . وتذكر والده وكان قد كثُر ترداد صورته الى ذهنها منه
دخوله يلذر لاعتقاده انه ساع هناك وان لم يقطع الامل من بقائه

وبعد العشاء ذهب رامز الى فراشه وقد طار النوم من عينيه لفترط تأثيره من حديث
ذلك اليوم . وهو يتقلب على الفراش وقد اطافت المصابيح سمع وقع خطوات بباب الغرفة
عقبتها نقرات خفيفة . يجلس على الفراش ونظر نحو الباب وتصئت فرائين توراً يخلل شفوقه
فعلم ان شخصاً قادماً اليه بالصبح فونب الى الباب ففتحه فوجد خادم القصر ويدله
قد يدل فساله عمما يريده فقال « ان رسولًا جاء لاستدعائه »
قال « الى اين ؟ »

قال « الى خارج القصر .. لا ادرى الى اين »

قال « من هو ؟ »

قال « احد حباب الادشاء لعله يطلب ذهابك الى جلالته »

فتوسم بذلك الدعوة خيراً لما سبق الى اعتقاده من حسنظن فاسرع الى نيايه
فلبها واصبح من شأنه وخرج فوجد حرسياً في انتظاره قاوماً اليه ان يتبعه . فشيء في
أثره بين الاشجار وقد خيم الظلام وافت الحشرات والهوام وهدات الطبيعة فلم يسمع
في ذلك المكان غير وقع خطواتهما حتى وصل الى الشارع الحبيب بسور الحديقة الداخلية
و فيه بعض الانوار . واتصالاً منه الى باحة يلذر المؤدية الى الماءين الصغير فتصور رامز
ان الحرسى ذاهب به الى ذلك الماءين فابتدى ان رآه عرج في طريق الى اليسار بين
الاشجار حتى وصل الى باب قصر نقيم فاستخرج الحرسى مفتاحاً من جيبه فتح به الباب
ودخل وأشار الى رامز ان يتبعه فتبعد الى فسحة يتصل منها الى دهليز في اليسار
يؤدي الى غرف يستغرق بعضها الى بعض وقد اثير الدهليز بالنور قبالت جدران
ذلك الغرفة فاذا هي تختلف عن سائر ما شاهده في الماءين وفي قصر مالطة . لأن الجدران
في هذا القصر مبطنة بالاسجة الحريرية (الاطلس) الملوثة بالالوان الزاهية وعليها
اطارات كبيرة لم يقدر ان يتبعها عن بعد . فلما صارا في وسط الدار اشار اليه الحرسى
انه ذاهب وسيعود اليه ودخل من الباب الاين المقابل للدهليز واغلقه وراءه

فاقتضى رامز تلك الفرصة ودخل تلك الغرفة وكلها متrosش بالسجاد الثمين
ونقش سجاد كل غرفة يلام الوان الاطالس المكونة بها جدرانها ولكل غرفة نقش
خاص بالوان خاصة . وآنس في المكان هدوءاً يدل على خلوه من السكان فعلم انه من
القصور التي انشئت بعض المقابلات او الاحتفال ببعض القادمين ولم يدرك سبب
استدامه اليه على انه تشاغل بالترفيع على هناك . فوجد في الاطارات المعلقة بالحبيطان
خرائط متنفسة الصنع مثل خريطة البوسفور وخرائط الرومي والاعاطل والاسنانة
والبحر الاسود من صنع كبار المهندسين العثمانيين اكثراها نافر الرسم بارز يمثل حال
البلد الطبيعية . فاعجبه ان يكون في رجال الدولة من يستطيع ذلك الرسم الجليل . وتأسف
لما حال دون ظهور مواهبه من المظالم والمقاصد

وهو يتأمل في ذلك عاد اليه الحرسى وناداه قبيحه فشار اليه ان يدخل في الباب
الاين الذي خرج هو منه فاطلاعه فرأى نفسه في قاعة واسعة لم ير مثلها هناك فيها
الرياش الثمين فوق السجاد الجليل وفيها الشاشة عليها آية الذخ كال ساعات المذهبة

والتأليل المزخرفة وجدران القاعة مكسوة بالاطاس الاحمر المعرق بالذهب . وفي سقفها زربات كبيرة قد ابترت مصايعها . وعلى جدرانها اطارات فيها خرائط وصور اهلها خريطة الكعبة تخللها مع ماجاورها مجسمة في غاية الانفان . وخلط الحرسى دهشة رامز لما رأه فقال له « أنت في قصر چيت ياسيدى وهو من انفر قصور يلدرن تفضل اجلس هنا حتى يرد اليك الثغر ولا تخسف » قال ذلك وخرج واقفل باب القاعة وراءه بالفتح فاستغرب رامز ذلك ووقف ليتحقق اقبال الباب فوجده قد اغلق اقبالاً محكماً واصبح كأنه والخانط قطعة واحدة . ونظر في اطراف القاعة فلم يجد فيها باباً سواه فاشعر بدنه وتوهم اتها احتجة نصب له ولا يلبث ان يقتل او يصاب بأذى لانه كثيراً ما سمع بغير اسباب القتل في يلدرن . وقول الحرسى « لا تخسف » كانت سبباً في زيادة الخوف

الفصل الثالث والخمسون

باب السر

فشي في القاعة واعد النظر في ماحوله وتفرس في الجدران لعله يرى باباً آخر فلم يجد شيئاً . ومع تألق القاعة بالأنوار احس بالوحشة كأنه في ظلام دامس يجعل يتلاهى بالنظر الى الصور والخرائط المتعلقة على الجدران حتى ملّ مجلس على مقعد بجانب منضدة عليها بعض الكتب يجعل يشاغل بتقليلها وعادت اليه ذكرى والده وهل هو في احد تلك الفصور حياً او سجيناً او هو ميت

وهو في ذلك سمع قلقلة مفتاح فاجفل ونظر الى الباب وتوقع ان يفتح ويدخل الحرسى مخبر جديد ثيبر او شرة . فطالت القلقلة ودله سمعه انها في الخانط المقابل له وليس في الباب الذي دخل منه . فنظر الى الخانط فلم يجد باباً ولا ما يشبهه فكذب سمعه واعاد نظرة الى الباب ثم سمع طقة القفل اذا قتح فاصبح يتوقع ان يفتح الباب فرأى باقياً على حاله ولاح له تغير في ذلك الخانط فالتفت نحوه فإذا قد قتح فيه باب دخل منه شبح ماتفه بلاهة يمساء كأنه خارج من القبر . فاقشعر بدنه وقف شعره وخفق قلبه فهض وقد جد الدم في عروقه وتوهم ان والده خارج من بين الاوتون او عفريت من الجن شق الخانط وخرج منه نحو ما يسمع في اخبار الف ليلة وليلة

ولم تمض لحظة حتى كشف ذلك الشبح الملامة عن راسه فاذا هو عبد الحميد بباب النوم وعليه يرنس ابيض كالملامة قد هش رامز واستغرب خروجه من الحافظ ولكن ظلّ «واقفاً» مكانه وقد اصطكى ركبته

فلا صار عبد الحميد داخل القاعة اغلق الباب واوصده من الداخل فعاد الحافظ كما كان وتقدم نحو رامز وعلى راسه عامة صفتة تشبه الكلسيكت وقد التفت باليرنس وابتسم تحفيفاً لما تولى رامزاً من الرعدة . فاستأنس رامز به وتقدم نحوه وجاه ويداه ورعنان فقال عبد الحميد « لا تخاف يابني اي جثتك من هنا الباب السري المستطرق الى المأذين لاخاطبك في امر لا اريد ان يشعر به احد من اهل هذه القصور » قال ذلك وهو يقعد على مقعد هناك وأشار الى رامز ان يقعد فقعد رامز وقد اطهان خاطره واصبح في طفة للإطلاع على الفرض من تلك

الجلسة السرية

واما عبد الحميد فإنه ليث هنية وهو مطرق لا يتكلم كأنه يغدر في امر هام ورامز ساكت وكله آذان للسمع . ثم فتح عبد الحميد الحديث قائلاً « لا حاجة بي ان اوصيك بكلّهان هذه الجلسة عن كلّ بشر »

فأشار مطمئناً

قال عبد الحميد « ان حديثك بالامن عن اهل المأذين كان له وقع شديد في نفسي وما زلت من تلك اللحظة وانا افكر فيه فوجدتكم مصيبةً وتحفقت ان هؤلاء الاشرار اصل هذه المتابع غير اي اصبحت مقيداً بهم لكرزتهم وكثرة اعوانهم ولا ادري كيف انخاص منهم » وتخنج وهو يتلفت كأنه يخاذل ان يسمعه احد ورامز مصغ وقباه يتحقق تطلعماً لا يسمعه

قال عبد الحميد وهو يخفض صوته « فرأيت ان استبشرك في الامر سرّاً ولم اثأر ان افعل ذلك في قصرى كالعادة لكرزة المرافقين والجواسيس على » وعلى كل تاطق حتى الخدم والطواشية حتى النساء والجواري فانهن يتلخصن على لسان ما يقال فاخترت هذا المكان وامررت الحرسي ان يأتي بك اليه لتكون سجينًا فيه بدلاً من قصر مطالعة ، واوصيته ان يغلق الباب عليك ويدعب وهو لا يعلم بوجود هذا الباب السري . فالآن نحن هنا في امان فالناصح لي في الطريقة التي راها »

فاطهان خاطر رامز واصبح لفراة ما يسمعه يظن نفسه في حالم ولكنه تأمل بما هو فيه فتحقق انه في يقطلة فقال « يأمر سبدي الباد شاه بنا يريد فالي طوع امره

بكل ما فيه مصلحة الأمة والدولة »

فتهنـد عبد الحميد وقال « آمـك اسعـ هـانـنـ الـكـامـتـنـ (الأـمـةـ وـالـدـوـلـةـ) مـنـ بـحـيـطـ بـيـ منـ المـقـلـقـنـ فـلاـ يـؤـرـ فيـ قـوـلـمـ لـاـهـمـ يـخـادـعـونـيـ وـاـخـادـعـهـمـ وـيـخـافـ كـلـ مـنـ صـاحـبـ حـقـ استـفـرـقـتـ فـيـ الشـطـطـ وـارـتـكـبـتـ اـمـورـاـ اـرـجـوـ انـ يـحـمـوـهـاـ اللـهـ مـنـ سـجـلـ اـعـمـالـيـ اـذـاـ رـجـعـتـ اـلـىـ الصـوابـ » قالـ ذـلـكـ وـصـوـتـهـ يـخـتـقـ كـانـ يـبـهـشـ لـبـكـاهـ . وـرـأـيـ وـاـمـزـ فـيـ عـيـنـيـ دـعـتـنـ تـلـلـاـنـ وـهـوـ مـطـرـقـ كـالـاـدـمـ الـآـسـفـ . فـتـأـثـرـ مـنـ مـنـظـرـهـ وـشارـكـ فـيـ الـبـكـاهـ وـلـمـ يـبـقـ عـنـهـ شـكـ فـيـ صـدـقـ قـوـلـهـ لـكـنـهـ ظـلـ سـاـكـنـاـ

الفصل الرابع والخمسون

المهمة الكبرى

فحـ عبدـ الحـمـيدـ عـيـنـهـ وـاظـهـرـ الـاهـتـمـمـ وـقـالـ « اـحـبـ اـنـ اـتـخـلـصـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـمـاقـبـنـ الـحـيـطـبـنـ بـيـ لـكـنـيـ لـاـسـتـطـيـعـ ذـلـكـ قـبـلـ اـنـ اـتـوـنـقـ مـنـ اوـلـادـ الـاحـرارـ الـذـيـنـ أـغـرـيـتـ عـلـىـ اـسـاـمـهـمـ وـهـمـ الـآنـ بـعـيـدـوـنـ عـنـ فـاحـبـ اـنـ اـبـاـحـمـ سـرـاـ وـنـفـقـ عـلـىـ طـرـيـقـ نـفـضـيـ بـهـاـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ الـاـشـرـارـ وـنـسـتـمـ حـكـوـمـةـ جـدـيـدـةـ نـخـيـيـ بـهـاـ الدـوـلـةـ . كـفـانـاـ مـاـمـضـيـ .. فـاـهـوـ السـيـلـ اـلـىـ ذـلـكـ ؟ هـلـ اـذـاـعـوـلـتـ عـلـىـ الـاحـرارـ يـسـتـطـيـعـوـنـ الـاخـذـ بـنـاسـرـيـ وـالـنـفـلـبـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ ؟ اـنـيـ اـخـافـ عـلـىـ حـيـاتـيـ هـمـ اـذـاـ اـنـظـهـرـتـ تـفـيـرـاـ فـيـ سـيـاسـتـيـ »

فـاعـتـدـ رـامـزـ فـيـ عـجـلـهـ وـقـدـ اـبـرـقـتـ اـسـرـتـهـ مـنـ الـفـرـحـ وـقـالـ « لـاشـكـ يـاسـيـديـ اـهـمـ يـسـتـطـيـعـوـنـ . وـلـأـخـفـيـ عـلـىـ جـلـالـةـ الـبـادـ شـاهـ بـعـدـ اـنـ رـأـيـتـ حـسـنـ ظـنـهـ فـيـاـنـ الـاحـرارـ هـذـهـ الـرـةـ ظـلـفـرـوـنـ يـلـاـرـبـ لـاـهـمـ اـجـتـذـبـواـ الـجـنـدـ اـلـىـ حـزـبـهـ . وـلـيـبـقـ ضـابـطـ فـيـ مـلـانـيـكـ اوـفـيـ غـيرـهـاـ الاـ وـهـوـ عـضـوـ فـيـ جـمـيـعـ الـاـنـحـادـ وـالـترـقـيـ الـمـقـدـسـةـ فـاـذاـ اـرـادـوـاـ عـلـاـ اـنـفـذـوـهـ بـالـقـوـةـ وـلـاـ سـيـاـ اذاـ كـانـ اـرـادـهـ اـذـاثـتـ الشـاهـيـةـ مـعـهـمـ »

وـكـانـ عـبـدـ الـحـمـيدـ يـسـمـعـ ذـلـكـ وـقـلـبـهـ يـكـادـ يـخـيـرـ غـيـطاـ لـكـنـهـ تـجـدـ عـلـىـ عـادـهـ وـاظـهـرـ السـرـوـرـ فـاـبـسـطـتـ اـسـرـتـهـ وـظـهـرـ الـاـسـبـثـارـ فـيـ عـيـاهـ فـاستـأـنـسـ رـامـزـ يـنـظـرـهـ وـرـقـصـ قـلـبـهـ طـرـبـاـ وـلـيـثـ يـنـظـرـ مـاـيـقـولـهـ عـبـدـ الـحـمـيدـ فـاـذاـ هـوـ يـقـولـ لـهـ « هـلـ اـنـتـ عـلـىـ نـفـةـ باـقـتـارـهـ عـلـىـ ذـلـكـ ؟ »

قال «كيف لا وانا من صميم الجماعة؟ اي وائق بان الجماعة اذا اكبت رضى جلاة السلطان عنها تغديه بالارواح ونقاوم اعداء اشد المقاومة»
فقال عبد الحميد «وما هي الطريقة للمقاومة معهم بهذا الشأن واما سجين في هذه القصور . . لا استطيع اخراج منها؟ »

قال رامز « اذا شاء مولاي كنتُ سفيراً بينه وبينهم » قال ذلك وهو لا يتوقع ان يوافقه السلطان على اخراج من سجن فرآء قد اظهر الارياح الكلية وقال « نعم الرأي هذا . . ولكنني اخاف ان يطلع احدٌ من هؤلاء على قصتنا »

قال « لا خوف من ذلك فان جمعيتنا طرقاً لاتكم لاسيل معها الى معرفة شيء ». وقد رأى جلاة السلطان تكتينا بالامس وكيف ان احدنا يعرض نفسه للقتل ولا يبيع بسرمه ولا غرض لنا الا خدمة الامة والدولة »

فاطرق السلطان لحظة وقال « حسناً لكنني اود المقاومة مع زعماً، هذه الجماعة بجلسة سرية مثل هذه . . ان الخبرة عن بعد لا تشفي غليلاً وعندى امور كثيرة احب تسيبها والاحتياط لها ولا يتم ذلك بالخبرة عن بعد وانا لا يتسر لي اخراج اليهم كاتعلم »

قال رامز « هم ينتشرون بالتلول بين يدي جلالتكم »

قال « لا اظنهم يفعلون اذ تموزهم الثقة بالماين . . فان اهله لم يبقوا للامة ذرة من الثقة بي » وغضّ بريقه

ولم يكن رامز من اهل الدباء كما قدمنا فاعتذر كلام السلطان على ظاهره فقال « انا اؤكّد لهم حسن ظن جلالتكم واحلهم على تعيني وفدي بشرف بالتلول بين يديكم »
فقال « لا يسعنا المطالبة في الاخذ والرد فنبغي ان يكون ذلك الوقف مفوضاً في كل شيء فتنتهي هذه المتابكل في جلسة واحدة تنتقل بها الدولة من حال الى حال . . آه من هؤلاء، المقادير لهم اغروني على الابقاء بالاحرار واقعوني انهم غير اهل الدستور وانا مضطر لاتسامي . . فالآن أنا ملقي حلبي عليك واضع ثقتي بك فمسى انت يتم هذا العمل على يدك . . اذا جاء الوقف فليكن مؤلفاً من خيرة الرؤساء العقلاء، يظهرون انهم آتونا مشروع اقتصادي او علمي او نحو ذلك »

فثار رامز مطيناً وقبله يرقص طرباً وهو لم يصدق ان عبد الحميد يطلق سراحه فقال « ومتى يأمر سيدني ببيانه ذلك؟ »
قال « تذهب في هذه اللحظة . . تخرج من هذه القصور من باب سريري ارشدك

الى علی يد احد تقاضي تخرج ولا يدری احد بخروجك فاذ اصبعوا في الفد نثروا انك فررت . واتما ينفي المبالغة في كثبان ما دار بيننا عن كل احد حتى تصل الى الجمیة وتعرض هذا الرأي في جلسة سرية .. فهمت ؟ » فاجاب براسه ويديه ان « نعم »

الفصل الخامس والخمسون

سعید بک

وبلغ من استثناس رامز عبد الحميد وتصديقه اياه حتى اعتقاد ان المنشور اصبح في قبضة يده . وتنذر كر والده وتلقيه على معرفة مكانه فاغاثن قربه من عبد الحميد السوال عنه فقال « قد حملني لطف جلاله السلطان على ان انجاسمر بعرض مسألة .. هل افعل ؟ » فقال « قل يا ولدي ما الذي تريده ؟ »

فزاده ذلك التلطف دالة فقال « لي والد دخل يلدر منذ بضع عشرة سنة ولم نجد عمل ماذا بجزي له فهل هو ياترى في قيد الحياة ؟ » فاظهر عبد الحميد الاهام بهذا السوال وقال « والدك في يلدر منذ بضع عشرة سنة ما اسمه وما كان غرضه من الجيبي ؟ »

قال « ان اسمه سعید وقد جاء للبحث عن اوراق في قصر مالطة » فظاهر عبد الحميد بالغصة وقال « سعید بک ابوك ؟ قد اغروني عليه وزعموا انه جاء بدسمية لينقم لدحت باشا لانه صديقه وكانت اقتله ثم اكتفيت بمحنة » فاخفي رامز اخوه الاستعطاف وقال « هل ياخ لي ان اراء .. ان ذلك اكبر نعمة على » . « اذا حصلت عليها تقاضي في خدمة السلطان »

قال « طبعاً .. وهل تخشى ان تطالب مني ما تريده بعد ان صرحت لك بمقاصدي — سابع بخارج والدك من السجن في هذه الدقيقة واخرجكما معـاً من يلدر في هذه الليلة » فلم يباكي رامز عن الاكبـاب على طرف ثوب السلطان يقبـله فامسـكه عبد الحميد وقال « انا عائد الـاـن الى قصـري وسـابـعـكـيـ بـوـالـدـكـ معـ حـرمـيـ يـدـخـلـ بهـ عـلـيـكـ منـ بـاـبـ هـذـاـ القـصـرـ كـاـدـخـلـ اـنـتـ . والـحـرمـيـ يـوـشـدـكـ الىـ طـرـقـ الـجـاءـ » قال ذلك ونهض فنهض رامز وهو يقول « اخشـيـ اـذـاـ صـرـتـ الىـ صـلـائـكـ اـنـ يـعـرـفـ نـاظـمـ بـكـ بـقـدوـيـ فـيـعـمـدـ القـبـضـ عـلـيـ »

فقطع السلطان كلامه قائلاً « لا تهم بهذا الامر انا اديره »
 فاءاد شكره وامتنانه وتحول عبد الحميد نحو ذلك الباب في الحالط ففتحه وخرج منه
 ثم اوصده وراءه فعاد الحالط كما كان
 وفي رامز في مجلسه وقد تولته المذهبة واخذ يفرك عينيه للا يكون في حلم فتحقق انه
 في يقظة فقال في نفسه « ما هذه الغرائب المذهبة .. عبد الحميد يطلب الدستور من تلقاء
 نفسه ! اذا تم ذلك على يدي ما اعظم مسروري .. هل ارى والدي الان وابخوه به ؟ رب شر-
 يفتح عنه خير .. لوم يش بي عدوبي ويلقيني في هذه الورطة لم اوفق الى ملاقاة والدي
 ولا الى ما ارجوه من الانقلاب السياسي .. لا اصدق انني اصل الى الجماعة واقص عليها
 اخباري .. »

ونهض وجعل ينظر في الغرفة وهو ينظر الى ساعه دقاقة موضوعة على منضدة منبهة
 فاذا هو في الساعة الثانية بعد نصف الليل واضح بعد الدقائق في انتظار والده .. وقد صبر
 على بعده اعواماً اكثـر، وجد هذه الدقائق اطول منها كثيراً، واوحيـه ذلك السـكوت فاذا
 وزعت ناموسـة اجـله وزـيزـها

وهو في ذلك سـمع وقم خطوات في الخارج عقبها قليلة المـفتاح فـوـتـبـ من مجلسـهـ الى
 الـبـابـ وـوقـتـ يـنـظـرـ فـقـهـ لـبـرـىـ القـادـمـ ، فـتـفـحـ الـبـابـ وـدـخـلـ منهـ حـرـميـ مـلـمـ وـاـنـارـ الىـ رـامـزـ
 اـشـارـةـ التـحـيـةـ ثـمـ اوـمـاـ الىـ الـخـارـجـ ، فـظـارـ رـامـزـ فـرـايـ رـجـلـاـ فوقـ الـكـبـولةـ قـدـ تـغـيرـتـ سـعـتـهـ
 وـطـالـ شـعـرـاسـهـ وـلـيـتـهـ حقـ حـارـكـالـسـاكـ الـجـبـاـ ، الـذـيـنـ لـاـ يـسـوـنـ شـعـورـهـ بـقـصـ اوـ اـصـلاحـ ،
 وـمـعـ اـنـظـارـ رـامـزـ لـوـالـدـ وـاطـلـاعـهـ سـلـفـاـ عـلـىـ خـبـرـ قـدـوـمـهـ قـدـ اـنـكـرـهـ تـغـيرـ سـعـتـهـ عـمـاـ يـعـرـفـهـ اـذـ
 تـولـهـ الشـيخـوخـهـ وـشـابـ شـعـرـهـ وـاسـتـرـسلـ وـامـتـقـعـ لـونـهـ مـنـ طـولـ الـاخـيـابـ عـنـ اـشـعـةـ اـشـمـسـ

اما الـوالـدـ خـلـلاـ وـقـعـ يـصـرـهـ عـلـىـ اـبـهـ صـاحـ « ولـدـ رـامـزـ حـيـيـ ! » وـاـكـبـ عـلـىـ عـدـقـهـ وـاـنـذـ
 يـقـلـهـ وـيـكـيـ منـ الفـرـحـ فـلـمـ يـنـالـكـ رـامـزـ عـنـ الـبـكـاءـ وـقـبـلـ الـدـهـ وـهـوـ يـتـفـرـسـ فـيـهـ . وـمـاـ اـبـيـ اـنـ
 تـعـارـفـاـ وـعـادـتـ الـىـ ذـعـنـيـهاـ الصـورـةـ الـقـدـيـةـ الـتـيـ عـرـفـهاـ كـلـ مـنـهـاـ فـيـ صـاحـبـ فـقـالـ رـامـزـ « اـبـيـ
 يـنـبـيـ انـ اـشـكـ اللهـ عـلـىـ وـقـوعـيـ فـيـ هـذـاـ اـسـرـ اـذـلـوـلـاهـ لـمـ اـوـقـقـ الـرـؤـيـتـ وـالـقـاذـفـ »
 فـقـاطـهـ اـبـوـهـ قـائـلاـ « اـنـاـ القـضـلـ لـرـضـيـ اـمـيـ الـمـؤـمـنـينـ وـمـراـحـهـ قـلـوـ لمـ يـدـبـ الخـوفـيـ
 قـلـيـهـ لـمـ يـاتـ عـيـشـكـ وـلـاـ اـسـرـكـ بـفـائـدـهـ . فـقـدـ اـبـلـغـيـ هـذـاـ الـحـرـميـ اـنـ جـلـالـهـ الـيـادـشـاهـ اـذـ
 يـخـرـجـهـ مـنـ هـنـاـ وـاـنـهـ عـدـ الـيـكـ اـورـآـ خـاصـةـ فـشـكـ اللهـ عـلـىـ نـعـمـهـ فـالـانـ غـنـ هـنـاـ حتـىـ
 يـشـيرـ اـبـيـ هـذـاـ الـحـرـميـ يـاـ تـقـلـعـ »
 اـمـاـ الـحـرـميـ فـكـانـ وـافـقـاـ لـاـ يـكـلـمـ وـلـاـ سـمـعـهـ يـذـكـرـهـ اـسـتـرـجـ مـنـ خـتـ اـبـطـهـ صـرـةـ

دفعها اليها على ان يفتشاها . ففتحتها رامز فوجدها في اسطبل بوليتين مما يلبسه الياوران وأشار اليها ان يلبسها . فعل رامز وهو ينظر الى نفسه في المرأة فإذا هو كالياوران تماماً ووقف ينتظر ما يشير به الحرمي فاستخرج من جيبه ورقة كالبطاقة دفعها الى رامز وقال له بالاشارة ساخراً « لك من هنا ثم تطلق توأماً الى محطة السكة الحديدية فتدفع هذه الورقة الى رئيس محطة فايركيك القطر الى سلازيك » والنافت الى معيد بك وأشار اليه ان يلبس فتوبيك وقال انه لا يستطيع الخروج من بلدز في تلك الليلة بل يفضل ان يصلاح من شأنه قبل الخروج . فاستغرب بهذه ذلك منه وهم وان عترض فأوقفه الوالد قائلاً « لا بد من بقائي الليلة هنا وساتبعك في الخد فلتلتقي في سلازيك . فهل عندك شيك باسم المفدى ؟ »

قالوا

قال «استحيي من نفسي ان اخرج في الاسواق وانا كالــاك .. وقد قفيت في هذا المكان اعواماً وسابق فيه يوماً آخر وفي الغد اخرج والحقك في سلاتيك ان لم يكن في الاتنانة

فناسف رامز على تمسكه بالبقاء وقال في نفسه « لا بد من سبب بعثه على ذلك » فودعه وقبل يده وخرج مع الحرمي فاشار الحرمي اليهـما ان يتبعاه ففعلا بحمل الطارقـ من جهة قصر مالطة. فلما وصلـا اليـه اشار الحرمـي الى سعيدـ ان يدخلـ ذلكـ النـصرـ وامرـ سـرـامـهـ ان يستقبـلهـ باـشارـاتـ يـنـهـمـ فـهمـوهاـ . وـقادـ رـامـزاـ في طـريقـ عـجـبـةـ بـيـنـ الاـشـجارـ حـتـىـ وـدـلـ بهـ الىـ يـابـ منـ اـبـوابـ السـورـ الـخارـجيـ فـتـهـ الحـرمـيـ بـفـتـاحـ مـعـهـ وـاـشـارـ اليـهـ انـ يـنـزـجـ واـذاـ اـعـتـرـضـهـ خـفـيرـ منـ خـفـاءـ يـلـذـ خـارـجاـ فـلـيـقلـ لهـ «ـالـذـاتـ الـاثـاهـيـةـ»ـ وـعـوـشـعـارـهـ فـيـ ذـاكـ الـيـومـ وـيـ اـولـ جـمـيـلةـ نـطـقـ بـهـ ذـاكـ الحـرمـيـ اللـثـمـ مـنـذـ قـدـومـهـ وـسـيـهـ مـعـ رـامـزـ وـلـمـ يـفـعـلـ ذـاكـ الاـ مـفـطـرـاـ وـلـماـ سـعـ رـامـزـ نـطـقـ وـيـدـ صـوتـ يـشـبـهـ صـوتـ عـبـدـ الجـيدـ . لـكـنـهـ لـمـ يـنـتـهـ لـذـاكـ الاـ بـعـدـ انـ فـارـقـهـ . وـلـمـ يـنـظـرـ لـهـ انـ ذـاكـ الحـرمـيـ هوـ عـبـدـ الجـيدـ ثـقـ . وـلـاـ اـعـتـدـ المـاـيـهـ بـيـنـ الصـوتـينـ

الفصل السادس والخمسون

فلسفة ما كيافيلي

بلغ من دعاء هذه الطاغية أنه أراد أن يخفى تهريب رامز حق عن الحرس قلب لباس الحراس ومشى بين يدي رامز حتى اخرجه من يادره . وله من وراء ذلك حكمة لا يدركها إلا الذين فطروا على المكر والدعا ، وبعد رجوعه دخل قصره كيافيلي بعض الحرس الخاص وكان الحرس الذي ليس بيده عبوساً في بعض الفرق فاخرجه وأمره أن يعود إلى موقعه فعاد ولم يشك من رأي عبد الحميد داخلاً بلباس الحراس وخروج هذا على أثر ذلك أنه هو الحرسى الذي دخل

دخل عبد الحميد قصره وكل أهله نائم فزع تلك الملابس وارتدى . نيا بـ نومه ومشى إلى غرفة المطالعة وهو ساكت يفكر في ماذ فعله في تلك الليلة هل أصاب أو أخطأ . ووجد على موقف هناك باقة من البنفسج تعود رئيس الفراشين أن يتحفه بها من وقت إلى آخر لعله أنه يجب رائحة هنا الزهر كثيراً . فتناول عبد الحميد الباقة ونشقها فانتشرت ثم أعادها إلى محلها والتي تغسل على مقعد وتنفس الصعداء وهو يهوي سيكاراً ليدخله . ثم أشعل السيكار وتندد ويسقط وجليه ورفع بصره إلى السقف وقد تألفت تلك القاعة بالأشواط وجعل ينفع الدخان ويتأمل حلقاته وهي تصاعد متتابعة متغايرة وافكاره منصرفه إلى ما أشاهده في ذلك اليوم من الامر الغريب . ثم ناجي نفسه قائلاً ظن ذلك الشاب أني وقفت به وبوعده ويزداد اعتقاداً بصدقى مني اطلقت والدم .. وهو يرى ذلك ثقة مني بهما .. ومن ينقذكم إلى هذا الحد . لكن بقاه رامز هنا لا فائدة منه لاته مصمم على الاتكال ولا فائدة لي من قتله إذا لم أقتل كبار تلك الجماعة الجهنمية .. وزد على ذلك أن شيرين هنا في قبضة يدي وهو لا يعلم فاذأنا علم بعد ذلك أنها رهن عندي على وعده أتمت نفسي في الأنجاز وقد أخبرني صاحب بك أنه يشهد لك في جبهها فإذا جاءتك ولم يفعل ولا هي اعترفت باسمه أو لوك الناس قتلها... ولكن جلبي ستطلي على مؤسسي تلك الجماعة وبرون من اطلاقي سراح أحدهم بعد أن قبضت عليه صدق نيتني في النها آرائهم للإصلاح فيانيني كبارهم ومني أتوا أذنيهم الموت فيخاف رفاقهم وتضعف عزائمهم وتذهب هذه الجماعة كاذبة غيرها من قبلها ونخلص منها »

ثم اعتدل في مجلسه وزعجر كالثقب الجرمح ووقف بفترة وقد اخذ الغضب منه وقال « تبا لكم من اغوار جهال .. لن يبلغ كيكم كيدي .. سوف تذهبون طعاماً للناسك - اني لا ازال اسفك واقتلت حتى تخلي الدنيا من المعارضين لي .. مهما يكن من قفهم بي فاني على رأي ماكيافيلي ٠٠٠ الله در هذا الفيلسوف ٠٠٠ صدق يا ماكيافيلي ان الرجل العظيم لا يستطيع ان يستقل بمحكمة وينجوم الرقباء والحساد الا اذا اغضى عما يسموه الشرف والامانة والوفاء في معاملته اعدائه .. ولا يأس عليه اذا ضحي هذه الفضائل في سبيل الحافظة على الدولة او الوطن وان يستبطأ بالكر والدهاء وهي ما يسميه الجهلاء خيانة وغدرآ ٠٠٠ ليست الخيانة ان احتلال على عدوی حتى اظرف به واقته وانماهو الدهاء - وما فائدة الوفاء اذا اضطرني الى اطلاق سراح رجل اعرف انه يريد قتلي ٠٠٠ بورك فيك يا ماكيافيلي ٠٠٠ نعم اقتل ثم اقتل ٠٠٠ اقتل من شئت به او من تحالف منه شرآ ٠٠٠ ولو على سبيل الشك - تلك هي سياسة كبار الرجال ٠٠٠ وهي التي سار عليها كبار القواد في تأسيس الدول... الم يفعل ذلك ابو مسلم الخراساني فصیر العباسين في تأسيس دولتهم؟.. الم يفعله باسم الامام ابراهيم العباسي الم يقتل على الشك؟ ولو لم يفعل ذلك لما قامت للدولة العباسية قائمة ٠٠٠ فهل يلام عبد الحميد اذا سار على خطوات ذلك الامام وافتدى بأكبر الفلسفه العقلاء ٠٠٠

كان يقول ذلك قوله مقطعاً كأنه يخاطب رجالاً وافقاً بين يديه ولو رأه احد يفعل ذلك لظن أنه أصيب بعقله . فلما فرغ من تلك الاقوال رمى السياكل من يده وتناول باقة البنفسج ومشى يطلب الرقاد في غرفة من غرف ذلك القصر على مقعد او كرسى كالعادة في تستره في النوم حتى لا يعلم احد بمرقده - تأم في تلك الليلة نوماً مقطعاً واصبح باكرآ فيبعث الى الباشكاب وامر ان يستقدم رامزاً في قصر مالطة اليه فاسرع وارسل في طلبه فعاد الرسول وخبر انه غير موجود هناك . فاظهر عبد الحميد الاستقرار وقال « الم يكن هناك في الامس؟ »

قال « نعم يا مولاي ٠٠٠ ولكنهم يقولون ان حرساً من حراس الملايين جاء في طليمه

فقال « أنها حيلة انطلقت عليهم ٠٠٠ كيف تكون هذا الرجل غير من بين ايديكم الله ما هذنا .. اني لا اقسى ان اثق باحد من هؤلاء الجنائن المثونة ٠٠٠ » واخذ يذكر مثال هذه العبارات ويظهر الغضب والحقن والباشكاب واقف لا يرد جواباً . ثم اظهر عبد الحميد انه هداً روعه وقال للباشكاب « ما العمل ينبغي لي ان اتولى كل شيء»

بنفسی حق الاحتفاظ بالسجنهاء ؟ فالرجل فرّ ولا فائدة من تعقب آثاره في الاستانة ولا بد انه عائد الى سلانیک فلنفترض فراره ونستدل على مقر تلك الجمیعة ، واطرق کانه يعلم فكره ثم قال « ارسل تلفراقاً الى حبیبا ناظم بك قل له فيه ان رامزاً الخائن أفلت من ايدينا وعاد الى سلانیک قلبيته ویظہر له الصداقه ثم يراقب حرکاته ويقتضي آثاره بذون ان يشعر به حتى يقف على مقر تلك الجمیعة فيقبض على من يعدهم هناك وليرسلهم الى مکبلین بالحدید او قلیتل ولیفتک .. . فإذا استطاع هذه الخدمة رقیناه واجزئناه »

وكان البلاشکاتب يسمع اوامر عبد الحبید وهو يعجب لدهائه فكتب صورة التلفراص وتلاه عليه فاصلح به بعض الشيء وامر بارساله حالاً تخرج وقبل ما امر بعوده عبد الحبید الى تفکیره فاعجبه ما اثاره من الدهاء فضحك شحذاً يندو ان يضحك مثلها وقال في نفسه مع الاعجاب بالذی اثاره « ينبغي ان ادبر اموری ببنفسی .. و هو زلام اذا سمع اخلاقهم قائم قليلو التدیر » ومشی مشیة الطبلاء وهو يقول « اذا صبح تدبیری قضیت على تلك النقوص النجسة وعلمه من هو عبد الحبید »

ثم وقف هنیه وقد طرق ذهنہ امر شیرین وما دبره من اغراء القاذین بها وهو لا ياشك في انها تتجه في استطاعتها لاعتقاده بدهائتها وذکارها وتدکر ما ياخافه من حلها ووضھما فقال « ومتى فرغت من مهمتها اقتلها لانخاص من حلها »

وقضى بقیة ذلك اليوم في مطالعة التقاریر التي اتهى من جواسيسه البشين في اطراف المملكة وفيها امور هامة لكنه لم يفهم بها بالنظر لاشتغاله بتدبیره الجديد

ولما امسى المساء تربا بزی حرسي الامس واخراج والد رامز من يلدز كما فعل برامز

الفصل السابع والخمسون

الى سلانیک

خرج رامز من يلدز ولم يصدق انه بغا فناداه خفیر واقت علی بضعة امتار من الباب « من القادر » فاجابه « الذات الشاهانية » فوسم له وورحب به ومشی معه حتى يجاوز يلدز واصبح بعيداً عن الفتنون

وطال سیر رامز قبل ان يوصل الى محطة السكة الحدیدية فوصلها في الصباح قيل

مسير القطار فدفع البطاقة الى ناظر المخطة فرحب به وازله في القطار المسافر الى سلبيك في تلك الساعة في عربة خاصة

فلا جلس في المركبة وخلا بنفسه عادت اليه هواجسه وراجع في ذاكرته ما مرّ به من الاهوال في ذلك الليل وأخذ يهيئ نفسه قبل كل شيء بمشاهدة شيرين لأنّه لم يصدق قول والدها أنها هربت وإذا تحقق هربها إلى مناسير أو غيرها سافر إليها . وفكّر في المهمة السببية التي هو ذاذهب بها فلم يخامره شك في صدق عبد الحميد هذه المرة أذ لا صدق بيته في ذلك لم يطلق سراحه وهو أسير عنده ثم اطلق سراح أبيه فأعتقد انه صادق في ما قاله . على أنه استغرب المناس والده البقاء هناك يوماً آخر فوق السنين التي قضتها في اعتقال السجن ولكنّه آنس منه اصراراً فقال لعله عنراً أو غرناً وقد خامره رب من بعاته واسف لتركه ثلاثة يمددث ما يوجب إعادةه إلى السجن لكنه قال في نفسه « لوم يكن للسلطان غرض في اطلاقه ليس ثمة ما يذكره عليه »

قفى الطريق في مثل هذه المواجس وشغل عما يمر بالقطار من التلال والأودية والغابات ووصل سلبيك في الضاحي خارج من المخطة بسهولة بتذكره اعطاء إياها ناظر مخطة الاستانة بعلامات يفهم يفهمونها

ولما خرج من المخطة أخرج متديله من جيشه فإذا فيه ورقة مطوية لم يكن يعهد لها هناك فقضها وقرأها فما هي بخط نذر أنّه خط والده فقرأها فإذا هو يقول فيها « أحذر من صراقة ناظم ورجاله السريين خوفاً من معرفة مقر اجتماعي . افعّل ذلك ريتا آتيك » فدعاها وأخذ يفكّر في ما يبعث والده على هذه الكتابة فيبعثه ذلك على الشك في ناظم ولم يعبأ بما فيها من سوء الظن بالسلطان ولكنّه عزم على المخادرة

فأُول ما خط له إن يفعله في سلبيك أن يذهب إلى بيت خطيبته ولا اطل على المنزل أخذ قلبها بالخلفان وتصور أنه سيلتقي شيرين في المنزل فشعر بذلك أنتهت متابعته وأخطره وصل إلى بيت الحبيبة فرأه مقللاً فسأل الجيران عن أهلها فقص عليه أحدّم خبر ضياع شيرين منذ أيام وان والدها سافر إلى الاستانة وأما والدتها فقد سافرت إلى مناسير للبحث عنها عند بعض أهلها هناك . فأسقط بيده وتذكر قوله طهراز فوجده صادقاً فوقع في حيرة واسودت الدنيا في عينيه وحدّثه نفسه أن يتبع الوالدة إلى مناسير لكنه ماد إلى التفكير في المهمة فنذّر أن تلك الآلية موعد اجتماع الجمعية فغمز على الذهاب إليها وهو لا يخفى انكشف أمره للتدبر الذي دربه في أخفاء مكانها . ولم يشأن أن يؤجل ذلك إلى عجيّ أبيه فذهب إلى التندّق الذي كان يازلاً فيه المناس للراحة فوجد رسولاً من ناظم

في انتظاره وقال له « ان حضرة القومدان يطلب مقابلته للتزحيب به فصدقه وذهب اليه في قصره فرحب به وهناء برضي الذات الشهانية عنه وعرض عليه ما يريد ان يخدمه به فانى على فعله ولو لا الورقة التي وجدها في جيده لونق بقوله لكنه اعتذر انه يطلب الراحة في هذا اليوم فذهب للنزول عنده فاعتذر ومضى الى الفندق وهو يتوقع ان يتبعه الجوايسين فام يلاحظ شيئاً من هذا القبيل

ارتاح في الفندق بقية ذلك اليوم وهو يوم ما سيرته على الجماعة حتى اذا كان المساء مشي الى قهوة تعود الاعضاء ان يتفرقوا في اطرافها قبل الاجتماع ليتواضعوا على مكان الاجتماع وكيفية الوصول اليه

—————

الفصل الثامن والخمسون

نظام جمعية الاتحاد والترقي

واسطلاحهم في نظام جمعيتهم أنها مؤلفة من عدد محدود يقلب ان يكون ٤٢ عضواً هم لجنة الادارة عليهم رئيس يسمونه « المرخص » تخالياً من تعييز بعضهم بالرئاسة فهو لاده الاعضاء يتذارعون ويتحققون غير متذكرين للمباحثة في اعمال الجماعة واصدار الاوامر الى الفروع . أما من يتضمن الى الجماعة غير هؤلاء فإنه لا يتأتى له ان يعرف اعضاء اللجنة معرفة شخصية واما يعترف الشخص الذي يكون واسطة لادخاله فيها وذلك ان احد اعضاء اللجنة اذا عرف شاباً من العتائين آنس فيه ميلاً الى الحرية وحب الاصلاح فربه اليه وتدرج في اطلاعه على وجود جمعية حرر تطلب الاصلاح فاذا احب الاستظام في سلوكها وطلب اليه ذلك وعده بالنظر في طلبه ثم يخاطب اللجنة بشأنه فانا قبلت باعطته رقاً (ثمرة) يعترف به في سجلاتها ودعته للحضور في جلسة سريّة تعينها له بمقررها اعضاء اللجنة متذكرين فيدخل منهاً وقسم العين على الاخييل او القرآن والمسدس ويخرج . وهذا المضى الجديد اذا رأى صديقاً له استحسن شمه الى الجماعة قدم طلبه على يد المضى الذي قدمه قبل اذا قبل يأتي العمالب الجديد للجلسة السرية وقسم العين ويخرج وهو لا يعترف غير صديقه الذى ادخله . واما هذا فصار يعرف اثنين امامه والآخر وراءه . واما دخل اثنين او ثلاثة او اربعة فانه يعترفهم وهم يعترفون

واعتبر هذا التحفظ ايضاً في العلاقة بين الجمعية المركزية وفروعها في الجهات فانها تتفرع اولاً الى شعب (واحد هاشتبه) في المدن الكبرى والشعبية فروع يقال لها قولات « واحد ها قول » وكل شعبة او قول مكون من لجنة ادارية لها رئيس واعضاء مثل الجمعية المركزية . ومؤسس الشعب اصلهم من الجمعية المركزية وذلك ان احد هؤلاء الاعضاء اذا رأى في نفسه الكفاءة لانتسابه في بلد من البلاد عرض مشروعاً على اللجنة فتتحول له انشاؤها فينتقل الى ذلك البلد ويتحقق بذلك بمحض بشرتهم وصدقهم ويتولى معهم لجنة يخبرهم ايتها فرع للجمعية المركزية ولكن لا يصرح لهم باسم اعضائها . ومتى تألفت الشعبة تنتقل في ادخال الاعضاء على الكيفية التي سنها الجمعية المركزية وهذه اللجنة لا تعرف من اعضاء الجمعية المركزية الا الذي اس شعبه

وهكذا يقال في انشاء الفروع الصغرى « الولايات » فان احد اعضاء لجنة من جانبه الشعب يأخذ على عاتقه انشاء فرع للشبعة ويخرج للقرية ويتألف لجنة من اهل قته لا يعرفون من اعضاء الشبعة الا هو وقس على ذلك وتخيار الجمعية لنشر ارائهم صحفاً ينشئها افراد منها يظهرون للناس وقد لا يظهرون وكان رامز من اعضاء لجنة الادارة في سلانيك فلما آتى القهوة عرف من قبدهم هناك من الاعضاء وكانوا قد بشروا من حياته فأخبارهم انه جاء بهم ذات بال تقديرهم عما يغاصنه من العذاب واخبروه عن محل الاجتماع في بعض اطراف المدينة دلوه على طريقة الوصول اليه

فتفرقوا من هناك وسار كل منهم الى منزله . وتذكر رامز والده وربعاً آتى في اثناء الاجتماع تلك الآية فاسرع الى بيت طهراز واوصى الجار اذا جاءه رجل صفتة كنا وكذا ان يلحق به الى بيت كذا وهو المكان المؤدي الى محل الاجتماع ولم يلحظ رامز ان أحداً يتبعه على انه لم يكتتر بذلك لعلمه ان طريقة الوصول الى ذلك المكان لا يستطيع الجوايس كشفها . فلما كان قبل منتصف الليل خرج من الفندق ومشى في شارع استطرق منه الى اخر قاخ حتى وصل مزلأ طرقه ففتح له قدره فدخل فيه ثم خرج من باب سري منه الى زقاق لا يهتدى اليه غير العارف فاذ اتى به جاسوس لا يشك ان ذلك المزل هو محل الاجتماع فاذا دخله وسأل عن القوم لا يجد فيه احداً ولا يهتدى الى المكان الذي خرجوا منه . وهو مزل بعض الاجانب مما لا يحسن رجال الضابطة ولا غيرهم ان يطرقوا ولم يكونوا يذهبون كل اجتماع في نفس ذلك الطريق ، فاوصي رامز صاحب ذلك المزل اذا آتى والده ان يرشده الى محل الاجتماع ويخبره عن كافة السر

فَلَمَّا سَارَ رَامِزُ فِي الْزَّقَاقِ أَصْبَحَ فِي مَأْمُونٍ مِنَ الرَّقَابِ وَمُشَى مَدَةً فِي طَرِيقٍ مِنْهُمْ
حَتَّى اتَّهَى إِلَى عَنْفِلٍ مَاسُوْنِيٍّ يُجْتَمِعُ فِيهِ الْمَاسُوْنِيُّونَ وَلَا حَرْجٌ عَلَيْهِمْ وَقَدْ احْبَطَ الْمَكَانَ
فِي تِلْكَ الْمَلِيَّةِ بِالرِّجَالِ مِنْ أَعْصَمِ الْجَمِيعِ الْمُبْتَدِئِينَ فِي جَهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ لَا يَرَاهُمْ أَحَدٌ وَعَلَيْهِمْ
الْمَدَةُ وَالسَّلَاحُ لِلْدِفاعِ عَنِ الدَّارِجَةِ

فلا وصل الى الباب ثلثت حتى تحقق خلو الطريق من الجوايس فطرق الباب طرقاً مخصوصاً ففتح له فدخل في دهليز مظلم الا مصباحاً في احد اركان الدهليز نوره متوجه بواسطة عدسية مقرعه نحو الباب فيقع النور شديداً على وجه الداخل بجحث يرى ولا يرى وقد اصطحب في الدهليز صنان من الرجال عليهم البة سوداء وقد تلتموا حتى لا تظهر منهم الا العيون . فحمللا دخل رامز رفع الحراس سيفهم المجردة فوق رأسه فاشار اشاره فتحوا الطريق فدخل الى غرفة يعرفها قاتش فوق ثيابه بوداء اسود يقطبها كلها وطا كاه للراس كلثام يرسل على الوجه عند الحاجة ومشي الى قاعة الجلوس يتقدمه احد الحراس ليهديه الى الباب فلما وصله قرعه قرعاً خاصاً ففتح له ودخل وفيه ١٢ كرسياً هي مقاعد لجنة الادارة لا يحضر تلك الجلسة سواهم الا باذن خاص وكان رامز واحداً منهم كما نقدم . وقبل تدخوله اوعز الى الحراس اذا جاء والده وادى العلامه الالازمه ادخله اليهم بالطريقة المعروفة

الفصل التاسع والخمسون

الله

فَلَمَّا سَارَ رَامِزٌ فِي دَاخِلِ الْقَاعَةِ طَرَقَ الْمَرْخُصَ عَلَى الطَّاولةِ طَرَقَةً خَاصَّةً مُعْنَاهَا
الْدُعْوَةَ إِلَى الْجَلْوْسِ فَجَلَسَ عَلَى كَرْسِيٍّ مِنَ الْأَنْتِي عَشَرَ كَرْسِيًّاً وَكَانَ الْقَاعَةُ مُرْبَعَةً
الشَّكْلِ يُحِيطُ بِهَا الْكَرَاسِيُّ وَفِي صَدْرِهَا الْمَرْخُصُ أَوِ الرَّئِيسُ وَأَمَامَهُ طَاولةٌ عَلَيْهَا كَاهَ
أَسْوَدٌ وَفِي مُنْتَصَفِ الْقَاعَةِ طَاولةٌ صَغِيرَةٌ عَلَيْهَا الْأَجْيلُ وَالْقُرْآنُ وَالْمَدْسُ وَفِي صَدْرِ
الْقَاعَةِ فَوْقَ بَيْلِسِ الرَّئِيسِ صُورَةٌ مَدْحُوتَةٌ بِاِسْمِهِ بِالْسَّوَادِ . فَرَفِ رَامِزٌ مِنَ الْأَعْنَاءِ
الْأَمْيَرِ الْأَيْ حَنْ رَضَا بِكَ مِنَ الْطَّوْبِيَّةِ وَالْقَائِمَ قَتَّقَ بِكَ اِرْكَانَ الْحَرْبِ وَالْبَكَاشِينَ
اِرْكَانَ الْحَرْبِ فَتَحَيِّ بِكَ وَحْقِيَ بِكَ دَيْمَاجَيِ رَفِيقَ بِكَ وَطَلَمَتَ بِكَ وَالْبَكَاشِيَّ أَنْوَرَ
بِكَ وَالْقَائِمَ اِرْكَانَ حَرْبِ جَالَ بِكَ وَرَحْمَيَ بِكَ وَغَيْرَهُمْ . وَكُلُّ الْحَضُورِ بِالْيَسْرَى وَدَاهِ

وقد رفعوا اللثام عن وجوههم لأنهم أعضاء في لجنة الادارة
فاما استقر الجلوس بالأعضا قال الرئيس «فتح الجلسة باسم الله وبذكري مدح
باثا ضحية الدستور»

فوقب الجميع احتراماً ثم جدوا وقال الرئيس «إيهما الاخوان ان اخانا رامز
قادم اليانا من يلدز بمهمة خصوصية يرجو منها خيراً فلتسمع ما يقول»
فوقب رامز وقال «انتم تعلمون اني أخذت غسلة الى يلدز منذ أيام وعلكم قطعتم
الامل من حياتي لأن الذاهب الى ذلك المكان كالذاهب الى الجحيم»
فضحك الحضور وقال الرئيس «علمنا بذلك وكانت اخبارك ثائينا بواسطة احد
اخواننا الشجعان هناك لا نظنك تعرفه . . .»



مدحت باشا

فاستغرب ^٣ رامز ذلك وقال «اني لم اشاهد احداً لاني قضيت مدة مكثي هناك في
مكان منفرد عن الناس»
قال «ان اخانا هناك اخبرنا بعض ما قاسيته وقال انه كنت مسجونة في
قصر مالطة»

فازداد استغراً لأنَّه لم يكن يعرف وجود جاسوس ل الجمعية هناك فقال «نعم أني كنت مسجونة وقد قاسيت كثيراً ولِي الشرف الذي قُتِّل بالقسم الذي أقسمته بالنظر إلى الجمعية المقدسة فلقيت السلطان وغيره من رجال المأمين والخواعليَّان ابيح بآباء الأعضاء العاملين فيها فائيت وكنت أتوقع أن أشرف بالقتل في هذا السيل لكن فتح لي باب لم يسبق لأحد أنه وفق إلى مثله وفيه منحة من سفك الدماء والوصول إلى المقصود على أهون سيل»

قطاول الأعضاء باعناقهم لسماع حديثه وتعرَّض الرئيس قاتلاً «ما هو ذلك الباب إليها الآخر إنما من أرغب الناس في المسألة واتعلم أن خطبة جمعتنا هذه نيل الدستور وإنقاذ هذه الدولة من الدمار بالطرق السلمية ما استطعنا إلى ذلك سيلًا»

قال رامز «ولم يذلَّ قدر عدده ما وفدت إليه تجاهًا باهراً»

فاستأذن انور بك وقال «هل يأتي من المأمين أمر فيه مصلحة لا يتعوره سفك الدماء؟ . أني لا أرى الإصلاح يتأتى بغير السيف وسفك الدماء»

فقطاعده الرئيس قاتلاً «له درك يا انور من رجل حرب وحزم . ولا يتنعَا ذلك من الأشقاء إلى ما يعرض علينا وليس على الله مستحيل»

فعاد انور إلى مجلسه وهو يقول «ليس على الله مستحيل — هات إليها الآخر ما عندك»

قال رامز «أنتم أهل حرب وكفاح بعون عليكم القتل . واما أنا فاني رب قلم ويبحث ولا أرى الوصول إلى الإصلاح بالحسنى مستحيلاً ومع ذلك فاني عارض عليكم ماجئت من أجله»

—————

الفصل السادسون

حديث رامز

فاصغر الجُّنُب وأخذ رامز يقص حديثه مع السلطان حتى إلى ما دار بينهما في قاعة قصر چيت وكيف اعترف عبد الحميد بخطاؤه وكلفه ان يخابر أعضاء الجمعية بشأن الجُّنُب إليه وكيف أطلق سراحه لهذا الغرض . إلى أن قال «وما يؤكِّد لي صدقية السلطان هذه المرة أنه أطلق سراحه بعد أن كنت في قبضة بيده . وفعل ذلك سرًا عن كل

الان حق تولى اخراجي سرًا بنفسه — وقد اطلق سراح والدي ايضاً وانتم تعلمون
اتنا يشننا من بقائه حيًّا و .. »

فاما ذكر والده ظهرت البغة على الحضور ولم ينالك الرئيس عن قطع الحديث
رامز قاتلاً « والدك اتي معك ؟ اين هو ؟ »

قال « لم يأت معي فانه استقلناه ربًّا يصلح من شأنه ويأتي في الغد .. الاتعدون
هذه المعاملة دليلاً على اقتطاع عبد الحميد بخطإ وانه أظم الرجوع الى الصواب على ايدي
الاحرار العثمانيين ؟ »

وكان الكل يسمعون وهم يستغربون لهذا الاقتراح فلما فرغ من كلامه قال الرئيس
بخاطب الاعضاء « اتمن تعلمون قانون جمعيتنا المقدسة ولا يخفى عليكم ان قانونها انسا
هو المطالبة بالدستور وقلب الحكومة الاستبدادية بالحسنى بلا سفك دماء على قدر
الامكان . ولذلك فلا يمكننا رفض اقتراح عبد الحميد مع ما فيه من نيل الدستور على
اخون سبيل . ولا يخفى عليكم ايضاً ان هذه الجماعة ترى اذا ثالت الدستور ان لا تتحقق
بالسلطان سوءاً — اذ لا رغبة لنا في الاستقام وانما زيد الاصلاح »

وقف ائور بك وشاربه المرتفعان ينتفعان من التأثير وقال « يا اخواتي انت
اقتراح عبد الحميد جليل وحجب الدماء جليل — اما نيل الدستور بالحسنى فمعنة
لامثيل لها — ولكن ذلك يخالف التوانيس الطبيعية الاجتماعية التي جرت عليها
الام من اقدم ازمنة التاريخ . هل معهم بامة ثالت حرمتها وقلب حكومة الاستبداد
الا بالسيف والله در الشاعر العربي القائل :

لایسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى برأى على جوانبه الدم
لا تقول ان نيل الدستور بالحسنى مستحيل ونحن في الواقع ساعور في جهد
طاقتنا ولكنني ارى امس ذلك يطول وقد جعلنا هذه الجماعة عسكرية واعضاها اكذبهم
من الضباط الشجعان المثقفين الذين يعرفون قدر الحرية او الكتبة الاحرار العارفين
فينبغي لنا ان نبادر الى العمل .. هذا هو رأي ولا ارى اقتراح ذلك الطاغية الا
حيلة يدبirlنا من ورائها مكيدة » قال ذلك وجلس وحصل ضجيج استحسان وسع
صوت احدهم يقول « اقتل .. اقتل .. لا يزيد غير ذلك .. » فعلم الجميع انه صوت
احد الضباط الحاضرين وهو الملازم ك . وقد عرفوا فيه الحماسة فضحكوا واعجبوا
اما الرئيس فوجه كلامه الى ائور بك وقال « الله درك يا ائور وبارك الله في بسالتك
وحزمك ان جمعية فيها امثالك فائزة باذن الله . ولكنكنا نبحث عن اقتراح عرضه علينا

ذلك السلطان وهو يوافق غرض جمعيتنا هل نرفضه بتناً ؟ » فرفض القائم فائق بك وقال « ايها الاخ المرخص ان قانون جمعيتا المقدسة لا يؤذن لنا برفض هذا الاقتراح .. صدقت ولكن الاخبار الماضي يدلنا على ان هذا الرجل لا يرکن اليه ولا يوثق بقوله . كم استرضي الاحرار بثيل هذه الوعود ثم غدر كما فعل بجمعية بازيس وحديث مراد وغيره اشهر من ان يذكر واول وعد غدر به يوم مبايعته لم يعد مدحٍت باعلان الدستور والثبات عليه ثم اخاف ولم يعلنه الا قهراً وما زال حتى افسده



البكاني انور بك

وفتك باصحابه . ثم ان هذا الرجل حامل بفلسفة ما كيافيلا الإيطالي في السياسة ولا يقرأ غير كتبه وهي تعلم الفتوك باناس في سبيل مصلحة الدولة بالامبالاة بالشرف وبالوقاه وقد زاد عبد الحميد عليه اقتداره العجيب على اخفاء عواطفه والتظاهر بما ليس فيه كما تعلمون — ولو انه اقترح علينا المخابرة كتابة لم يكن ثمة باس من القبول باقتراحه

اما التهاب الى يلدر مدفع الاحرار فـَلَا لَا اوافق عليه بل ارى اننا اليوم في خطر
اشد ما كنا فيه قبلاً »

فصاح انور بك « تمام . تمام »

فهم رامز وقال « يحق لكم الشك في ما سمعتموه وأنا ظلت برهة وانا بين
الشك واليقين ولكنني رأيت الدمع يتقطع من عيني عبد الحميد وهو يتكلم واصبح بين
يديه كالطفل الناوم على ذنب افترقه خوف العقاب . اما الخبرة عن بعد فلا تقييد
لأنه يريد ان يفعل ما يفعله ولا يشعر به رجال الماءين وقد أصبح يخافهم على حيائهم اذا
شعروا انه ناقل التفود من ايديهم الى ايدي اعدائهم . وسيأتي والدي ولهم في در راي
كم تعلمون »

قال الرئيس « نوجل الحكم في هذه المسألة للتأمل فيها وادا شئتم ان تعقد جلسة
عامة يجتمع فيها سائر الاعضاء غير اللجنة فعذلا »

فصاح الجميع « موافق »

فوجه الرئيس كلامه الى رامز قائلاً شغلنا بهذا البحث عن حدث والدك سعيد
بك . . هل ظفرت به في يلدر ؟ »

قال « نعم وسيكون هنا اليه او في الغد »

قال حتى بك « سعيد بك صديق مدحت باشا لا يزال حياً »

الفصل الحادي والستون

مدحت وسعيد

قال الرئيس « نعم . محمد الله على ذلك . لعلكم تعلمون مهنة هذا الاخ . او بعضكم
لا يعلمها فاقصها عليكم بالاختصار لاني صديق قديم لسعيد بك . . كان اخونا المشار اليه
اكثر الاحرار التصاقاً بابننا واستاذنا مدحت صحبه في اكثرا مصائبه ونكباته حتى رافقه
اخيراً الى مقصلة في الطائف لانه كان يتصنته او هو يتعشق الدستور الذي ذهب ضحية عنه
وقد قص على القنوات التي قاتلها مدحت في مقصلة من الجوع والتعذيب الى القتل . اخبرني
الاخ سعيد انه شهد مقتله على ايدي تسعة من الحوننة منهم خاططان احدهما شركي خاما

الشرف العسكري والباقون من الانفـار قتلوا خنقاً وقطعوا رأسه وارسلوه في صندوق شحنة الى بلز وكتبوا عليه انه يحتوي عاجاً يابانياً وادوات صناعية بجلالة السلطان . قص "معيد على" ذلك وهو يكي وقد بكت منه ولاشك انكم تشاركوننا بصيحة اي الاحرار ان عبد الحميد قتل مذحت ولكته لم يقتل روحه وتماليمه . ووجودنا في هذا الجمجم وسعينا في سبيل الدستور اثنا هونسة من تلك الروح الطامرة . وليس ذلك كل افضل مذحت فانه علينا تجنب الخطأ وعدم الاركان الى المواجهة افتداء به وقد بعث الى الاحرار العثائين رسالة شفوية على بد الاخ معيد بلغنا ايها وقال ان هناك وصية مخطوطه كتبها المرحوم وهو في قصر مالطة يوم توفيقه عليه واخذوها في حمايته تلك الحماكة الظالمه وكأنه احسن بالخطير القريب وهو هناك فاغتنم انفراده وكتب وصية للاحرار ووضعتها في خبا في قصر مالطة على ان يحملها معه ويدفعها الى بعض خاصته بعد خروجه من ذلك القصر . فاخراج فيجاًة ولم يهل ربها يأخذ الوصية فبقيت هناك وظن نفسه يعود بعد تغلب الاحوال فلما يشن من ذلك واحسن يقرب الاجل اسره الى معيد خبر الوصية ودله على محبها في قصر مالطة واوسماء ان يتلوها على الاحرار العثائين حيث وجدوا . فلما عاد معيد من المائف اخذ بيث انكار مدحت سرماً واتم تعلمون اكثراها . واصبح يترقب الفرص لامتنراح الوصية فلم يستطع دخول بلز بالليلة الاً منذ بعض عشرة سنة وخف في انتظار رجوعه الى الآن . فانا اعد خبر خروجه فوزاً لنا وبشارة تدل على قرب النجاة من اسر الاستبداد والاطلاق روح الدستور »

وكان الجميع ساكتاً لأن الحديث أكثره جديداً على مسامعهم حتى رأى زفافه لم يكن يعرف من هذه التفاصيل إلا قليلاً فلما فرغ الرئيس من كلامه نهض انور بيك وكان في الشاء الحديث غارقاً في التفكير وقال «هل يطول بنا انتظار الاخ سعيد بيك؟» فقال رامز «ارجوان يكون هنا الليلة او غداً ولعله تأخر لباقي بالوصية معد، هذا ما خطط لي الآن على اثر مارأيته من رغبته في اللقاء هناك يوماً آخر وقد اوصيت من يلزم اذا جاء البابا وارد الجميع « الى هنا ان ياتي »

قال «اما وقد ونا جيئه وعية محدث فلنؤخر حكمنا في هذا الامر حتى تلوا
الوجهة ولا شك اتنا ستجد فيها اموراً هامة»
وهم في ذلك سموا قرع الباب الخارجي فاقصتوا وبعد برهة قرع باب القاعة ففتح
الحارس فدخل احد الحراس يقول «ان اجنبياً لا اعرفه يريد الدخول فلم ناذن له فطلب
ان يرى الاخ رامزاً»

فناً كـد الرئيس ان القاـدم سعيد بك فـاذن رـامـز ان يذهب لاستـدامـه فـخرج ولـبـثـ الجـمـعـ في انتـظـارـهـ عـلـىـ اـحـرـ منـ الجـمـعـ . وـبـعـدـ قـلـيلـ عـادـ رـامـزـ وـعـهـ اـبـوهـ فـاشـارـ الرـئـيسـ الىـ الجـمـعـ بـالـنـهـوـضـ اـجـلاـلـاـ لهـ وـقـالـ الرـئـيسـ « اـنـاـ نـقـفـ لـكـ تـرـحـابـاـ بـكـ وـاقـرارـاـ بـنـفـسـكـ فـيـ خـدـمـةـ المـحـرـيـةـ ، وـاـيـضاـ لـانـكـ رـسـولـ اـسـتـاذـاتـ مدـحـتـ »

تحـيـامـ وـوقـنـ فـاشـارـ اـلـيـهـ الرـئـيسـ انـ يـقـعـدـ عـلـىـ كـرـنـيـ بـجـانـهـ اـحـثـاءـ بهـ قـعـدـ وـالـدـهـشـةـ ، ظـاهـرـةـ فـيـ طـلـمـتـهـ وـابـدـهـ رـامـزـ يـنـظـرـ اـلـيـهـ وـيـأـمـلـهـ فـرـأـيـ فـيـ الصـورـةـ التيـ يـعـرـفـهاـ وـلـمـ يـلـحـقـهاـ الاـ تـغـيـرـقـلـيلـ . وـلـاـ اـسـتـقـرـ الـجـلـوسـ بـسـعـيـدـ سـكـتـ الجـمـعـ فـيـ اـنـتـظـارـ ماـ يـقـولـهـ . اـمـاـ هـوـ فـكـتـ هـنـيـةـ صـامـانـاـ مـطـرـقـاـ كـانـهـ تـهـيـبـ مـنـ نـلـكـ الجـلـسـةـ اوـ اـنـهاـ اـذـ كـرـنـهـ اـمـورـ اـعـزـنـةـ ثـمـ اـنـتـفتـ اـلـ صـورـةـ مدـحـتـ المـلـةـ بـالـخـاطـطـ وـتـفـرـسـ فـيـهاـ طـوـيـلـاـ وـالـاعـضـاءـ يـنـظـرـونـ اـلـيـهـ كـانـ عـلـىـ رـوـفـسـهـ الطـيرـ فـاحـظـاـ قـطـرـاتـ مـنـ اللـمـعـ تـسـاقـطـ عـلـىـ لـيـثـهـ وـهـوـ يـجـلـدـ فـارـادـ الرـئـيسـ اـنـ يـشـغـلـهـ عـنـ تـذـكـارـهـ اـلـعـزـنـةـ قـتـالـ » اـنـ فـرـحـتـ بـقـدـومـكـ كـثـيرـ وـخـدـ وـصـاـ بـعـدـ بـجـاهـ اـخـيـنـاـ رـامـزـ مـنـ خـطـرـ القـتـلـ وـلـاـ شـكـ اـنـكـ تـشـمـرـ بـاـقـيـ قـلـوبـنـاـ مـنـ الـبـهـجـةـ بـهـذـاـ الـلـقـاءـ بـلـ غـنـ نـسـبـشـرـ خـيرـاـ بـقـدـومـكـ يـاحـمـلـ رسـالـةـ اـيـنـاـ وـقـدـوـنـاـ شـيـدـ المـحـرـيـةـ . لـاـ يـنـبـيـ اـنـ غـرـنـ عـلـيـهـ فـانـهـ لـاـ يـزـالـ حـيـاـ يـبـتـنـاـ حـقـ نـاخـذـ بـشـارـهـ وـنـعـمـ عـمـلـهـ فـيـقـيـ ذـكـرـهـ خـالـدـاـ . . . غـنـ فـيـ اـنـتـظـارـ الـوـصـيـةـ الـمـكـتـوـبـةـ . هلـ وـقـتـ عـلـيـهـاـ ؟ـ »

فـتـهـنـدـ وـقـالـ « نـعـمـ اـنـهاـ مـعـيـ وـقـدـ سـجـنـتـ مـنـ اـجـلـاـ اـعـوـاماـ وـهـيـ اـقـرـبـ اـلـيـهـ مـنـ جـبـ الـورـيدـ وـلـكـ السـجـنـ حـالـ يـتـيـ وـيـنـهاـ لـاـنـ اـهـلـ يـلـذـ اـشـتـهـيـاـ بـقـاصـدـيـ فـسـجـنـتـ وـعـذـبـوـيـ لـاـ طـلـمـهـ عـلـىـ غـرـضـيـ مـنـ وـجـودـيـ فـيـ قـصـرـ مـالـطـةـ بـلـ بـلـمـنـاسـبـةـ فـلـ اـجـبـهـ وـلـمـ اـشـأـ اـنـ اـحـالـ فـيـ اـخـرـوجـ بـدـونـ الـوصـولـ اـلـىـ هـذـهـ الـوـصـيـةـ حـتـىـ اـتـيـحـ لـيـ بـلـجـاهـ اـمـسـ مـعـ وـلـدـيـ كـاـ اـخـبـرـكـ فـطـلـبـتـ الـبـقاءـ هـنـاكـ بـوـمـاـ آخـرـ فـيـقـيـتـ بـلـ رـقـيبـ فـاسـقـرـجـتـ الـوـصـيـةـ مـنـ عـجـانـهـ وـخـبـائـهـ بـيـنـ اـنـوـاـلـيـ بـجـيـثـ يـسـجـيلـ الـاـطـلـاعـ عـلـىـ مـكـانـهـ وـهـاـ هـيـ » فـالـ ذـلـكـ وـاسـتـخـرـجـ اـورـاقـ تـأـكـلتـ اـطـرـافـ اـلـطـولـ دـفـنـهـ فـيـ التـرـابـ وـتـهـرـأـتـ وـدـفـعـهـ اـلـيـ الرـئـيسـ فـشـخـصـتـ الـاـبـصـارـ وـقـطـالـوـتـ الـاعـنـاقـ لـمـ يـسـتـنـ عـلـيـهـمـ

الفصل الثاني والستون

وصية محدث

فنهض سعيد لمساعدة الرئيس في ترتيب الاوراق ومعرفة اوطا وآخرها وتعرف الرئيس خط محدث قبليه وقال « هذا خطه رحمة الله » وعاد الى الترتيب ثم قال « ان هذه الوصية مكتوبة بالسرعة الكلية ولذلك ففي اسطر متقطعة اثنى بالتفكيرات منها بالوصية فابداً بما على ظهرها » وقلب الورقة وقرأ « الدستور اطلبوه بالسيف »

فلم يتكلّم انور ان صاح « براقو . بالسيف بالسيف » فنظر اليه الرئيس بلطف كأنه يوكله على مقاطعته ولم يكن انور بذلك من يقاومون بل هو من اعلم الناس بالاصول والقواعد لحفظ النظام ولكن سرّ بطبيعة قوله فغلب عليه فرشه فقال تلك الكلمة اما الرئيس فعاد الى القراءة فقرأ « سأذهب ضحية طلب الحرية ولكنني فرد لا تذهب بذهابه تلك الروح التي اخذت تدب في انفس العثمانيين . روح الحرية انتشرت في الشيبة العثمانية ولا بد ان تزداد اقتفاراً كل يوم بطبيعة العمuran فوت واحد من الاحرار او عشرة او مئة لا يستطيع ان يقف في سبيلها . ولذلك فانا اكتب هذه الاسطرا اخاطب بها تلك الروح الممثلة بالشيبة العثمانية ... اثبتوا في طلب الحق فانكم سذلة الله . لا بد من نيل الدستور لانه حق وان طال الامد على خياعكم لا بد من تعلمه ولكنني ارشدكم الى أمور عرفها بالاختبار الشخصي ولو عرفتها قبل الان لم تصل ايدي الظالسين الي . ولا افات الدستور من يدي ولكنني وقفت وارفقت فذهب سعي بين الرفق والثقة فاحذرؤا من ذلك وهذه وصيتي بالاختصار فان الوقت لا يساعدني على التطويل وانا مطلوب للوقوف امام تلك المحكمة الظالمة ولا البت ان يحكم علي بالقتل او النفي فاكتبه مختصرًا :

- ١ : على الامة رقوا العامة ان الجهل سبب كل علة . ولا اعني التعليم المدرسي كالصرف والنحو والحساب ولا الطبع والمنتدسة والقفاء . وإنما اعني تربية الشبان وتدریسهم على الحرية الشجاعية واستقلال الفكر وirth روح الوطن في إيمونهم حتى يدركوا ما هو — وهذا يتضمن تعليم المرأة فانها روح الامة — فإذا ارتفت وتتفتح ثنايا اباواها على مثلثها فالامة التي نساها اباواها اهلًا للحرية ولم يتعلموا فان القصد التربوية وهذه لا ثبت الا اذا رغبت في الصفر . فاول وصيتي ترقية الشعب وتدریسها على روح الحرية ولو كان لهذه الامة الشدة شيء من ذلك الان لما اذنت بجل مجلس المعمونان

وقُتل الدستور وانصاره وهي ثائة لا ترفع صوتها ولا تخبر ميفاً - أنا ذاهب ضحية هذا الجهل
فاستفيدوا منه وإذا عللت أن قتلي يأتي بفائدة فاني اتلقي الموت مسروراً

٢ : اخذروا من الشقاق بين العناصر والاديان ان الدستور العثماني يحتاج الى هذه الوسية اكتر مما الى سائر الوسائل الاختلاف العناصر والمذاهب في هذه المملكة . دعوا التعصب الجنسي او المذهبي وانخدوا في العثمانية . لا تذكروا الاسلام والتصرانة او اليهودية ولا التركي والعربي او البلفارى او الالباني اغضوا عن هذه الاختلافات لانها اكبر سلاح يخربكم به اعداء الحرية الظاللين . هم يفرقون بين العناصر والمذاهب ليستتب لهم الاستبداد ويأتموا اجتماع الابيدى على مقاومتهم . كلكم مظلوم وكلكم موتور . ان الظلم لا يخص طائفة دون اخرى ولا مذهب دون آخر فانخدوا

٣: اجعلوا معلوكم في الدقائق على الجندية الفوا الجعيات السرية وادخلوا الجندي فيها .. الجندي هم الامة وباسافهم يحمي الدستور وتستقر الحرية . ان لم يكن الجندي معكم فسيكون في سيل الحرية يذهب عيناً — بالجندي حاربنا هذا الطاغية . لو كانت الجندية معنا لتعلمنا كأنشأه — لا تفلح امة في طلب حق من حكمها ان لم يكن الجندي نصيراً لها ويشرط ان يكون متعلماً متفقاً . عولوا على الضباط وهم قادة العاشر . اما العاشر فالجهل يجعلهم أثباءاً لكل ناعق يباعون ويشردون واما الضباط المتعلمين المدرس بالقضية فإنه سيف قاطع — اجعلوا معلوكم على الضباط المتعلمين فهم وحدهم يدركون معنى الحرية وهم وحدهم يحمونها بباسافهم ..

فحدثت ثغرة ولو أتيح للسامعين الكلام لاصاحوا « لتحي الجدبية » ولكن ظهر
هذا القول بتفهم وعاد الرئيس الى القراءة فقال :

٤ : وهذه وصية خاصة احرضكم على العمل بها فقد كلفتني حياتي وحياة كثيرون
امثالى من الاحرار — ان املى الصادق قريب من التصديق كثير الوثوق وقد يخبره
وثوقه الى الخطير لان الناس حوله على غير ذلك — وخصوصاً عبد الحميد اذا وصلت
وصيتك اليكم وهو حي فاوسيكم ان لا تستروا باقواله ولو اقسم الاعيان واغاظ القسم
فانه كاذب الا اذا كان قوله عائداً الى اشباح مطامعه — احتروا من الوثيق به فان
الوثيق جرني الى الموت .. لا تصدقوه ولو اقسم وظهرت علامات الصدق في وجهه
فان ذلك الوجه لا يمثل له من حيث النلوذ .. ان فيه شيئاً لا اعرفه في سائر الوجوه
يوهمك، بمنظره انه صادق وما هو كذلك .. له قدرة غريبة على اقناع مخاطبه وقد يتظاهر
بالبكاء ندماً واسفاً وهو ينوي غير ما يقول فاحذر وراءه

فاما بلغ الرئيس الى هنا وقف انور بيك وقال «استاذ الاخ المرحمس ان اقول
فيسي مدحت ابو الاحرار... هذا هو الرأي الصواب وقد جاء قوله فصل
الخطاب»

فابتسم الرئيس وعاد الى القراءة فقرأ :

٥ : بقيت وصية ربنا تعجبون منها لعلكم بالقوع على تفضيلها الحرجية — ان
الحرجية تفضي العدل والرفق وحجب الدماء ولكنها لا تزال الا بفك الدماء — اعني
الفتك بالافراد الذين يقفون في سبيل اغراضكم . لان رجلاً واحداً شريراً قد يكون
وجوده سبباً في خراب امة او ضياع حقوقها . فإذا كان الحق لا يضفي بقتله فالسياسة
تفضي — افتکوا بالاشرار .. اقتلوا .. و اذا كانت الجندية معكم فليس اهون عليكم من
ذلك — كل من تأسكم سعيه ضد الحرجة والمذكور اقتلوا وانا المسئول عن ذنبكم
بقتله . انكم اذا قاتلتم شخصاً غبيون امة — لو اتيت لي ان اعرف ذلك قبل الان لكنم
رافقين الان في مجاعة الدستور ولكن تلك ستة الة في خلقه يستعبد الاباء من
اختيار الآباء

ولما فرغ من قراءة هذه الوصية تنفس الصعداء ولم يتكلم احد الا الشاب الملازم
ك فانه «تحنخ تصديقاً لا سمعة» عاد الرئيس الى القراءة :

٦ : اذا آتيت لكم الفوز بالدستور احتذروا ان تبقوا هذا الطاغية على كرسي
السلطة وان ظهر لكم انه تاب ورجع فانه يظهر غير لما يضر

٧ : لي وصية اخرى هي آخر الوسايا تتعلق بتوارث الملك في الدولة العثمانية .
ان طريقة التوارث الجارية الى هذه الغاية لا تخلو من الخطط على الدولة اذ يكون ولـ
المهد شخصاً معيناً هو اكبر ابناء السلاطين سنـ فقد يتحقق ان يكون غير كفـ
لادارة امور الدولة فإذا اعلن الدستور وصارت الحكومة العثمانية دستورية أصبحت
مقابلـها في ايدي النواب فـينبغي ان يتـظروا في توارث الملك انه عظيم الـاهـمية ان لمـ يكن
حال الانقلاب قـبـدهـ عندـ سـنـوحـ الفـرسـةـ . والـذـي اـرـاءـ انـ يـقـ حقـ السـيـادةـ فيـ آـلـ
عـهـانـ يـتـوارـثـونـهاـ بـشـرـطـ انـ يـكـونـ كلـ باـلـعـ منـ اـبـانـهـ مـرـشـحاـ لـوـلـيـةـ المـهـدـ وـاـنـاـ يـكـونـ
لـلامـةـ اوـ بـجـلـسـ نـوـابـهـ انـ يـخـتـارـهـنـمـ منـ يـعـدـ فـيـهـ الـكـفـاـةـ هـذـاـ المـنـصبـ . لـاـ انـكـ ماـ
يـعـتـورـ هـذـهـ الـوـصـيـةـ مـنـ الـعـقـبـاتـ وـلـكـنـهاـ الـازـمـةـ

اخـيرـاـ استـودـعـكـ اللهـ وـاـنـاـ ذـاهـبـ لـامـوتـ فـيـ سـيـلـ الدـسـتورـ» (مدحت)

الفصل الثالث والستون

المفاوضة

فلم يفرغ الرئيس من تلاوة الوصية قعد وقال « قد سمعت هذه الوصايا الخمسة وبعضاً قد سمعنا شفاعة من أخيينا سعيد وبعضاً جرئتني إليها الأحوال واقضتها الأحوال فما رأيكم ؟ »

فهم الحامي دقيق بك وقال « أنت بعض هذه الوصية قد عمانا به على قدر الامكان وبعضاً يحتاج إلى نظر فنرجو من حضرة المرخص أن يعرض هذه المسائل واحدة واحدة وأخذ الآراء بتأثيرها »

قال الرئيس « إن زاوية الامة هذا أمر اقضته طبيعة العمran وإن كنا لم تستطع شيئاً كثيراً لوقف حكومة الاستبداد في طريقنا . أما الجمجمة بين العناصر فان وجهتها وإن كنا قد تأخرنا في اتباعه كما تعلمون فوصية أخيانا واستاذنا محدث تجعلنا نثبت فيه . وهكذا وصيته في التعميل على الجذبية فإنها خطتنا الجديدة وقد وصلنا إليها بعد طول الاختبار ونم الرأي هو . أما تحذيره إيانا من عبد الحميد وعدم الركون إلى مواعيده فقد آتى في إبان الحاجة إليه ونحن في اضطراب وتردد . واظن هذه الوصية تكفي للفصل في هذه المسألة . فهل تتذمرون في رفض اقتراح عبد الحميد الذي أثارنا به الأخ رامز ؟ » وأشار الرئيس إلى الاعضاء يطلب رأيهم في ذلك فاصروا بصوت واحد « من فوض »

قال الرئيس « والفتوك - ما قولكم به ؟ إن غرضنا حتى الساعة إن نحال الدستور بلا فتك ولا قتل ولكن استاذنا محدث يلح في تحريره على الفتوك ما قولكم ؟ »

وقف أتور بك وقال « أن استاذنا يعين الأحوال التي يجوز فيها الفتوك ويقول إذا وجد شخص كثير الأذى للآحرار ووجوده حجر عثره في سبيل مقاصدها فلائقته ان هذه سياسة الملك يقضي بها العقل والمعدل - فان قتل شخص واحد افضل من ضياع حقوق امة برمتها . . . »

فاستاذن الملازم ك للكلام وهو شاب في حدود الخامسة والعشرين من عمره قد امتلاً صبره حماسة وتدفقت عيناه ذكاً وحدة فبشه له الرئيس واذن فقال « اذا كانت السياسة لا تتحقق فالحق يقضي . ان اهل المساين واتباعهم اعداء لنا وهم

يقتلون مناعشرات قتلاً تسلّل منه الدماء فضلاً عن قتل الحرية وأمانة الشعائر. وشريعة الحرب تخيز ان تقتل منهم من يقف في طريقنا . هم يقتلون منا طلاب الدستور ونحن قتل من يسعى في قتل الحرية والاحرار وكل واحد منا يساوي مئات منهم « قال ذلك وعيناه تبرقان وصدق التجهم ظاهر في كل حركة من حركاته . فشار الرئيس ميشال عون يقصد وقال عازطاً الجلسة « هل توافقون على الفنك عند الحاجة . هذه خطوة جديدة في جمعيتنا تأملوا قبل الافراط عليها أنها خطوة مهمة جداً فما قولكم؟ »

فاستاذن سعيد بالكلام فاذن له فقال « ان هذه الشريعة قديمة وانا اعتقد أنها
ستكون الدواء الناجع لهذه الحالة . انكم تفتكون ببعضة من كبار الظاللين حق تصر
نفوسهم وبهاركم اذ يعلمون انكم لا تنتصرون في الدفاع على الاقلام ولكنكم تدافعون
بالسيوف ايضاً . وهؤلاء القوم لا يفهمون الا بالارهاب تخاطبواهم بلسانهم واما الضمرين
بفوريكم باذن الله »

وكان ل الكلام سعيد وقع عظيم في نفوس الحضور حتى لم يبق الا من وافق على هذا الرأي ولما عرضه الرئيس على الاكذبة أقرّوا عليه بالإجماع وكانت الجمادية أكثر سروراً به لاتهم أهل سيف . ومع ذلك وقف الرئيس وقال « قبل هذا القرار رغم ارادتنا لانه مخالف الخطة التي رسمتها ، من اول انشاء جيتنا لكتنا قيلناها اولاً لاتها وستة ابنا وستة ابنة ونائباً لان السياسة تقضي بها وقد اقر عليها الاعضاء »

ثم عرض مسألة بقاء عبد الحميد على العرش اذا اخذ الدستور فاختلت الاراء فيه وفي الوصية التالية وافق الرأي ان ينظر في ذلك فيما بعد . فإذا وفقوا الى نيل الدستور تنصروا حسب الاحوال

ثم اوعز الرئيس الى الكاتب ان يبلغ هذا القرار الى شعب الجماعة في مناسير

وغيرها فاجاب مطيناً ثم سأله الرئيس «كم هي الساعة» ففأله الكاتب «الساعة الثانية بعد قصف البطل»

فقال الرئيس «لم يأتنا خبر حتى الساعة من الاخ المقيم في يلدز وقد عودنا ان

يرسل الاخبار كل يوم او يومين «
فقال الكتاب « لم يتأخر عن الارسال فقد اتيت رسالته في هذا الماء ولم انكن
من حلها قبل عبيشي واما اشتغل الآن في حلها على الارقام (شيفرا) »
فاستأذن رامز أن يساعدها في حلها لانه خبير بذلك فاذن له . ثم اشار الرئيس ان تعطى

عشر دقائق استراحة رجايفرغ الكاتب من حل رموز تلك الرسالة فهضوا وخرجوا لقاعة الاستراحة والتقوا جيماً حول سعيد ورامز وجعلوا يسألونهما عما من بهما من الاحوال ويتحادثون ويتفاوضون وتسأولوا بعض المنشآت . ثم عادوا الى الجلبة فقال الرئيس للكاتب « هل في رسالة اخينا شيء جديد ؟ »
 فقال « نعم يا حضرة الاخ المارخص »
 قال « اقرأها »

فقرأ « خذوا حذركم ان المسألة اخذت دوراً جديداً اتبهوا جيداً ان الطاغية بعث الي ناظم بك قومدنان سلانيك ان يفتكم بالجمعة ويقتل على الشهادة فنقدر ان يقبض عليه ويرسله الى سلانيك ارسله والا فهو مفروض بالقتل سريعاً وله الجواز على ذلك - واخشى ان يطاع على محل الجمعة فيبيانكم برجاله اعوذ بالله خذوا حذركم »

ـ ـ ـ

الفصل الرابع والستون

الفتاك

وكان الكاتب يقرأ وال القوم صامتون مبغرتون فلما فرغ من القراءة ضج الحضور وكان اعلامهم صوتاً الملائم لك فلما قال « قد اقرب اجله ... قولوا رحمة الله عليه » فعجبوا من تعبره وفرحوا بمحاسنه ولكن الرئيس طلب النظام للجلبة فانتظمت فقال « قد سمعت ما جاءنا من اخينا في يادر بشأن ناظم بك فما قولكم ؟ »
 فقال اتوربك « ينبغي ان يذهب هذا الرجل من الوجود بمقتضى قرارنا الاخير »
 فقال الرئيس « ان هذا العمل يستلزم ان يكون في الجمعة فدائين يبذلون رواحهم في هذا السبيل كافي سائر الجميات السياسية في اوروبا ونحن لم تسعو ذلك عد فينبغي ان تذمر تذمراً جديداً تسير عليه »

وقف رامز وقال « ان ناظم هذا اسماني وانا اولى الناس بقتله »
 فقصدى الملائم ك وضحك وهو يقول « لا تتمدّ يا رامز على ماليس من شأنك . انت اهل لكتاب المقالات ونظم الانشار فاذَا احتجنا الى ذلك يوماً ما فلا غنى لنا عنك .. اما اعدام هذا الرجل فهو عليّ اقول ذلك واطلب بالحاج . انا اعدم ناظم من الوجود غداً »

فأعجب الجميع ببروأته وشجاعته وثبت جاته وقال له الرئيس « تعمهد بقتل ناظم؟ »

قال بدون تردد «نعم»

قال « فأنت أول قنائي في سبيل الدستور فاذا بقيت حياً فلنك الفضل يتفاقله الناس وليس في الاحياء من العثابين من عمل عملك . و اذا مت فليس في الاموات منهم من سفكك الى ذلك »

ونهض الرئيس وناداه اليه فقبله في راسه ودعاه ليحفظه الله من ذلك الخطير فقال
الشاب « لم اقدم على هذا العمل وانا خائف من الموت . لا بد من الخطير في سيل
الخطير فاقرأت اذكري وني عنده اهل »

ثُمَّ اجْعَمُوا جِيْعاً فِي وَسْطِ الْقَاعَةِ حَوْلَ الْقُرْآنِ وَالْأَنْجِيلِ وَالْمَسْدَسِ وَأَفْسَوْا عَلَى
الثَّيَّاتِ وَالْكَتَّانِ حَتَّى يَقْضِي اللَّهُ بِمَا يَشَاءُ وَوَدْعَوْا بِعِصْمَهُمْ يَعْصَماً وَقَدْ قَرُبَ الْفَجْرِ وَاخْذَنَوا
فِي الْغَلْوَرِجَ منْ بَابِ سَرِيْ غَيْرِ الَّذِي دَخَلُوا مِنْهُ يَوْمِيْ إِلَى زَقَاقِ شَيْقَ لَيْغَطَنَ لَهُ أَحَدٌ
وَهُمْ فِي ذَلِكَ اسْتَوْقَهُمْ أَحَدُ حَرَاسِ الْخَفْلِ فَرَجُمُوا فَقَالَ «شَاهِدْتُ رِجَلًا مُتَكَرِّأً
أَكْثَرَ مِنْ الْرُّورِ ذَهَابًا وَإِيَّاهَا فِي الشَّارِعِ الْمُؤْدِيِّ إِلَى الْخَفْلِ فِي هَذِهِ الْيَوْمِ» . وَيَظْهَرُ مِنْ
مَيْتَهُ وَحْرَكَاهُ أَنَّهُ نَاظَمَ بِكَ القَوْمَدَانَ أَوْ رَجُلَ يَشْبَهُهُ
فَلَمَا سَمِعُوا قَوْلَهُ أَجْفَلَ رَامِزَ وَالْفَتَّاحُ إِبُوهُ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ «أَلمْ أَقْلَ لَكَ أَنَّهُ سِرَابٌ
خَلْدٌ أَتَكَ فَاجْتَرَرْ مِنْهُ؟»

فَدَعَ الظَّابِطَ الْمُلَازِمَ يَدَهُ إِلَيْهِمْ وَقَالَ « لَا تَتَبَعُوا افْسُكَمْ بِالْحَنْرِ مِنْ هَذَا الْمَلْعُونِ فَأَنْهَى
لَنْ يَعْلَمْ فَرْصَةً يَسْقِيَهَا مِنْ مَعْرِفَةِ مَكَانِنَا وَلَا أَنْ يَطْلَعَ أَحَدًا عَلَى مَاعِلَمِهِ ..
قُولُوا وَرْجِهُ اللَّهُ »

فتعجب القوم عند اظهار هذه البالة وقالوا له «بورك فيك من فدائی شریف وووالک الله غایة الظالمن . وجعلک قدوة اقرانک في هذا السیل . الجديد انت اول فدائی في طلب الدستور » وتسرب القوم من ذلك الاجتماع الى أماكنهم

الفصل الخامس والستون

الحرير في يلدز

تركنا شرين وقد امر عبد الحميد بارساله الى القادين لاحتلال في استطاعتها . وكانت هذه القادين في قصر خاص بها مثل سائر القوادين وهن ١٢ قاديناً منهن اربع نساء هن ازواجه الشرعيات ولكل من هؤلاء القوادين قصر خاص فيه دائرة خاصة لها البلاشكتبة والخازنة والمهردار والاستنجي وعدد من الخدم والخصيان والجلواري . ولا تخرج القادين من القصر لسبب من الاسباب



عبد الحميد في اواخر الامم مقابل وفداً من الاجانب

وأصل القادين في الغالب سرية . من المسراري الجلوية الى قصر يلدز . وقد بلغ عدده السراوي عنده في الزمن الذي نحن فيه نحو ٣٠٠ سرية . والمسرارى قواعد في تريتهن وندريهين . وكثيرهن من الشراكسة وفيهن ازلاميات وغيرهن من الاجناس العثمانية الاخرى . والغالب فيهن ان يجذبن صغاراً الى يلدز بالبيع او على سبيل الهدايا من الاهل

او بعض الاعيان، ويندر ان يقبل عبد الحميد جارية على سهل اهديه من الاعيان خوفاً من دسيسة او غيره قياساً على ما يفعله هو مع سائر الناس ينشأ اوئل ذلك السراري في يلدز على قواعد خاصة - فلذا دخلت السرية يلدز ليست كل ماهوفي الخارج فتنسى اهلها واصدقائها . ويتولى تربيتها نساء تعرف الواحدة منهن في اصطلاحهم بياش قافلة . ويرجع كاهم الى والدة سلطانية سيدة دار الحرم . تبقي هذه السرية في المدة الاولى سنتين تتدرب فيها على ما يسر السلطان من حسن الهدام او الاحداث او غير ذلك حتى مشيها ووقوفها وجلوها فانهم يجعلونه على سق خاص . ويعلمونها بعض الاشعار والاقوال الشعرية ويشفونها على سرعة الفهم بالرمز وغير ذلك مما يطول شرحه^(١)

فانا احرزت الفتاة قبولاً وظهرت فيها المواهب التي تؤهلها لرضى السلطان سموها « كوزده » فانا تحضطت الرتبة الاولى وحازت الاستحسان سموها « اقبال » فلذا جاءات الاقبال صارت قاديناً فيفرد لها قصر خاص كما قدم ، لكنها لا تبعد زوجة شرعية الامي توقيت احدى الازواج الاربع فتحل احدى القوادين محلها حسب اختيار السلطان فييق مثاث من السراري على اختلاف طبقاتهن يتوقعن لفتة من السلطان . وهن جميعاً مع القوادين والازواج وما في قصورهن تحت رعاية والدة سلطانه وفي ادارتها واذا توقيت صارت احدى الخوازن او كبرهن في مكانها ويسمونها ايضاً « والد سلطانة » كانه لقب المنصب لالقب النسب

وفي كل قصر من قصور القوادين طائفة من الخصيـان والجوـاري والـسراريـيـن الخـدمـة والـتـدـريـب . وعلى الخـصـيـانـيـسـيـمـونـهـ البـاشـ آـغاـ اوـ قـلـ آـغاـيـ وـقـدـ تـداـولـ هـذـاـ المنـصبـ غـيـرـ وـاحـدـ فيـ زـمـنـ عـبـدـ الحـمـيدـ آـخـرـ هـمـ نـادـ آـغاـ وـقـدـ قـدـمـ ذـكـرـهـ مـراـأـ وـصـاحـبـ هـذـاـ المنـصبـ منـ أـكـرـ اـسـحـابـ النـفـوذـ وـالـسـطـوـةـ لـفـتـةـ السـلـطـانـ فـيـ دـارـ كـانـهـ إـلـيـهـ وـقـدـ مـرـزـنـ كـانـ البـاشـ آـغاـ فـيـ اـقـوىـ شـوـكـةـ فـيـ الدـوـلـةـ مـنـ أـكـرـ الـوزـرـاءـ . ذـكـرـواـ اـنـ زـيـكـيـ باـشـ اـرادـتـ الدـوـلـةـ اـرـسـالـهـ قـائـدـاـ فـيـ اـقـوىـ شـوـكـةـ فـيـ طـرـابـلسـ الغـرـبـ بـفـاءـ لـوـدـاعـ البـاشـ آـغاـ وـهـوـ يـوـمـ ثـبـرـ اـمـ آـغاـ فـدـخـلـ عـلـيـهـ وـهـوـ فـيـ بـحـلـسـ حـاقـلـ فـرـقـفـ بـيـنـ يـدـيهـ وـقـالـ « يـاـمـوـلـايـ اـنـ الدـوـلـةـ عـيـنـتـ عـبـدـ كـمـ فـائـدـاـ عـلـيـهـ عـاـكـرـهـ فـيـ طـرـابـلسـ الغـرـبـ وـلـيـ اـمـيـةـ القـسـ مـنـ هـنـايـسـكـ تـحـقـيقـهـاـ لـتـكـونـ لـيـ حـرـزاـ مـنـ رـبـ الدـهـرـ وـهـيـ تـقـيـلـ يـدـكـ الشـرـبـةـ » فـتـهـقـهـ الـأـغاـ وـقـالـ لهـ « مـقـ وـصـلـ قـدـرـكـ انـ يـتـعـدـىـ رـجـلـيـ الـيـ بـدـيـ »

ويذكرون من نوادر الأغا انه خرج الى ظاهر السراي في الوقت الذي وصل الروس فيه الى سان استفانو وهو الوقت الذي كان فيه الفزع الاكبر والسلطان مهتم لما يؤتول اليه التخت العثماني الذي اودعه ايام آباءه واجداده العظام فدخل عليه الاغا وقال له « لا بهم مولانا الاعظم فقد خرجت الى ظاهر السراي ونظرت عيناً وشمالاً فوجدت جميع ما انتهى اليه يصري هو ملك جلالتك فلا تزعل فانه يكفينا »

ومن ادلة نفوذه اولئك الخصيان ان بورا م هذا هو الذي منع عبدالحليم من ارسال جند عثمانى الى مصر في اثناء الحوادث العرابية وكانت انكلترا قد اوعزت اليه ان يفعل ذلك ليحتل مصر مكانها فرعم الاغا المذكور ان السلطان اذا ارسل جنوداً الى مصر لم يبق في يده من يحافظ على حياته

ونجت الباش آغا من الخصيان طبقة المصاحبين وشهر منهم جماعة كبيرة كان لهم شأن في زمن هذا الطاغية مما يضيق عنده المكان

الفصل السادس والستون

شيرين والقادين

دخلت شيرين الى قصر القادين وج فبرها ما فيه من الربايش الفاخر القبيح واستغربت كثرة من يحول في عرصاته من الخدم والخصيان والجواري. ومشى بها الاغا حتى ادخلها القصر وناداه وجواريهير قلن بالابية الفاخرة بلا حجاب ولا نقاب وفيهن البارعات بالجمال . ولاغروا فنهن منتقبات من الوف من الجواري حان للانجذاب بالجمال وخصوص لرضى سلطان آل عثمان صاحب الشوكه والاقتدار في ذلك العهد والناس يتباعون الى الارتزاق بما يرضيه

لم يقع نظر شيرين على اجل من هنالك ولم تكن تخجل الفرض من جمع تلك الانفس هنالك وكيف أنها جمعت لرضى شخص واحد هومن اشر الخاقق قاتلت في داخلها لكنها شغلت بالنظر الى ما بين يديها من الفتيات وهن شفعلن بها وأن نقرن منها لأنها غريبة ويندر ان يدخل تلك القصور احد من الغرباء رجالاً ولا نساء، وهن أكثر استئثاراً بالعيده والخصيان مما بتلك الفتاة رغم ما في وجهها من الدعة واللطف

وصلت شيرين الى باحة في ذلك القصر كانت القادين وج قد انكاث فيها على مقعد مکو بالسجاد وتمددت بغير كلفة او حذر وبين يديها المهرج المضحك كاغدحانه امامي وغيره من الخصيان الذين أشوا بعض اسباب الالهو من الالعاب ونحوها

فلم أطل نادر آغا على تلك الباحة وشعر الجواري والتصان يقدومه تافروا وغرقوا في دهاليز القصر تهيباً من سيدم وولي أمرهم . أما القادرين فلما ابى بشقدوم الياش آغا اعتدلت في مجالسها وابتسمت له فدخل وجياً وأواماً إلى شيرين كأنه يقدومها إليها وقال « أعرف إليك هذه الفتاة وأسمها شيرين وقد أمر مولانا بإدراسته ان تكون شيئاً مبالغة في أكرامها ورغبة في استئناسها »

فتحفظت القادرين لقيام أطهاراً لاحترامها أمر الخليفة وقالت « كلاً عبد أمير المؤمنين غارقون في نعمة وألة » والنفتنت إلى شيرين ومدت يدها فصاحتها وأمرها بالجلوس وقالت « لقد أتيت أهلاً ووطئت سهلاً - أزيلاً على الرحب والسع » فخرجات شيرين من هذا الاطراء واستأنست بالقادرين وكادت وحشتها تذهب ، أما نادر آغا فأنه تحول عنها وهو يقول للقادرين « لم تبق حاجة إلى التوصية بعد ان إخبرتك برغبة أمير المؤمنين . »

وحللاً خرج زاجع الجواري من الدار إلى الدار والبطر ظاهر فيها يتلاهين باكل النقول كالفسق وغيره او بضاع اللادن يتضاخكن ويتماززن وينهن البارارات في المجال وقد ارخين شعورهن على غير كافية ، وبعضاً من اخضاع بمحمل ما تلهم به القادرين لقتل الوقت فاحداهن وكانت برتية يفاه جميل الالوان اتقن التقليد وآخرى تلاعب قطة جميلة من قطط أقره وهو ضرب من التناثير حسن الشعر جميل الالوان . وآخرى تحمل ورق اللعب او غيره من اسباب الاهو . ولما رأى شيرين اخذن ينفرحن فيها ويتساملن من عسى ان تكون وليس عاليها ثياب الجواري اول قدومهن ولا عهدهما في القصر من قبل ولا هي كوزدة ولا افيال . على انهن ابى يتذمرون ما يهدو من امرها وهن لاهيات مسرورات . الا القادرين فلما هم ما اظهروه من انشاء وابشارة والاستئناس بضميتها كانت الهوا جنس مستترة بين اسرتها لما قام في نفسها من الشك في حب عبد الحميد طرأ رغم ما اظهروه بالامس من رجوعه إلى سابق عهده معها . ولم يفتها انه إنما أظهر ذلك تملقاً لها حق تقدير ما في نفسه لكن حبها له كان يخدعها حتى تصدق دعواه وتتوهم انه يحبها وما زالت ترجو نيل بغيتها وتفديتها متى وضعت حلامها فإذا كان غلاماً ارتفعت منزلتها »

اما شيرين فلما رأت ما يحدق بها من اسباب الاهو والقصف نفر قبلها من تلك الجلسة لكنها تخليت وسكتت . واحست القادرين بوحشتها وهي تزيد ان تناقضها للفرض المقصود من جيئتها خدمة لاغراض مولانا فهشت لها وقلت « اراك مشعرة بالوحشة

لأنك في وسط لم تعوديه لكنك لا تلبثين انت تألفيه . وقد سرني اختصاص امير المؤمنين هذا القصر ببروك فيه اذ جعلك ضيفة علي وهذا من حسن حظي وارجوان تحقيقي سروري بقربك لما افقراء في عيالك من آيات اللطف والذكاء فسمى ان تكوني سلوة لي في وحدتي - والان ينبغي لي ان ابذل جهدي في تلبيتك » وآوامات الى جريدة جازية بقرب مقعدها تلاعب قطة جليلة فهضت ودفعت القطعة اليها فتناولتها القادرين وادتها من خدها وجمات تلاذذ بنعومة شعرها اذا مس خدها وهي تخاطب الجارية قائلة « احباب ارى الخازنة »

فأسرعت الجارية ثم عادت والخازنة وراءها . وهي امرأة كهله كانت القادرين تحبها وتشق بها وتمول عليها واصلها من الباينيا وطن شيرين وقد جي « بها الى يلداز وثبت هناك وارتقت حتى صارت خازنة القادرين وج وكانت هذه تغرّ بها وتركت اليها باسرارها وتعدها صديقة لها . فاحبت ان تستعين بها على اجتناب قلب شيرين للغرض المقصود من تزويها هناك . فلما جاءت في تلك الساعة قدمتها الى شيرين قائلة « هذه خازنة وصديقي فطينة وهي من بذلك لان اصلها من جهات منا - تير »

فما خذلها شيرين وتفرست فيها فرات الجمال لايزال باديأ في عيالها وملامح الالبانين ظاهرة فيها فاحست بارتباط الى رؤيتها وتحركت لتهي « لها مجلساً فإذا بالقادرين تخاطبها قائلة « قد دعوتك لاعرفك الى خيفتنا ولكي تساعدبني في تهيئة ما يسرها فدبري ما ترينه »

فذهبت فطينة ولم يمض يسير حتى جاء المهرج (كاغد خانة امامي) فدعا من القادرين وحياة نجية العسكرية وأشار بيده نحو شيرين اشاره استفهم مع مداعبة فقالت له القادرين « هذه شيفتنا ينبغي لانا ان نسرها وننسها الوحشة فإذا كنت لا تستطيع ذلك امض بسلام »

قادار عماته حتى مالت على اذنه المبين وقال « امن اول الكلام خصم ؟ ان هذه الجليلة ان لم يعجبها كلامي لا بد ان تضحك من رشاقة قومي - وحسن هندامي .. ولكن اذا امرت مولاستا بن يعنيها او يرقضنا كان ذلك ادعى الى الابساط »

فأخبرها ذكر الرقص والفناء فاشارت الى الخازنة فضفت وبعد قليل جاءت فتاة طولها القامة عليها ايس خاص بالراقصات وحول زندتها الاساور والدعمالج تحمل دفأ تغير عليه وترقص ومهما عوادة أخذت توبي عودها وقد جلت الاربعاء على البساط وجمات تغير تقرأ يناسب حركات الرقص . وبذلت كل واحدة جهدها في اتقان ما عهد

الىها والقادين تلاطف شيرن بالحديث عن حركات الرقص او الحان الفناه واكزمه من اللحن التركي والرومي وشيرن ظهر امتنانها من ذلك التلاطف . لكن القادين ادوكت بغيرتها ان ذلك لم يشفع لها عن هوا جسها فاتارت باخراج القوم وقالت لشيرن « يظهر انك لم تطرب في هذه الانعام فان عندنا جارية تقدّم كل صوت من اسوات الحيوانات الاحلية كالديك والكلب والماعز وغيرها » وآوات الى جارية بوداء هناك فسمعت شيرن سوتاً كأنه صباح الديك فاجفافات والتفت الى جهة الصوت فرات جارية تحمل يناء فظنّها تحمل ديكًا فاحظت القادين انها توجه ذلك فقالت « اذن ذلك تحبّين ديكًا يصبح وهو صوت تلك الجارية » واثرت اليها جمامت وهي تقدّم الديك في مشيتها ثم غيرت مشيتها الى ما يشبه الكلب واخذت في الدوام ثم قلدت الفرس والحمار وقد علت القهقهة . فشاركتهم شيرن لكنها كانت تتظر الى ذلك الاهو فنظر الاعتيار فضلاً عما شغل خاطرها من امر رايم ورغبتها في معرفة مكانه . وكانت نارات رغبة القادين في موانئها قد عزمت على استخدامها في استطلاع خبره او الوصول اليه

— سلسلة المقالات —

الفصل الرابع والستون

الشكوى

ولم تكن القادين ج من المتهكمات في الاهو او اللعب مثل سائر القوادين ولكنها قلدتهن في ما يرغبن فيه من التصف ولتركت نفسها ل اكثر الى الرزانة والتعقل والدهاء . ولكن لاوسط تأثيراً في الاخلاق والاموال . وما دار الحريم في يدز الا مليئ عبد الحميد لا يأتيه الا اذا اراد ان ياهو فتجه الافكار الى هذا الغرض . وما شانك في نساء لا عمل طن غير الأكل والشرب وهن في الحال جائعات ؟ اذا يقفين او قاتلن ان لم يكن بالألعاب والفناء والرقص وتربيه السنايدر والطبيور والتعامل بالأكل او المضغ او الاحاديث الفارغة عن الجاز والعفاريت — ذلك كان شأن النساء في يدز الا القادين ج فلأنها كانت اقربهن الى الرزانة والتعقل قادرٍ على ان شيرن لم يفرجها ذلك العمل فامسكت بيدها وانهضها وهي تقول « هل بما الى غرفتي »

نهضت شيرين ومشت حتى دخلت دهليز القصر وشاهدت ما هنالك من التحف الثمينة والفرش الوثير وتدوّرت ان عند عبد الحميد ١٢ قاديناً لكل منها قصر مثل هذا يفرشه واثانه وخدمه وخصيانته غير قصوره الأخرى وغير ما في يلداز من منازل الحاشية والباوران والشاغع وغيرهم وناهيك بالحراس الآلابان . فلم تعد تستغرب ما كانت تسمعه من الاحرار في عرض انتقادهم لماين ان في تلك القصور خمسة الاف انسان وفيهم النساء والجواري والخصيان والباوران و٧٠٠٠ جندي من الآلابان . وارت نقائلاً ٣٥ ليرة عثمانية في الشهر وأتهم بيهبون كل ليلة ١٧٠٠ مائدة (طبلية)^(١) تفرق في القصور وغيرها ويبيق من الاطعمه ما يقتات به مئات ثم يوزع باقيه في بعض العائلات فلما تصورت ذلك اسفت كيف يتسم الفلاحون باموال المظلومين الابرياء وكيف يسود رجل سفاح كعبد الحميد فيقبض على رجل حر نزيه كرامز وامثاله . واحتست عند تذكرها رامز أبتشمريرة وهب جسمها خرقاً عليه ثلاثة يكون قد اصابه سوء وعزمت ان تخاطب القادين بستانه في اول فرصة . حتى اذا وصلنا الى غرفة القادين المخصوصية دعوها الى الجلوس على مقعد مطعم بالاعاج بين يدي سرير مذهب يحيط به ستائر المطرزة وقد فرشت تلك الغرفة باحسن ما تفرض به غرف الرقاد من السجاد والستائر . وفي صدر الغرفة موقد التدفئة (صوبا) من البروسلين نحو موائد المائين الصغير وعليه ساعة مذهبية

جلست شيرين على المقعد بجانب نافذة نطل على الحديقة الداخلية وتشرف على البوسفور عن بعد وجلست القادين الى جانبها وهي ترحب بها وتلتطف في مجامعتها حتى دعوها الى تبديل ثيابها وهنتم بان تطلب من الاوسته باشي اعداد بدلة فاخرة فاعتنقت شيرين باتها تشعر بتعب وربما بدت ثيابها بعد ذلك . وجلست الى النافذة واطللت الى الحديقة فرات ما يسرح هناك من الطيور واكترثها من الحمام فاستغرقت في هواجرها وانقضت نفسها وتللاً الدمع في عينيها والقادين تراعيها وتتوقع فرصة تفتح بها الحديث . فلما رأت اقياصها قالت « ما بالك يا عزيزتي اني اراك منقبضة النفس وادا كان دخولك هذا القصر قد ساءك فاني لا احملك على البقاء فيه قهراً »

تجهّجت شيرين من هذا التوبيخ الاطيف وابتسمت وقد توردت وجنتها من الحياة وقالت « المفو ياسيدتي .. اني هنا منذ بضعة ايام ولم اشعر بانس وراحة كما شعرت في هذا اليوم منذ رأينك . بالحقيقة انك معدن الاضف والانس .. »

قالت « مالي اراك اذا منقبضة النفس على هذه الصورة ؟ .. فنهدت وسكتت »

فادركت القادين أنها فاقفة على حبيبها وكان نادر آغا قد أفهم القادين كل ما عرفوه عن شيرين حتى تعرف كيف تصل إلى نقطه اسر ارها فتجاهلت وقالت « اسمحي لي يا حبيبي ان اقول بحرية ٠٠٠ ان ما ازاره فيك لا يكون الا في الحسين » فلم تهلك شيرين عن البكاء فهمت القادين يبح دموعها وقد اثر فيها منظرها واحست بما تفاصيه لاتها جربت مثله بنفسها فاحت الاستطراف إلى الفرض من هذا الطريق فقالت « ينافر ان ظني قد صدق فانت عاشقة ٠٠٠ »

فاجهفات شيرين من هنا التعبير ومدتها كفها نحو قم القادين كما أنها استكفتها عن الكلام حياً وانكاراً فقالت القادين « لا يسوئك انك عاشقة فان الحب ليس عاراً وقد يكون حبك ظاهراً ٠٠٠ قولي لا تخفي عني شيئاً اجعليني مستودع سرك وان كانت هذه اول مرة لتهنئي بها فاني شعرت بالعاطف نحوك مثل اعطافى على شقيقتي »

فأشرح صدر شيرين لهذا الناطف وحبت نفسها قد فازت بما تريده لاتها ائماً اظهرت أثقباتها بين يدي القادين لعلها تصل بالحديث إلى توسيطها في انفاذ رامز وهي تعتقد انه اسير هناك . فابتسمت وقد خفف قلبها فرحاً بهذا الامل وقالت « انك بالحقيقة أكبر تعزية لي ولا ارى بأساساً من الشكوى اليك لعلك تستطيعين التفريح عنى بذلك من النفوذ والدالة »

فقطاولت القادين نحوها وقالت « قولي لا تخفي عنى شيئاً واكدي اتي ابذل جهدي في سبيل راحتكم »

قالت « الاعترفين اسيراً حل من سلاييك الى يلدز في هذين اليومين ؟ »

قالت « نحن بعيدات عن امثال هذه الاخبار - لا يؤذن لنا بالاطلاع على شيء من ذلك ٠٠ ولكنني استخدم من يأتينا بمخبره اكراماً لخاطرك ٠٠ زيدوني اياها »

فاستبشرت شيرين وابرق她 وقالت « ان شاباً من ذوي قراراتي اسمه رامز اتهموه بالدخول في جمعية سرية في سلاييك ووئي به بعض الجلواسين فتبضوا عليه وساقوه الى يلدز منذ بضعة أيام . فلم اتالك عن الحقائق به حتى يلحقني ما يلحقه او استطع انفاذ و قد علمت انه محجور عليه في بعض هذه القصور - سمعت ذلك من السلطان نفسه ولكنني لم اعرف غير ذلك »

فاظهرت القادين الدهشة وقالت « تشرفت بمقابلة الباشا ؟ »

قالت « نعم تشرفت بالتلول بين يديه ٠٠٠ »
قالت « انه حظ يتذر ان يوفق اليه النساء ويفجر ان جلالته عالم بما يذكى وبين
رامز من الفربى ٠٠٠ »

قالت « نعم هو عالم .. يظاهر ان الجنوايس اطلاعه على خبرى معه .. »
فاظهرت الاستغراب وقالت « لا توأخذني على كثرة اسئلتي .. ما الذي دعك الى
مقابلة الذات الشاهادية ؟ »

قالت « دعافى الى ذلك كما قالت لك رغبتي في الدفع عن رامز والتمريج للسلطان
باتايجول في خاطري من امر الدولة وما يتحقق بها من الاخخار اذ لم يتداركها جلالته
بالدستور ٠٠٠ »

فاجفلت القادين وترجعت عنده سجاع اسم الدستور وقالت « قلت له ذلك ؟
وماذا قال لك ؟ »

قالت « اظهر لي كل ارتياح وآنسى لكنه طلب الي ان اخبره عن اعضاء جمعية
الاتحاد والترقى الفائعة بالطاعة بالدستور في سلاليك ورامز واحد منهم .. فاعتذررت
بأنني لا اعرف منهم احداً .. فهدىني ماني اذا لم اتيح له باسمائهم كان رامز في خطر على
حياته واني اذا بحثت اتفقدته من القتل »

فبادرتها القادين بالسؤال « وماذا فعلت المخبيبي ؟ »

فهزت راسها هزّ الانكار وقالت « كلاماً .. هي التي اعرف احداً منهم فهو من
المرؤأة ان افتحي خبرهم .. واعرضهم للخطر ؟ »

فابتسمت القادين ابتسام الاعجاب واظهرت عدم رغبتها في الاتلاع على شيء من
ذلك وقالت « الله درك من جسورة حازمة التي لم اعهد مثل ذلك في النساء من قبل ..
تعرضين نفسك وخطيبك لخطر القتل محاذاة على عهد بعض الناس ! انها مناقب كبار
النفوس » وخففت صوتها وتلفت يميناً وشماليًّاً كأنها تخاذل ان يسمعها احد وقالت
« والحق يقال ان بين اعضاء هذه الجماعة جماعة من المقللة والملماء .. ولكن بينهم ايضاً
جماعة من الضعفاء المنافقين يستقعن باذى غيرهم .. ولو كانوا كلام مثل رامز ومن تلك
لكانوا .. » وسكت وتحفظت لاوقوف وهي تقول « الا تهضئن لطعم ؟ »

فشق عليها قطع الحديث قبل اتمامه لعلها تتوصل الى طلب مساعدتها فافتذررت عن
الطعم اتها غير جائعة فقالت القادين « الا تأكلين بعض الفاكهة ؟ »

اجابت « كاثائين » وظلت قاعدة فعادت القادين الى الجلوس وقالت « لم تقولي

لي ما هي الخدمة التي تطلبينها في ..»

قالت « لم سبق لي مع ذلك من حاجة الى التصریح »

ففتحت وقالت « طبعاً انت تطلبين معرفة مقر رامز وبعثين عن الطريق الى نجاته »

قالت « نعم هذا كل ما اطلبه وادا كنت تستطعين ان تساعديني على ذلك لا انسى فضلك طول جاتي »

قالت « اذا استطعته فاني افهمه من كل قلبي ولا افضل لي في شيء من ذلك .. » وتحسنت واظهرت اهتمام بالكلام وبنعمها الحيا ..

فتالت لها شيرين « مازا تریدین .. قولي يا سیدتی .. العلاّث ترین مانعاً من دخولك في هذا الامر فذاك كنت .. »

فقطعت كلامها قائلة « كلا .. ولكنني اكرم امراً لا اجد من ايجي به اليه ..

وقد رأيت فيك ... » وبلمت ديفتها واطرقت لحظة ثم وقفت وهي تتجاهل ما يدر منها وقالت « سأبعث اليك عن خبر دامز واظلمتك عليه .. افضل ذلك من كل قلبي .. »

وسفقت بفمها جارية سوداء فامرتها ان تعد المائدة وتذكر عيالها من الفاكهة وان تدعوا المخازنة فطينة . وامسكت شيرين يدها وانهضتها الى المائدة فشت معها وهي تتوقع ان تسمع منها حنة الحديث وان تبوج لها بسرها والقادرين تفانطها وكلما اقترب حديثها من تلك النقطة غيرته واستنافت الموضوع . فادركت شيرين انها كانت ترید ان تكشفها بسر وندمت فكتبت

الفصل الثامن والستون

الاستطاع

فقطت ابنة ذلك الهاجر في امثال ذلك وشيرين تزداد اشتياقاً بالقادرين وخازتها وظللت عالقة الذئن بما همت ان تكشفها به وتوهمت ان القادرين عدل عن المكافحة خوفاً من ضياع سرها لفترة تنتهي بها فاجلت ذلك الى فرصة اخرى . ولما مالت الشمس الى الغروب وانقضت الطبيعة لفراحتها انقضت نفس شيرين وغابت عنها الـ ويناء

وليس أقل على قلب الحب المشتاق من ساعة الغروب فانها تزيده وحشة والما . ولم تشا شيرين ان يهدو اتباضها لدى القادين ولا خازتها فالظلمة في غرفة اعدوها لها واظهرت انها تعبت تطلب الرقاد لحظة

فلم تخلت ب نفسها في تلك الغرفة اخذت تتأمل بما هي فيه وماذا عسى ان يكون من امر رامز هل هو هناك وهل يمكن انفاذه - على انها كانت ترجو من وعد القادين خيراً كثيراً ولم يخامرها شك في صدقها وخصوصاً بعد ان رأتها هم يعکاشفتها عن سرها وهي لم تقابلها من قبل . قضت ساعة في هذه المواجهات وقد اطلعت الدنيا واپرت مصايب القصر الا غرقها قام يشا الفراش ان يزعجها بدخوله لانه يحبها نائمة

وهي في ذلك سمعت وقع اقدام في ارض الغرفة فرفعت راسها لترى من القادر ^{يُقْبِلُ} ^{يُقْبِلُ} في تلك الظلمة القادين داخلة وهي تحتفظ الوطء ثلاثة توقيتها فتحركت شيرين في سريرها دلالة على انها مستيقظة . فتقدمت القادين نحوها بسرعة وآكلت عليها وجعلت تقبلاها ترحيماً بها . بخلست شيرين في الفراش وقد احست بحرارة تلك القبلات ولم يبق عندهما شك في حبة تلك المرأة فبادرتها القادين بالسؤال عن سببها فقالت « اني في خير اشكر فضلك ؟ »

قالت « لا تتعافي اني نسيت وعدك ايها لابحث عن حبيبك ولكنني لا استطيع ذلك الا في فرصة مناسبة ولم تأت لي الا الان .. ولا اقدر ان افعل ذلك الا سرّاً عن كل انسان .. وقد يكون ذلك مستحلاً علي لو لم اوفق الى فرصة لم يوفق اليها سواي من القوادين .. » قالت ذلك وتشهدت

فاحسنت شيرين بليل القادين الى الشكوى والمكافحة فقالت لها « مثلك يتنهى وينكرو ايضاً ؛ اناك اشرف امراة في المملكة العثمانية لانك من نساء السلطان . وفي المملكة ملايين من النساء يحدنكم على مقامكم ومع ذلك فانك تزاوهين .. »

فتهجدت ثانية وقالت لها في تلك الظلمة « ليس في المملكة العثمانية اشق من نساء السلطان . حتى جوارينا فلنون اسعد حالاً منا . »

فاستغربت شيرين هذه الشكوى وارادت ان تعرّض فبادرتها القادين قائلة « هل في الدنيا ائمن من الحرية ؟ »

فانتعشت شيرين عند ذكر الحرية وقالت « كلاماً »

قالت « الحرية التي يتحمّل بها كلابنا وسنابيرنا وطيورنا ودواينا حتى الناموس والذباب - ان هذه الحرية نحن محرومون منها دون سائر البشر . ان المرأة هي سارت

قاديناً دفت في قصرها لا تخرج منه حتى الى الحديقة التي تربتها من هذه الثانية . وهي فوق ذلك عرضة للخطر والغضب وسوء الظن . تمعي الجارية في يدز في الرقي وارق درجة يمكن ان تبلغها ان تصير قاديناً من نساء السلطان فاذما وصلت الى هذه الرتبة ندمت على ماضيها لانها فقد حريتها - حرية النهاب والطغي ، ويمنع عنها الغنائم بالطبيعة . الحرية آه الحرية .. » وسكتت كأنها غصت برقها

فأثارت شيرين من هنا القول ووجدت الكلام عجلاً فقالت « آه يا سيدني ... الحرية ! هذه هي طلبة الاحرار الذين يحاربهم السلطان ويبحث عنهم ويتمدد قتلهم » وما قالت ذلك خافت ان تكون قد تطوحت لكنها ما لبثت ان سمعت القادين يقولون « السلطان ! انه لا يريد ان يكون احد حرراً حتى هو نفسه فإنه مقيد في هذه التصور كالمعلم ولكن ما العمل ... اعلمي يا شيرين اني تسرعت في مكاشفك فارجو ان لا اكون قد اخطأ ظني فيك .. اني فلتنت فيك الحبة وصدق المودة فهل انا خطئة بهذا الظن ؟ »

فيادرتها شيرين قائلة « ان ذلك في عجله انت تخاطبين فتاة تحبك وتغول عليك .. وواحدذا لو استطع ان اخدمك في شيء »

فهمشت القادين حتى وصلت الى الباب وتلفت خارجه كأنها تبحث عن احد هناك ثم عادت وقالت لها « ان اكبر خدمة تقدرين على تأديتها لي هي ان تقدمني من هذا السجن .. هل يعن الزمان علي بذلك يا ترى ؟ »

وكانت الفرقة مظلة الا بصيص من النور كان يدخل من شفوق الباب والتواجد والقادين تتكلم هما وشيرين تستغرب ما تسمعه وقد داخلاها الشك لحظة في صدقها لكنها لا رأسها تكشف لها سرها ولا تطلب منها كشف خبرها غالب عليها تصديقها فقالت « اذا اتيتني لي الخروج من هذا الاسر مع رامز تقي اني باذلة جهدي في ما تريدين — ان القوم العاملين مع رامز على يد الحرية اذا عبحوا — وهم تاجرون باذن الله — كنت في مقدمة الفائزين .. انا افديك بروحى »

فاظهرت القادين أنها صدقها وقالت « صدقت في ما تقولين بالنظر الى حبيبك واليک واما بالنظر الى سائر اعضاء تلك الجماعة فلا ... انا اعلم منك بذلك ... كثيراً ما سمعنا بجمعيات قامت تطالب بالدستور او الحرية ثم رأيناهم يأتون ويسلمون لخدمة السلطان طمعاً بالثواب وانما يضام منهم الاحرار الصالقون الذين انا يعلمون خلدهم الحقيقة — ولا اظن جميعة سلاييك هذه المررة الا مثل سوابقها في باريس وغيرها —

ومع ذلك دعينا نؤمن بنجاحها ... » ثم قطعت الحديث وانقلت الى سواه لтом شيرين أنها لاظطابها يكشف السر - وذلك ادعى الى الحصول عليه - فقالت « قد شردا عن الموضوع الذي جئت من أجله - قاول كل شيء أني واثقة بمحافظتك على السر - ثم أني جئت لا عذر لك عن تأخري في استقاء خبر حبيبك لأنني لا استطيع ان اظهار بذلك ولا بد من اغتنام الفرصة . » وسكتت
فقالت شيرين « لم توقفي الى فرصة بعد ؟ »

قالت « ستحت لي فرصة لم يوفق اليها غيري .. قلت لك ان نساء السلطان لا يؤذن لهن بالخروج من قصورهن ولا ان يأتي اليهن احد غير الخصيان والجواري ولذلك رأينا نشفل افسنا بذلك الالعاب الصبيانية كمهارة الادب والملاءعة الساترة - الا انما قان السلطان اذن اذاً فوق العادة لطبيب من اطباء المأمون ان يتردد اليها متذ بضئلة ايم يسألني عن صحتي وكانت اشكوا اخراجها عالمي من اجله - فهذا الطبيب اشعر انه صادق وقد غادره بالجواز والعزم - واما مع ذلك مستغربة الاذن له بالدخول الى هذا القصر ولا اجرس على مخاطبته بشأنك ثلاثة اعراض نفسى للخطر ولكنني رأيت رايماً اخلك توافقيني عليه وذلك ان اعرفه اليك بموجة انك منحرفة المزاج فرقى انى للاستفهام منك عما تش肯 تدرجى بالحديث حتى تسأله عن محل رامز . ولا بأس عليك اذا فعلت ذلك قان السلطان نفسه يعلم قلقك عليه . فلعله يخبرك عن مكانه وادا افلحت فاذكرني بالطهير - وها انا الان ذاهبة وسأرسل الخادم ليضيء هذه الغرفة فامكثي في الفراش وابا اشييع في القصر انك منحرفة الصحة » وخرجت . ثم جاء الخادم واضاء الغرفة وهي ساكتة في الفراش كالمرضة وما بها من رعش وقد عادت اليها هواجسها واحسنت ان القادين تحبها حبّاً صادقاً وتحق بها ثقة كبرى ورات أنها قصرت في ايفائها حق الصداقه لانها ساءت الظن بها وخافت مكانتها باسرارها اما القادين فقد اتفقت جلتها حتى اوهمت شيرين أنها لا يفهمها سرّ غيرها وقدمت هي يكشف سرّها لها حتى جعلتها تسمى من نفسها لما كشفتها باسرارها وادركت بدهائه ان شيرين تنتظر اول اجتماع تتحقق فيه بالقادين لتيح لها باسرارها في مقابل ما فعلته هي

ومكثت شيرين في الفراش ساعات حتى آن الرقاد ولم يأت الطبيب اذ لم يكن على موعد من المجيء وقد اوعز اليه نادر آغا ان يتصرف عن القادين هذين اليومين اذ لم تبق حاجة الى التعجيل - وفي الصباح التالي بكرت القادين الى شيرين لتعذر طاعن

تختلف الطيب عن الحضور في ذلك اليوم وهي تحب له عذراً في الغياب واتها
بعثت اليه من يستقدمه وجلست بجانب سرير شيرين وقالت « تأملي يا عزيزي مقدار
تقيدنا - اني لا اجرس ان استقدم الطيب الا سراً ولو علم السلطان بذلك لبانح في
العقاب وقد يعاقب بالقتل لاقل الذنب .. ان هنا البوسفور عملاً يجثت القتل من
لسان الرجال » قالت ذلك وهي تخفض صوتها وتتفاوت
فلمما سمعتها شيرين تقول ذلك عزمت على التصرع لها ببعض الشيء فقالت
« اذا كنت تشکین من اقاتك هنا فلتتركي هذه الفصور واخرجي الى بلاد الحرية »
فقالت « الى اين اذهب وانا غريبة وحيدة ؟ واعترف لك اني لا اثق بالاحرار
فانهم كثيراً ما راجعوا وخلفوا »

قططعت شيرين كلامها قائلة « انهم ياسيدتي اليوم غير ما كانوا عليه من قبل »
فهزت راسها استخفافاً وقالت « انهم هم لم يتغيروا .. »
قالت « اؤكد لك انهم هذه المرة غير ما كانوا عليه قبلـاً وانا من اعلم الناس بهم »
فاستبشرت القadirin بقرب الوصول الى المقصود فقالت « يا حبيبي ان امثالنا لا
يمكنه الاطلاع على حقيقة الرجال .. لم يظهر بين الاحرار المقاومين للظلم اشخاص من
مراد بك وهو الان في الاستانة بين الاخماء المقربين .. »
فابتسمت شيرين ابتسام عالم بامرها متجهها بمحاطبه وقالت « قلت لك ان اعضاء
جعية الاتحاد والترقي هذه المرة يختلفون عنهم في المرات الماضية اختلافاً كبيراً -
ولولا حرم الاسرار لذكرت لك بعضهم فتقين بقولي وتعلمين اني اقول لك الصدق .. »
فاطرقت القadirin لحظة ثم رفعت بصرها الى شيرين وفي عينيها ملامح العتاب وقالت
« صدقت ينفي للانسان ان يكون حريراً على سره ولا يفرط به كما فمات انا .. ولكنني
وقت بك ولم اندم على ما فرطت به لاني شعرت بذلك الراحة »

فتوردت وجنتا شيرين من الخجل واحتست انها اخطأتا بنا قائلة . واما لم يكن في
يتها مكاشفة القadirin بشيء لم يكن ينفي لها ان تذكر شيئاً من هذا الفيل فارتبت في
امراها ولم تجد لها مخرجاً الا بالمكاشفة لكنها قالت « قد اخطأت يا سيدتي فهم مرادي ..
ومع ذلك فقد قبلت توبيخك . فاتام اقل اني اضن عليك بسر اكفهم اذا كانت ذلك
السر لي واما هذى السر فهو لامز وقد اطلعني عليه ونحن نتاشاك ولا ينفي عليك ذلك
وهو وانق امه لا يخرج من في لاحد فإذا اخرجته اعد عمل خيانة . واما الاسرار التي
هي لي فلا اخفي عنك شيئاً منها »

فاجابتها وهي تساعدها على الاعتذار « انت قدرك قد ارتفع في عيني » الآن
عما كان عليه قبله .. ان الانسان يجب ان يكون اميناً صادقاً والا فهو من الاشواو
وحاشاك ان تكوني منهم — وهذا يؤكد لي ان ما كاشفتكم به الآن يبقى محفوظاً عن كل
انسان .. لأنني اتي أطلب منك ان تسمحي بمسار الجمعية ولكنني اجادلك في حقيقة هذه
الجمعية فاحب ان اعرف الفرق بين اعضائها الآن واعضائهما في الامس »

فانتشرح صدر شيرين لذلک التخاص واحتست بزاهة تلك المرأة وكرفتها وسعة
صدرها وتعقلها حتى هان عليها ان تضع كل اسرارها بين يديها . على أنها جاملتها قاتلة
« الفرق المهم ان اعضاء الجمعية اليوم اذترهم من ضباط الجيش العثماني وكانوا قبلها من
الكتاب والادباء .. ولا يليث الضباط كلهم ان يستظموها في سلوكها فاذا فعلوا ذلك فيمانا
يطاردهم عبد الحميد »

فاظهرت القادين الاستغراب وقالت « هل انت على ثقة بما تقولين ؟ » قد سمعت
 شيئاً من ذلك .. ولكنهم يقولون ان بعض الضباط الصغار المطرودين من الجيش
استظموها في الجمعية »

قالت « كلا يا سيدتي .. ان المستظمنين في الجمعية اليوم هم اهم ضباط الجند من
امراء الایات فمن دونهم وهم في خدمتهم العسكرية والجند تحت اوامرهم مت شاؤوا واما
اعرف كثريين منهم » قالت ذلك وتصاعد الدم الى وجهها بدماً على تصربيها انها
تعرف كثريين منهم

الفصل التاسع والستون

الدكتور ن.

اما القادين فاكتفت في تلك الساعة بهذا التصریح اذ عرفت ان سر الجمعية عند
شيرين وعزمت على اتخاذ الوسائل لاستطافتها فيما بعد فقالت « آراك تقابلين نفسك بين
التصريح والكتاب فانا اتوسل اليك ان تكفي عن التصریح ... وكاني اسع لغطاً في الدار
لعل العالیب اتى » قالت ذلك وخرجت ثم عادت بمحنة وقالت « لم يات العالیب لانه
امر ان لا يدخل قصري في هذا اليوم ولكنني سأبعث اليه ان ياتي متذمراً في هذا

المساء » قالت ذلك وخرجت لشأنها . فاتت الخازنة لسابرة شيرين وتحابنا وتفاوضنا في شؤون مختلفة

فلا امسي المساء ذهب أهل القصر الى منامهم وظللت القادرين ساهرة في غرفة شيرين وبعثت الخازنة ترقب وصول الطيب وتأنى به اليها . فلما قرب نصف الليل اتت الخازنة تخبرها عن قدومه فاذت بدخوله ووقفت لاستقباله بباب قاطل وعليه لباس خدمة القصر فاستقبلته مرحة فانحنى احتراماً وقال « قد ابتد يا سيدتي طوعاً لامرك رغم الخطير الذي اخافه .. فاذا تأمرين »

فألفت على غيرها وقالت « انت تعلم عني بمبارتك واعتقادي صدق علاجك وعندى صديقة اسامها انحراف فاحببت ان تكون انت طيبها » قالت ذلك ودخلت . قبليها وهو ينظر نحو السرير فرأى شيرين جالة فيه فلم يتعرس فيها تأدباً فسبقته القادرين في مخاطبتهما قائلة « هذا طيبينا وصديقتنا اخبريه عن شكوكك ربيعاً اعود اليكما » وخرجت فاستقرط الطيب تخلبها عزمها وجلس على كرسي بجانب السرير وسأل شيرين عما شكوكه فقالت « اني اشكو من الم شديد في الرأس »

وكان يخاطبها وهو مطرق فلما سمع جوابها اجلل لامه تذكر سوتاً يعرفه فظر إليها وهي تنظر إليه .. وكان الطيب في حدود الثلاثين من العمر فلما وقع نظرها عليه اختلط قلبها في صدرها لانه يشبه شخصاً تعرفه في سلانيك كان صديقاً لرامز فجعل كل منها ينظر الى صاحبه فسبقتها هو الى الكلام وان سبقته هي الى المعرفة لكنها خافت التصرع فقال لها « شيرين ؟ »

قالت « نعم .. وانت المست الدكتور .. نـ. ؟ »

قال « بلى ... ما الذي جاء بك الى هذا؟ » وأشار باصبعه على فمه ان لا ترفع صوتها

قالت « جئت لاقتنص عن رامز » وغلب عليها البكاء ثم قالت وهي تشرق بوجهها

« اين هو؟ وماذا تفعل انت هنا؟ »

قال بصوت منخفض « انا هنا في مهمة باسم اخواننا استطاع لهم اخبار هذا

الطاغية واما رامز ... » وسكت وهو يتعدد كلامه يكتم شيئاً يعرفه

تفاوض ذلك التردد وقالت وقد شخصت بصرها فيه « اين هو ماذا اسامه؟ قل .

قل ... بالله قل . »

قال « تعلي يا شيرين مثل عهدي فيك لاقتنص عليك خبره ... »

فتطاولت بعنقها نحوه وحدّثها عنها بــ اصحاب حبيبها وعلمت ان هذا الطيب

جاسوس الاحرار في يلدزوم تهلك ان اعادت السؤال والاخت في طلب الجواب فاجابها « علست ممن يضمنة ايمان رامزاً اتي يلدزواهه مقيم في قصر مالطة بقلعت اترقب الفرس للدهاب اليه لعل استطيع اقاذه فلم اقطع ذلك الاسماء امس بمحبة اشحطها فالمراجعة هناك » فاقشعر بذنبها وقالت « اين هو ؟ اين ذهب ؟ . . . » قال « لا ادري »

قالت « بل انت تدرى . . . قل . . . هل قتلوه ؟ . . . »

فثار اليها ان تخفض صوتها وقال « لا اعلم ابن هو ولا ما فعلوا به ولم اجد احداً من اهل يلدز يعرف خبره . والذى عرفه بعد البحث الدقيق الى ساعة عجيبة انه خرج من ذلك القصر في اواسط الليل منذ يومين بدعوة من الماين وله يرجع . . . وهز راسه كاه يأسفا لضياعه

تحفظت شيرين انهم قتلوه خلسة كما قتلوا مئات قبله اما ختفاً او غرقاً او سعياً ووُنيت من السرير رغم ارادتها وهي تقول « قتلوه يا دكتور ! قتلوه ! اظنه ذهب طعاماً للاسماك » ولطمط وجهها وبكت فامسكتها واجلسها وقال لها « تحبلدي يا شيرين ولا تفعل ما يأول الى الخطير علينا جيماً »

فصاحت اماما فلا ابالي بما يصيبني بعد رامز ولكنني اخاف عليك فانك ذو نفع للحرار . . . »

فقال « وانت اضع مني ظم . . . هداي روحك . . . واذا فرضنا ان اخانا اصيب بسوء في سبيل الحرية والدستور فهنيئا له .. ان اسمه سيخالد في بطون التاريخ . وياب جيما يوم انما انا شهادتي في هذا السبيل »

فاطرقت شيرين وقد رجع اليها رشدتها وأخذت تقارب عواطفها . ومع تعانيمها في سبيل الدستور والحرية قلن جبها رامزاً غالبا على كل ذلك - لم تسمح نفسها ان يكون صحة الدستور لان الحبيب لا يرضى ان يحال الدنيا كلها فداء لحيبه . لكنها ظلت ساكتة ودموعها تساقط على خديها فعاد الدكتور الى الكلام فقال « على انا اعلم تتحقق مصير رامز وقد يكون اقرب الى الحياة منا .. خففي عنك واصبري ان الله مع الصابرين »

وهما في ذلك سمعا وقع خطوات عند الباب فانتبه الدكتور انه فرط في الكلام وخاف ان تكون القادين قد سمعت ما دار بينهما وهناك البالية الكبرى والخطار العظيم

ولم تتبه شيرين لهذا المخطر فظلت ساكتة
اما الدكتور فاعمل فكرته لحظة وكان سريع الخاطر حازماً فطلاً ولو لا ذلك لم
يقبل ان يكون جا-وساً للجمعية في يلدرز مدفن الاحرار . ووقف لاستقبال الداخل
فإذا هي القادرين قد دخلت باشة هاشة فانحنى لها باحترام فقالت له « هل عالجت
حيبيتها شيرين العلاج الشافي »

فاجابت شيرين عنه قائلة « ان العلاج لا يفيد يا سيدتي لانهم قتلوا » وغضت بريءها
واستغرب الدكتور تصرحها بذلك للقادرين اذ لم يكن يمكنه دعى هذه التالية
بعلم القادرين فقالت القادرين « ماذا تقولين ؟ هل قتلوا راماً من قتلهم ؟ »
قالت شيرين « الم تأذني لي ان اسأل الدكتور عنده امهه يطاعن على خبره فقال
انه علم بوجوده في قصر مالطة الى منتصف الليل من يومين وانه دعى الى المائين ولم
يرجع فهل عندك شاك انهم قتلوا ؟ »
فاطرقت القادرين وباتت الدعثة في عينيها وقالت « ليس من الفضولي ان يصح
حذرك ولكن ربما كنت مصيبة اذ قد يفعلون ذلك »

الفصل السبعون

فوز باهر

وكان الدكتور يعمل فكرته في تلافي ما قد يكون من اطلاع القادرين على حدتهم
فاما رأها سمعت ان عبد الحميد يقتل على الشبهة سرّاً وجهراً طرق ذهنها سبيل للتجاهله
من هنا الباب فقال « هل تعتقدين يا سيدتي ان راماً قتل ؟ »

قالت « لا اعتقاد ذلك اعتقداً تابناً ولكنهم يفعلون هذا في سبيل صيانة الدولة »
قال « اراك تغزوين القتل في هذا السبيل »

قالت « قد جوزه قبل ما كيافلي الفيلسوف »

فاظهر الاتهام ودعاها الى الجلوس على المendum بليلت وهي تنظر اليه وتترس في
وجهه فقال لها « تغزوين القتل في هذا السبيل ولو كان المكتول انت ؟ »
فاجرفت وقالت « ماذا تعني ؟ »

قال «اعني سرًا عظيمًا عهد الى منذ ايام وانا اؤجله شفقة عليك»

قالت «تعني انهم ارادوا قتلي»

قال «ارعني سمعك واستجعبي رشك واعلمي انني اعرض عليك الحياة بعد ان حكم عليك بالقتل»

قالت وهي تردد «اقصد .. لا تحف»

قال «هل عهدت مثلـي بدخل على القوادين ويتردد الى قصورهن قبل الان؟»

قالت «كلا»

قال «فـاـلـذـيـ جـعـلـ ليـ هـذـاـ الـاـمـيـازـ الـآنـ»

فاطرقت واعمالـكـ فـكـرـتـهاـ وـاحـسـتـ كـاـنـهـ اـفـاقـتـ منـ سـبـاتـ وـقـالـتـ «ـثـمـ مـاـذاـ؟ـ قـلـ .ـ»

قال «اعلمـكـ انـكـ صـرـتـ فيـ خـطـارـ الموـتـ مـنـذـ عـلـمـ عبدـ الحـمـيدـ انـكـ حـمـلـ .ـ وـلـامـ

ـفـلـحـ الـخـاصـنـةـ باـسـنـاطـ حـلـكـ كـلـفـيـ بـقـتـلـكـ بـالـسـمـ خـاـلـةـ .ـ قـدـ يـخـطـرـ بـلـالـ الشـكـ فيـ قـوـلـيـ

ـاـكـنـكـ تـحـقـقـيـنـ صـدـقـهـ مـقـىـ تـذـكـرـتـ تـرـدـدـ هـذـهـ الطـاغـيـةـ بـشـأـنـكـ .ـ كـمـ غـالـطـكـ وـاـهـمـكـ ..

ـثـمـ هـوـ اـجـلـ قـتـلـكـ لـاـ اـحـتـاجـ لـكـ فـيـ الـمـهـمـةـ الـاـخـيـرـةـ ..ـ لـاـ اـعـامـ مـاـ الـذـيـ يـرـيـدـهـ مـنـكـ

ـوـلـكـنـهـ مـاـ زـالـ يـلـاحـ عـلـيـ بـاـنـفـادـ اـمـرـهـ بـقـتـلـكـ اـلـىـ صـبـاحـ الـاـمـسـ فـلـمـيـ انـ اـقـطـعـ عـنـ

ـقـصـرـكـ بـضـعـةـ اـيـامـ ..ـ فـقـعـلـتـ وـاـمـلـكـ اـذـاـ تـذـكـرـتـ مـاـ الـذـيـ كـافـكـ بـهـ بـالـاـمـسـ تـحـقـقـيـنـ

ـصـدـقـ قـوـلـيـ»

ـفـذـكـرـتـ القـادـينـ مـاـ خـاطـبـهـ بـعـدـ الـحـمـيدـ بـشـأـنـ اـسـتـطـلـاعـ سـرـ شـيـرـينـ وـهـيـ رـغـمـ

ـحـبـهـاـ لـهـ كـانـتـ تـمـقـدـ غـدـرـهـ تـماـعـرـفـهـ مـنـ سـيـرـةـ حـيـاتـهـ مـعـ الـذـيـنـ قـتـلـهـ مـنـ رـجـالـهـ بـعـلـمـهـاـ ..

ـفـاطـرـقـتـ حـبـيـاـ وـسـبـقـ اـلـىـ ذـهـنـهاـ صـدـقـ الدـكـتوـرـ فـيـ قـوـلـهـ وـظـلـتـ سـاـكـنـةـ

ـفـابـتـدـرـهـاـ قـائـلاـ «ـقـدـ تـرـنـايـنـ فـيـ كـلـامـيـ وـرـبـاـ حدـثـتـكـ فـسـكـ اـنـيـ اـكـذـبـكـ وـقـدـ

ـتـقـاـيـنـ خـبـرـيـ اـلـىـ هـذـهـ الطـاغـيـةـ ..ـ فـاـلـاـ اـبـلـيـ اـذـاـتـ فـيـ هـذـاـ السـيـلـ وـلـكـ مـوـتـيـ لـاـ

ـيـشـجـيـكـ مـنـ الـفـتـلـ فـاقـعـلـيـ مـاـ بـدـالـكـ»

ـوـكـانـتـ القـادـينـ قـدـسـمـتـ بـعـضـ مـاـ دـارـ بـيـنـ شـيـرـينـ وـالـدـكـتوـرـ مـنـ الـحـدـيـثـ وـخـصـوـصـاـ

ـقـوـلـهـ اـنـ يـتـمـيـ اـنـ يـتـوـبـ كـامـاتـ رـاءـزـ فـيـ سـيـلـ مـصـاحـةـ الـاحـرارـ وـطـلـبـ الـدـسـتـورـ فـقـلـ

ـعـلـىـ ظـنـهـاـ صـدـقـهـ اـكـنـهـ اـرـادـتـ اـنـ تـثـبـتـ مـنـ ذـلـكـ فـقـالـتـ «ـوـمـاـ الـذـيـ يـسـيـ»ـ عـبـدـ الـحـمـيدـ

ـمـنـ حـلـيـ حـتـىـ بـرـيـدـ قـتـلـيـ؟ـ»

ـقـالـ «ـالـتـ اـرـمنـيـةـ الـاـصـلـ؟ـ»

ـقـالـتـ «ـنـعـمـ»

قال « لم تعلمي خوفه من الارمن وكم قتل منهم غنوياً .. وازيدك علماً ان بعض التجارين تباً له ان سقوط دولته سيكون على يد ولد منه تلميذ امرأة ارمنية فلسا عالم بحملك رغم الوسائل التي اخذتها اصبح همه قتلك وعهد بذلك الى فرضيت وانا ازجل ذلك قصداً لأنني اشفقت على صباك »

فقالت « كيف رضيت انت ان تترك هذه الجريمة ؟ »

قال « حاتاً الله ان اقتل ذلك . اني حر صادق لا اقتل النفس البريئة وانما قبات ليتسر لي السكوت في هذه القصور استطلع اخبار الماين لاخواتي الاحرار .. انا ياسيدتي جاسوس للاحرار هنا . اقول لك ذلك بكل حرية ولا ينفيك ان تنقل خبرى الى هنا الطاغية ولا يهمي اذا قتلت قاتل اشرف بالشهادة في هذا السبيل . نحن الوف نطلب الدستور ولو قتل نصفنا في سيل نيه لا نبالي لان النصف الباقى يناله ويعطف التاريخ ذكرنا .. اما انت فاتك مقتولة لا محالة لان عبد الحميد يرى بقاءك سبباً لقتله . واذا بقيت حية حق تهدي فان طفلك يقتل او لا ثم تقتلين انت .. الا اذا بقيت نصحي ونحيوت بنفسك ورجعت عن عبادة هنا العظام وكفرت عن ما شبيك بالأخيار الى الاحرار .. هذه نصيحتي لك فاقعلي ما تائين والسلام »

وكان الدكتور يتكلم كأنه صاحب سلطان فكان لكلامه ثأثير شديد على القادرين حتى اعتقادت صدقه وخلفت على حياتها وجاهة جينتها فاطرقت . وقد جدد الدم في عروقها وشيرين تسع ما دار من الحديث وتمجب هذه الصدقة وافتتحت الفرصة لتأييد قول الدكتور فوجئت كلامها الى القادرين وقالت « انظري ياسيدتي اني انصح لك ان تصفي الى نصحي .. واما حدثتك نفسك بتغير ذلك واردت قتل خبرنا الى عبد الحميد فقد علمت ان الموت لا يهمنا : اما الدكتور فنه ذكر لك السبب اماماً فهو تغنين اني احب الحياة بعد ذهاب حبيبي رامز شحنة الدستور غدراء ؟ .. » قالت ذلك وعادت الى البكاء

فثارت القادرين من كلامها وكانت من اهل النكارة والدهاء كما علقت ولكن حبها عبد الحميد اعمى بصيرتها فلما داخلاها الشك في حبه بما سمعته من كلام الدكتور « ن .. دلطا عقلها على ما خادعها .. وانه لم يكن يظهر لها الحب الا اذا اخذني اليها في خدمته كما فعل وقت حادثة الارمن وغيرها .. وتذكرت ترددته في العقد عليها فصح عندها صدق الدكتور في اقواله ولم يرق لها بها شك في ذلك فالفتت اليه وقالت « قد صدقك يا دكتور فما العمل الان ؟ »

قال « العمل أن تفري من هذه القصور بما خف حله وجعل ثيرين وأبقي أنا هنا حتى أتم المهمة التي أتيت بها . هذا هو رأي ولا يصح تجاهل فراركم إلى الغد » فهضت وهي تعمل فكرها وقالت « أنا ذاهبة لأدبر وسيلة لفارار البطلة فامض انت لثأرك وأنا شاكرة هذه الفرصة . وسأذكر فصلات ماحيت »

فودعهما الدكتور بكت شيرين لوداعه وتولست إليه أن يفر معهما فقال « انت وجودي هنا لازم لمصلحة الجماعة أما انت فتجلاي واصبري وستدور الدائرة على الباغي ولو بعد حين » وخرج

الفصل الحادي والسبعون

الفشل الكبير

فلتركم يذربون امر فرارهم وترجع إلى عبد الحميد فإنه أصبح بعد ذهاب رامز وايه وهو يتوقع ان تصدق حيلته وقد اوشكت ان تنجح لو لم يبادرهم سعيد بوصية مدحت كارايت . فظل عبد الحميد يستظر نمرة حياته يومين وهو لا يستقر له قرار وكان يتوقع ان يوافيه ناظم بخبر الجماعة في اليوم التالي فلما ابطأ عليه الخبر جعل ينتحل الاسباب لتأخره

وهو في ذلك إاته نادر آغا في الصباح يخبره بقرار القادين ج مع شيرين فاقشعر بدنه واخذ في البحث والاستطلاع حتى قلب يادر رأساً على عقب ولم يبق احد لم يستطقه . فتبين بعد البحث أنها فرت مع فوزي بك أحد كبار الباوران وهو رئيس فرقه من حرس الالبان المهدود إليهم حراسة تلك القصور . فسقط في يده وبيت الارصاد والعيون في اطراف المملكة وقد تشاجر من فرار تلك القادين لما يعتقد من علاقة حلها بحياته فأسودت الدنيا في عينيه واحس بفشل لم يتنق مثله . ولم يتوسط التهار حتى آتاه تغرايف من ناظم بك في سلانيك يخبره فيه ان احد اعضاء الجماعة تعمد قتله فاطلق عليه الرصاص فاصابه لكنه لم يمت وان الجمعية أصبحت ذات باس . ثم آتاه تغرايف آخر ان فدائياً حرّاً قتل سامي بك مفتشر البوليس وهو ذاuber الى قروشه . وكان السلطان قد كلفه بالبحث عن رئيس الجمعية والفتى به وتوالت التغرايفات الى المأذن باضطراب الاحوال في مقدونيا والبانيا وان الناس في خوف شديد

ر كان عبد الحميد يتلو هذه التغراقات وهو في غرفة المطالعة في الماين الصغير كالعادة والباشكاتب بين يديه . وكان ينثأر عدم الاكتتراث امامه وبشدت عزته ليوجهه انه على قمة من قدرته . ثم خاف ان يبدو ضعفه فصبع في خوف على حياته من اعوانه لاعتقاده ان هؤلاء الاعوان لا يعلمهونه الا خوفاً من بطشه او طمعاً به فالله فاذا راوا منه شيئاً انقلبوا مع الجباب الاقوى - فلما خاف ظهور ضعفه نرض وهو يتكلف الضحك وقال « لقد آن لي ان افك بـ هؤلاء الاغرار انت الرفق بهم لم يجد نفعاً » فوقف البلاشكاتب واستأنن وهو يعلم ان عبد الحميد يكاد يموت خوفاً ولذلك ظهر انه صدقه وانصرف



شمسي باشا

اما عبد الحميد فدخل غرفة الكتابة للخلوة بتنفسه ولم يصلها حتى تنفس الصعداء وقال « ويل لهم يفتكون برجالي .. انهم غير الاغرار السابقين الذين كنت ابتاعهم بالاموال - متى كان اوثاثك الملايين يعرضون انفسهم لقتل ولا يبحرون بالسر ؟ حتى النساء نعم صاروا كالرجال شدة وبطشنا .. » وتذكر القادرين وذيرن فقف شعر راسه وقال « ويل لك يا ارمانيه خرجت من يلدز حية مع جنديك ؟ قد أخطأت في الـ الله كان يبني في ان افتك حالاً .. ويلاه قد خرجت ونجحت ولا تأبه ان تضع

طفلها وهو الذي سيكون شرّماً على أبيه .. هل افل نجم سعدك يا عبد الحميد واقاب
الزمان عليك ؟ » قال ذلك وقد غص بريقه وبكي بكاء حقيقياً ثم تشدد ووتب من
موقفه وهو يقول « مني كان أولئك الملايين متهددين على اختلاف الطوائف والمذاهب ؟
لا .. لا ينفعني ان ا Yasن وانا عبد الحميد وقد غالبت اولئك الفعلان ثلاثة سنة وغلبهم
افيعجزني امر هذه الشرذمة ؟ لابد من التفريق بينهم ولا بد من الفتك بهم » واطرق
لحظة يذكر وتناول سيكاراً واسعه ثم جعل يختار في الغرفة ذهاباً وإياباً ثم صاح بفترة
« شخصي .. شخصي .. هو الرجل اللائق بهذا العمل انه فناك شديد .. هل
اشاور احداً بشأنه ؟ لا انه الرجل الشديد وقد اذخرته هذه الفایة .. سارسله
وأفوض اليه ان يعزل ويولى ويقتل ويرقي .. وارسل من الجهة الثانية من يفرق بين
مذاهبيهم ... إن صائباً ماهر وسارقه فيستملك في خدمتي وقد كان في مقدمة الذين
افتلحوافي الكشف عن الجمعية واعضاها .. امثال الملايين ساينده هذا وقته .. قد
ياذخرته مثل هذه الساعة »

قضى ساعة في مثل ذلك ثم طفق يدبر أسباب المقاومة ويدرس الجوايس مما
سرراه في مكانه

الفصل الثاني والسبعون

شعبة جمعية الأتحاد في مناسير

ما انخلت جلة الجمعية المركزية في سلانيك كما تقدم عاد رامز الى امه ورجعت
إليه هواجسه بشيرين وابن هي وخطيب اباء بمحديثه معها كما حدثته بتاريخ احياته بعد
فراقه تلك المدة الطويلة .. فقضيا يوماً في مثل ذلك واخيراً قال سعيد « ابن هي والدة
شيران الان ؟ »

قال « اخباري في جارهم اتها ذهبت للتفتيش عن شيرين في مناسير او جهاتها »
قال « دعنا نذهب الى هناك فنجعل منها اوامر الجمعية المركزية الى شعبتها ..
الم تقرر الجمعية بالامس ان ترسل وصبة مدحت وسائر قراراتها الى فروعها ؟ وهي
طبعاً تحتاج الى رسول سريين لكنن نحن رسلاها الى مناسير »
ففرح رامز بهذا القرار وقال « سأقابل الباتكاتب وآخرين .. بذلك » وافترقا

وفي اليوم التالي ضرب نظام بك واعتزل سلانيك لهذا العمل لاتهم لم يتعودوا ساعاته . وبعد أيام أعدت التقارير وغخوها مما يطلب منه إلى شعبة سلانيك وكابا مكتوبة بالارقام (الشيفرا) على نسق خاص بين الجماعتين
وصل إلى مناسير واهتدى إلى كاب الجماعة فبلغه ما يحمله من الأوامر الجديدة فاعتزم بعقد جلسة خصوصية لهذا الشأن فعقدت سرًا نحو ما ذكرناه في جمعية سلانيك . وكان الكتاب قد حل رموز الرسائل وهي أنها فانعقدت الجلسة وهي مؤلفة من مجموعة
الضباط وموظفي الحكومة وفي مقدمتهم القائمون مادق بك قومندان الإي الفرسان الرابع عشر وتغري بك ترجان الولاية وحبيب بك يوزباني الطنجية وضبا بك ملازم الطنجية وإبراهيم شاكر إفendi معلم الرسم في الكتب الاعدادي ورمزي بك بكاشي اركان حرب ووهيب إفendi وغيرهم . وكانت من ذوي الأخلاق السامية والمبادئ
الصحيحة وخصوصاً صادق بك وكان أكثراً عملاً وأشدّهم حسنة وهو رب السيف والقلم وعايه كان المول في التدارير التي دبروها والبيانات التي أتواها والكل يسيرون على خطواته ويتقدون برأيه^(١) فهو كالرئيس فيهم أو المرخص وكان ربعة مستدرير للحجج مع ميل إلى الضعف ثالث أصحاب الزجاج العصبي لكنه لم يكن فيه حدة المصرين وتقليمهم بل هو راطط الجأش ثابت في أعماله يظهر المدح والكبتة في عباده فإذا دعت الحلة إلى الحلة أو العمل غضب كالسد الهائج لا يالي ماذا يفعل وقد يضحي نفسه في سبيل الحق والحرية

فلا عقدت الجلسة كانت أول شيء قدسوه التعريف بسيده والد رامز وما له من الأيدي البيضاء في تاريخ الاحرار . ثم تلوا وصية مدحت ورجعوا بها كل الترحيب وأعجبهم ما كان من قرار الجمعية بتأييدها وتحمسوا ووافقو على الفنك وقرروا توزيع ذلك في الأعضاء وفي فروع هذه الشعبة برسته وغيرها . وانتهت الجلسة وأول شيء باشره رامز أنه ذهب للبحث عن والدة شيرين في منزل بعض أقاربهما واحد والده معه فلقيته بالبكاء فرحاً بقدومه وفرحت بقدوم والده لأنها تعرفه وسألها عن شيرين وشأنها . فقصت عليه حديثها مع صائب ومداريزهما وعن ثباتها في حبه وكيف اختفت بفترة . فاعجب بمصدق محبتها وأزاده اسفًا على شبابها . وبكيا عليها مع العزم على البحث عنها مظاهرها فقال رامز « لا بد من العثور عليها .. الا ان يكون ذلك المأمور قد حلها على الآثار تخاصمه ». ولكنها عاقلة لازر تكب هذه الرذيلة وهي تعلم ان لازال

(١) خواطر رازى

جيًّا بل هي تحب الحياة من اجلها كا احبها من اجلها . . . »

فقال والله « لا بدَّ من الصبر حق يأني الله بالفرج . . . وابن طهواز ؟ »

فقالت « لا اعلم اين هو ولكنك كان مع صائب بك الى آخر يوم »

فقال رايز « انه الآن من ارباب الرتب المقربين في يلدز »

فضحكتوا رغم مام فيه من الحزن والفارق لانهم يعرفون حقيقة طهواز وأنه لا ينفع
لغير الاكل ولو لا امراته لم يعرف احد بوجوده »

خرج رازم من هناك كاسف البال ولم يتأس من وجود شيرين فبعث بعض الناس
يبحثون عنها في القرى والاديار وفي كل مكان ظنها تذهب اليه قام ينفط لها على انر .
فيئس من وجودها واعتقد ان عبدالحميد وجوايسه هم سبب هذا الشقاء فازداد نعمة
عليهم واصبح يقتسم الفرص الثنائي في مقاومتهم

مضت ايام وهو يستقل بعسايدة كاتب الجمعية في كتابة المنشورات ونسخها وتدمير
من يوصلها الى الجهات وكانتا يرسلونها مع النساء غالباً بعد الشبهة عنهن بالاشتغال
بالسياسة . وهو في ذلك انه الدعوة للجتماع في جلة مستعجلة وعينوا مكان الاجتماع
وكانوا انما يجتمعون للمداولۃ في خبر جديد او حدث جديد او تقرير امر مستعجل .
فلا عقدت الجلة واستقر الاعضاء في اماكنهم قال المرخص « دعوناكم الليلة لاخبار
عظيمة الاهمية جاءتنا على يد مركز سلانيك وقد حملها الاخ الكاتب وهو يتلوها . . .
فضل ايتها الاخ اتل علينا » وأشار الى كاتب المسر

فوقف كاتب المسر وبيده ورقه وقال « هذا الكتاب من مركز الجمعية المقدسة
في سلانيك تقول فيه انه جاءتها رسالة رقية من اخينا الدكتور نـ . من يلدز تحتوي
على اخبار عظيمة الاهمية وهذه صورة الرسالة كا هي » واخذنا الكتاب يتلو رسالة
الدكتور وهذا نصها :

« تأخرت عليكم في ارسال الاخبار اذ لم اوفق الى من يحمل رسالتي اليكم هذه
المرة لان التشدد في المراقبة اصبح فائق الحد واصبح العاغنة يخاف من خياله ويشك
في نفسه . . ان اخباري هذه المرة حسنة وحامة — اعلموا اولاً ان اصابة نظام بك
بالرصاص ومقتل سامي بك بهذه السرعة والعزيمة كان لها تأثير شديد في نفسه وفي
نفسى . بارك الله فيكم . امهوفانه قام وقدم والتلف جوايسه حوله وغافقوه وحرضوه
على التشدد والفتوك فمهى الى شعبي بابا الفتوح الغليظ ان يتولى تعقیبكم والفتوك
بكم . وقد ارسل الجوابيس وفيهم صائب ليث روح الشفاق بين العناصر والذاهب .

ذلك التعریض فقال « صدق ان كثیرین من طلاب الملاک لم يتألوه الا بعد سفك الدماء و هو لاء اخواننا العباسیون اكبر شاهد على ذلك وقد وفیهم ابو مسلم الظراسی الذي كان يقتل على التهمة . لكنني لا ازال انتظر ان اسمع منك السبب الذي حملك انت على ما فعات ولم الح عليك بالاستفهام الا لاستفید من حكمتك فقد كنت كما تعلم كثیر الثقة بعلمه والاعجاب بتعقلك » .

الفصل التاسع والسبعين

الحب

فتشهد سعيد تهداً عميقاً واجال نظره في الحاضرين حتى وقع على الزهراء وكانت شاخصة فيه وقد غطت رأسها بالنقاب واخذ منها الاعجاب به كل ما أخذ فلما رأته يتذكر اليها حولت نظرها عنه اما هو فلما وقع نظره عليها ابتسامة شفت عن معانٍ كثيرة وتهداً ثانية وقال وهو يوجه كلامه الى الناصر « ان السبب الذي حملني على ما ارتكبته اعما هو اشرف الاسباب بل هو الوسيلة الوحيدة لجمع شتات الناس وتأليف قلوبهم وحفظ انواعهم وهو الذي امر به الشرع واوصى به الله وقد امتدحه الحكماء وتقدّل به الشعراء بل هو اكبر الفضائل — ان ذلك السبب يا سيدي هو « الحب » هذا هو الذي حملني على ارتكاب ما ارتكبته . فهل في الحب ما روقد جاء ذكره في القرآن والحديث ؟ اليس هو سبب نظام الكون ؟ »

فاما قال ذلك اجفلت الزهراء واطرقـت حيـاءً لـما رـأـيـاـهـاـ اـنـ يـشـيرـاـلـىـ جـهـهـ اـيـاـهـاـ وـلـمـ يـخفـ غـرضـهـ عـلـىـ النـاصـرـ فـقـالـ لهـ « وـلـكـنـ اللهـ يـنـهـيـ عـنـ التـعـدـيـ عـلـىـ نـاسـ الـآـخـرـينـ » قال « نعم يا سيدي ولكن الحق الطبيعي في الحب للمحب الاول خلافاً لما هو جار في اعمال الناس فان القوي يفوز بما يريد والضعف يذهب حقه هدرأً » قال الناصر « و اذا كان الضعف حكماً ولا تقضي عليه حكمته ان يخاف العقاب فيبتعد عن هؤلئين الاشد ؟ »

قال « نعم . اذا استطاع الى ذلك سبيلاً ولكن غلب على امراه وتعکن الحب من قلبه حتى اعمى بصيرته واصبح لا يرى للحياة معنى بدون الاجتماع بمحبته — كما يعمى طالب الدنيا بزخر فنها وكما يعمى طالب المباداة فلا يرى غير مطلبـهـ وكـماـ يـعـمـىـ طـالـبـ اـجـاهـ

فانه يقتل ويغدر ويخون في سبيل الحصول عليه وال Sidneye ظالم واستبداد تناقض الحرية الطبيعية التي منحها الخالق لبني الانسان . واما الحب فانه شرارة طبيعية ام ، الخالق بها وقال في كتابه « ومن آياته ان خلق لكم من افسكم ازواجاً لسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فلا غرو اذا اعرض طلبه فنث او قتل او غدر وخصوصاً اذا كان الحب سبق سواء الى ذلك الحبيب .. »

فلم اسمعت الزهراء قوله خافت ان يظن الاختلاف بينها وبين سعيد تبادر المجة قبل عبيتها اليه فاستأنفت بالكلام فأذن لها فقالت « ولكن شرط المجة الصحيحة ان تكون متبادلة فاذ لم تكن كذلك بطلت فضيلتها واصبح طلبها تعدياً .. »

ففظار سعيد اليها وهي تتكلم وقد ترتعن صوتها الرخيم فلما فرغت ظل ساكتاً ينظر اليها كأنه يتوقع ان تعود الى الكلام فلما علم انه فرغت قال « ان الحب فضيلة منها اعترضه او تقبلت عليه الاحوال لانه اساس العمران والمحبون هم الفضلا؛ ولو لام ثلات الدنيا من الرحمة والاحسان . ولو لا الحب يا حستاء لكان الحياة كالصحراء القاحلة ، او ها اجاج وهو اها سوم وانا يجعل ما ذهباً وسموها نسيناً « الحب » آه من الحب » ولما قال، ذلك شرق بريقه ثم اجهش بالبكاء والاحسر ينظر اليه ويعجب وكان اول من شارك سعيداً بالبكاء عابدة فانها لم تستطع امساك نفسها لما غاب على قلبها من التذكرة الماضية وكيف كانت طلاقة القلب بسعيد وهو يضحك منها ويستخدمها في سبيل مواعدهما ما زالت تشعر بالعاطف عليه فلما رأته يبكي بكت

اما الزهراء فاجابت سعيداً قائلة « ولكن اذا تأكد الحب ان حبيبه لا يحبه ولا يقدر ان يحبه ولا سبيل لاوصول اليه . الي من الحكمة ان ينساه ويتسلى عنه ؟ »

فتشهد سعيد وقال « لي عقل يجعل المشكلات ورأي يرد السبل الجارف وعزم يهد الجبال الراسيات وقد تفاقت على كل انواع المشاق . لم تعرض لي مشكلة الاحلالها ولا اردت امرأ إلا قدرت عليه - الا الحب فانه غلبي على امري وذهب بمعزتي وقضى على عقلي وحكمتي .. »

فقالت « فماذا يفعل الحب اذن ؟ ولا حيلة له الى حبيبه ؟ »

فهذا سعيد يدله الى حبيبه وقال « اذا تأكد بأنه من حبيبه فقد أكده انه ماتت اذ لا حياة للمحبين بغير الحب وادا عاشوا فيعيشهم الشقاء فما عليهم الا الرحيل من هذه الدنيا » قال ذلك واستخرج ورقة ملفوفة ووجه كلامه الى الزهراء وقال « اني اموت فداء الحب » والتفت الى عابدة وقال « ساحبوني يا عابدة فقد ظلمتك كثيراً » ونظر الى

الناصر قال « ليس لك عندك غير هذه الروح عقاباً على جرائي . خسنتها » والقسم
ما في تلك الورقة

— ٢٠٢٣٢٢٢٢ —

الفصل الثانيون

عايدة وسلم

فعلم الناصر انه نتناول السم فصاح فيه « ويالله اقتل نفسك ؟ . تمبل .. اني احب
استيقائك واضن بحكم عالم مثلك ان يموت . فدكنت احب ان استيقيك ماذما فعلت ؟ »
قال « استيقيني لاخدمك واموت حسرة .. وقد يشت من حبيبي ؟ لا حياة
لي الا بالزهاء »

قال « اهديك مئات من الجواري اجل منها .. »

قال « الحب يا عبد الرحمن لا يستبدل ولو لا ذلك لكان هذه (وأشار الى عايدة)
اولى الجميع بالبدل ولكن قلبي لا يرضي احداً غير هذه (وأشار الى الزهاء) فاني
احسن كأنها شطر من قلبي ولا يعيش الانسان بنصف قلبه .. فاعنديها اتها جوهرة
جمعت بين الصدق والاخلاص ولكن لك وحدك فقط .. »

قال الناصر « كيف تقتل نفسك بيديك ؟ »

قال « خبراً من ان يقتلكи الجلاد »

فصاحت عايدة « اذا كان هنا دواء المحب اذا يئس من حبيبي فما اجرني انت
اقتل نفسي .. » واخذت تبكي فادركت الزهاء مقصودها فاقتربت منها وأشارت اليها
ان تسك

اما سعيد فلم يمض لحظات حتى بدأ الالم في بطنه واسترخي فاشار الناصر ان يحمل
من ذلك المكان وقد شق عليه امره لانه كان يحبه وبمحترمه ولو بقي جائلاً لاستخدمه في
بعض اموره

خلوه وقد كاد يغمى عليه وبعد قليل مات فدفنه

اما الناصر فيبعد خروج سعيد تراجع واعتبر وزادت الزهاء رفعه عنده وازاده
جيلاً طا والفت اليها وابتسم فرأها تنظر في الارض كأنها تفكير قال « كل ذلك جرى
لا جلاك ؟ .. »

قالت « اني حقيرة لا استحق هذه العناية ولكن الرجل قصير العمر وحده الله »
 قال « نعم انه دلنا على فضلك وصدق مودتك . . فات اليوم ارفع مسأله عدداً
 من قبل ، فاطلبي ما تثنين »

قالت « ان نعم مولاي متوايله على جاريته وقد ندم حظي بعفوه عن اخي هناوانها
 اشارك هذه المسکينة بمحاطها لانها قاست العذاب في اثناء مسامعي ذلك الرجل الغريب
 وكانت تحبه وهو لا يحبها وهي تخادعها وهو يخادعها فاحب ان تزال تعزية تنسيها ذلك »
 فالثفت الناصر الى سالم وقال « يا سالم .. هل انت متزوج »

قال « كلا يا سيدى . »

قال « انزوج عايدة انها اديبة عاقلة »

فانشق وجهه وحنى رأسه وقل « ذلك حظ كبير لي وكيف لا اختار نصي
 اختاره لي امير المؤمنين ؟ »

فأمر الناصر ان تزف عايدة الى سالم وان يخصص لها قصر يعيشان فيه برحد ونهاء
 فقالت الزهراء وهذا ساهر يكون في بطانة مولاي الناصر فانه اهل للناصب الكبير
 قال جملوه من خاصتنا — وانتهى المجلس على تلك الحالة

﴿ ثُمَّ قَتَ الرَّوَايَةُ ﴾